

# اللُّجَّةُ وَالنُّجُونُ

دراساتٌ تارِيخِيةٌ وَتَحْلِيمِيَّةٌ وَمُقَارِنةٌ

تأليف

الدكتور حسين عومن

الأستاذ المساعد بكلية الآداب

جامعة الإسكندرية

الطبعة الأولى

سنة ١٩٥٢



# اللُّجَّةُ وَالنَّجْعُ

دراساتٌ تارِيخِيةٌ وَتَحْلِيمِيَّةٌ وَمُقَارِنةٌ

تأليف

الدُّكُور حُسْنُ عُونُ

الاستاذ المساعد بكلية الآداب

جامعة الاسكندرية

الطبعة الأولى

سنة ١٩٥٢

# فهرس محتويات الكتاب

## ١ مقدمة

### ٧ اللغة

نشأة اللغة ٧ ، رأى أفلاطون في اللغة ٩ ، تقدم العقل على حساب الأديان — نظرية بقية عالما، النزول إلى اللغة ١٠ ، قارون واللغة ١٣ ، كاتيليان واللغة ١٤ ، نظرة علاء الشرقي إلى اللغة ١٥ ، منشأ القبيل بفقه اللغة الترقيف عند الشرقيين ٢٤ ، المذهب الروحي في الشرقي ٢٥ ، تعليم الغربيين المذهب الروحي ٢٧ ، لامعنى للفول بتوسيع اللغة ٢٨ ، اللغة في نظر عالم التشريح ٢٩ ، مراحل نمو اللغة عند العامل ٣٠ : أشهر اللغات ٣٦ ، أسبق اللغات — رأى صاحب الفهرست في أسبق اللغات ٣٧ ; رأى ديرودوت في أسبق اللغات ٣٨ ; لغة الأسرى أنو ٣٩ ماهي اللغة العربية ٤٢ ؟ ٤٢ ؛ عمل كانت هناك لهجة تسمى لهجة قريش ؟ ٤٢ ؛ النحو العربي أنس على لهجة قريش ٤٤ ؛ حاجتنا إلى معرفة الاتجاهات العربية الأخرى ٤٤ ؛ ما عمله اليونانيون في لفهم ٤٥ ؛ دراسة اللغة اللاتينية ٤٦ ؛ فساد الفكرة القائلة بضعف الاتجاهات العربية الأخرى ٤٨ ؛

## ٥ اللغة والنحو

النحو بالنفس اللغة — لا ينشأ النحو مع اللغة ٥٢ ؛ العقل متاخر في الوجود عن الحس ٤٠ ، نشأة اللغة اليونانية واللغة اللاتينية — النولكlor واللغة ٣٣ ؛ مبدأ عمل العقل في اللغة — الرسوم المبسوطة والرسومية ٤٤ ؛ أطوار اللغة ٥٥ ، سبب بقاء الرواسب القديمة في اللغة ٥٥ ؛ مقارنة اللغة العربية بغيرها من اللغات ٦٥ ، الإعراب بالحركات أسبق في الضبط من الإعراب بالحروف ٧١ ؛ نشأة المغربي المختلفة في التعبير ٧٢ .

## ٧٨ نشأة النحو العربي

النحو يمتهن الفن ٧٨ ؛ أسبقية الفنون للعلوم — نشأة النحو الفني ٧٩ ، الفرق بين تاريخ الفن وتاريخ العلم — ليس من السهل تأريخ النحو بمعناه الفني ٨٠ ؛ ظواهر النحو الفني ٨١ ؛ الإعراب بالحركات أسبق من الإعراب بالحروف ٨٢ ؛ الأدلة على سبق الإعراب بالحركات ٨٣ ؛ حروف الإعراب لم توجد كاما دفعة واحدة — ووجه الشبه بين الإعراب بالحروف في العربية واللاتينية — الأدلة على عدم وجود حروف الإعراب دفعة واحدة ٨٥ ؛ أوائل النحاة وفهمهم لغة العرب ٨٧ ؛ موقف النحاة من قواعدهم ٩١ ؛ فساد فهم النحاة لبعض الآيات ٩٢ ؛ مثل من تعليقات النحاة ٩٦ ؛ ملاحظات على البحث في النحو الفني ١٠٠ ؛ أثر النحاة اللاتينيين في اللغة الـلاتينية ومقارنة ذلك بنحاة العرب ١٠٦ ؛ صعوبة معرفة تطور اللغة العربية —

مقارنة اللغة العربية باللغة اللاتينية يهدينا لفهم شيء عن تطورها ١٠٨ ، أطوار اللغة اللاتينية ١٠٩ ؛ نتائج المقارنة بين اللغة اللاتينية واللغة العربية ١١٩ ؛ أطوار اللغة العربية ١٢٦ ؛ تطور استعمال اللغة ١٢٨ ؛ نتيجة البحث في النحو بمعنىه الفنى ١٣٩ .

## ١٤٩ النحو بمعناه العلمي

سبب وضع النحو عند الشرقيين ١٤٩ ، سبب وضع النحو عند الغربيين ١٥٠ ؛ الشرق يحدوه في تفكيره معنى روحي ١٥١ ، المراحل الدينية في الشرق ١٥٢ ، الغرب يسوده معنى مادى — ينبعى القضايا على روح الشاعر ١٥٢ ؛ الدارم الإسلامية نشأت خدمة القرآن ١٥٥ ؛ البيئة العربية مأوى للمهاجرين وطلاب الكتب من الأمم الأخرى ١٥٦ ؛ كان اللحن يجرى في البيئة العربية قبل الإسلام ١٥٨ ، ما وصل إلينا من النصوص الأدبية القديمة لا يمثل اللغة العربية تمثيلاً صحيحاً ١٥٩ ؛ مكة وما كان فيها من بيوت تجارية وسفراء ١٦٠ ؛ ظاهرة الفتيات الأجنبية في الجزيرة العربية ١٦١ ، عدم خطورة اللحن في صدر الإسلام ؛ دور اللحن الخطير ١٦٢ .

## ١٦٣ تاريخ اللحن في العربية

أنواع اللحن ١٦٤ ؛ تعريف اللحن ١٦٧ ؛ أنظر أنواع اللحن ١٧٧ ؛ ما يجرى عند علماء القراءات هو نفس ما يجرى عند علماء اللغة اليونانية واللاتينية ٢٧٩ ؛ الفرق بين تاريخ اللحن وتاريخ النحو ١٨١ ؛ أولية اللحن ١٨٢ ؛ اللحن في العصر المعاشر — اللحن في صدر الإسلام ١٨٥ ، اللحن بعد الفتوح الإسلامية ١٨٦ ؛ اللحن في الصيغات المتفقة ؛ لحن الفقهاء ١٨٨ ، لحن القراء ١٨٩ ؛ لحن الشعراء ورجال الأدب ١٩١ ؛ ظاهرة تنمية اللغة ١٩٤ .

## ١٩٨ نشأة النحو العربي والأسباب التي دعت إليه

نشأة العلوم الإسلامية الأولى ٢٠١ ؛ علم القراءات ٢٠٢ ؛ علم التفسير ٢٠٥ ، علم الحديث ٢٠٦ ؛ علم الفقه ٢٠٧ ؛ الضرورة في وضع النحو كانت أشد الحاجة من الضرورة في وضع العلوم الإسلامية الأخرى — موضوع علم النحو ٢٠٨ ، السبب في وضع النحو ٢٠٩ .

## ٢١٢ من هو الواضع الأول للنحو العربي

صنيع العرب بلغتهم وصنيع الروم بلغة اليونانيين ٢١٢ ؛ الفرق بين العرب والروم من ناحية النحو — ترجمة الدواوين إلى العربية ٢١٣ ، كلة نحو وما براد منها ٢١٤ ، أصل كلة نحو وتطور معناها ٢١٧ ، المنهج في معرفة الواضع الأول للنحو ٢١٩ ، مامي البنية الأولى في بناء النحو العربي ٢٢٨ ، مناقشة الروايات التي تنسب وضع النحو إلى أبي الأسود ٢٤٣ ، اتصال أبي الأسود باللغة السريانية وبعلاقتها ٢٥٠ .

المراجع . التصويب .



# سِرِّ الْمَلَكُومِ الرَّشِيقِ

## مقدمة

منذ عام ونصف عام تقريباً ظهرت الطبعة الأولى من كتابنا عن العراق وتاريخ حضاراته : ولم يكن ذلك في الواقع سوى خطوة أولى ، ولذلك ضرورية جداً لدراسة الحضارة الإسلامية فإذاً أن ينشئ العراق تعتبر ألم ينشئ بالنسبة لهذه الحضارة فقد احتضنتها منذ أيامها الأولى وغذتها بشار حضارات تركت فيها منذآلاف السنين ؛ وبقيت نسخها بنتائج عقليات أجنبية تفديها من الشرق طوراً ومن الغرب طوراً آخر ؛ وليس هناك من سهل لدراسة الحضارة الإسلامية دراسة عميقة ، وفهمها فيها صحيحاً إلا إذا درست أصولها وبنائها وعرفت مصادرها ومدى ما يمكن أن يتصور من تبادل وامتزاج بين العقلية العربية والعقليات الأجنبية . ولقد قمنا بهذه الخطوة في ذلك الكتاب الذي أشرنا إليه منذ سطور وسحرنا على أن نبين فيه أكثر من مرة أن هدفنا من تأليفه إنما هو التهيد لدراسة الحضارة الإسلامية في مختلف مظاهرها على أسس علمية صحيحة . وفق مناهج البحث الحديث ، فينبغي منذ الآن ألا يكتفى بعرض تلك الحضارة الإسلامية عرضاً عاماً أو وصفها وصفاً شاملاً ، عنينع العالم . والمؤلفين في الشرق ، سواء منهم القدماء والمحدثون ؛ وإنما ينبغي أن تدرس تلك الحضارة دراسة جديدة فتحلل عناصرها ، ويرد ما يمكن أن يرد منها إلى أصوله القديمة ومنابطه الأولى ؛ وعلى ضوء هذه الاعتبارات ينبغي

أن تتجه إراراتنا للحضارة الإسلامية وجهة نمكنا من فهم - لم كانت الحضارة الإسلامية هكذا ؟ - بعد أن فهمنا - كيف كانت ؟ ومدى ما وصلت إليه من نمو واتساع - .

ولما كانت هذه الأسس هي راندنا ، فقد اعتزمنا ، ب المؤلفنا اليوم ، أن نتبين أثبتته الأولى في هذا البناء الشائع وأن نرمي بحدى قواعده بعد أن بذلنا له بحثنا عن العراق وحضاراته . وهذه هي مرحلة ضرورية لدراسة الحضارات الإنسانية قد يدعها وحدتها ؛ فحضارة الشعوب تتكون ثم تمضي عليها قرون والناس من يكتبون عليها يقتفيون آثارها ، وأخيراً يأتي عهد يبدأ فيه العلماء وأصحاب الفكر يحللون تلك الحضارة ويفهمنها مع تعليل مظاهرها ويبحث أصولها ومقارنة مسائلها بغيرها مما سبقها أو عاصرها من حضارات ، ف بهذه النسق قد درست الحضارة اليونانية ومن بعدها الحضارة اللاتينية . . .

وقد يتتسائل القراء عن السبب الذي جعلنا نتخيل البحر من بين سائر العلوم الإسلامية الأولى ليكون موضوعاً للدرس ، بينما غيره لم يكن أبسط منه شيئاً ولا أقل منه خطاً ؛ ولكنه سيجدون الجواب عن ذلك مفصلاً في ثنایا أبواب هذا الكتاب وفصوله ؛ ومع ذلك فإننا نستطيع أن نلخصها فيما يلى حرصاً على مصلحة القراء وشأفة أن تتوسع أفكارهم قبل أن يسعفهم الوقت وتواترهم الفرصة لفهم كل مسألة تعرض لهم دون إيهال ولا إبطاء :-

معروف أن العلوم الإسلامية الأولى عديدة ؛ منها علم الفقه ، وعلم الحديث وعلم الرواية ، وعلم اللغة ، وعلم التفسير وعلم القراءات ، وعلم النحو ؛ ومعروف كذلك أن الظروف التي نشأت فيها تلك العلوم تكاد تكون واحدة . والأسباب التي دعت إلى نشأتها لاتكاد تختلف بالنسبة لعلم غربها بالنسبة لعلم آخر . ولكن النحو يمتاز عن غيره من العلوم الإسلامية

الأخرى بأشياء ، منها نصوّجه المبكر ووصوله سريعاً إلى مرحلة الابكال . بما لفت نظر العلماء حديثاً يجعلهم يفيضون في القول بشأنه : ومنها الآخر الأجنبي الواضح فيه منذ الشأة والذى لازمه في عهد نصوّجهه وإن كان له ملازمة كادت تخرج به عن موضوعه وتجاوز حدوده ورسومه ، ولو لا ما نشأ حوله من عالم استعمل كل منها بيدان من ميادين الابحاث اللغوية المختلفة . كعلم المعانى ، والبيان ، والبدىع ، وكعلم فقه اللغة بمعناه التقديم ، نقول لو لا نشأ هذه العلوم بجانب النحو العربي . وتخفيفها بعض الدبر عنه ، ولو لا ما اتصف به عقليه المؤلفين القدماء من إجلال أسلافهم السابقين ، واحترام تراثهم العلمي لتشتت ، فيما نعتقد ، ضوابط النحو وقراءاته ، ولضاعت معالله أو كادت تضيع في ثنايا هذه المعارف اللغوية الواسعة التي تأثر على جمعها وتدوينها نخبة من رواة اللغة ، وعدت غافر من عيالها ، ولا أصبح النحو العربي موسوعة ضخمة تضم بين مجلداتها كثيراً من الآثار اللغوية ، والدينية ، والعلمية ، والأدبية ؛ ولم يكن ذلك ، فيما نظن ، سوى نتيجة لأثر العقلية الأجنبية ، وتمادي من جانب علماء العربية في تتبع هذا الآخر واستغلاله إلى حد بعيد وليس كتاب سيويه الذي هو بين أيدينا الآن والذى هو صورة مصغررة من تلك الموسوعة الضخمة إلا إذاناً بهذا الاتجاه . كل هذا جعلنا نوجه هنا أول مانوجه إلى دراسة النحو العربي دراسة تحليلية على ضوء ما قدمناه من دراسة لبيئة العراق وما توالى عليها من حضارات . هذا وهناك عامل آخر قد حفزنا إلى الإسراع بهذا المؤلف وإن لم يكن داخلاً في طبيعة البحث ولا متربتاً عليه أحد الأسباب المنطقية في تأليفه ، ذلك هو ما قدمه لنا معهد الدراسات العليا من فرص موائية وما لمسناه في طلابه من شوق إلى المعرفة ورغبة في الاستزادة منها ، فلقد درسنا معهم هذا الموضوع في خلال العام الدراسي الحال ونشهد الله أن

ما عهدناه فيهم بن سعاع بالقول ، وقبول للفهم ، واستجابة روحية وعقلية لا  
كنا نبديه من آراء ، ونعرضه من نظريات كانت من أهم الدوافع على أن  
نمضي قدما في التأليف دون تردد ولا إبطاء .

وموضوع درس المضاراة الإسلامية ، كما يرى القراء ، واسع طويل ،  
وهو في حاجة إلى تضافر في القرى وتعاون في التفكير وتأزر في الإنتاج ؛  
وليس من السهل أن ينهض بهذا العبء شخص وحده ، وإن ذنب فليس لنا  
أن نزعم الاستئثار به بالرغم من هذا التهديد الذي قلنا به في دراسة بيته  
العراق وكفانا من الاطلاع والبحث والعناء جهداً لا يكاد يطاق والله نسأل  
أن يلهمنا الرشد في القول والسداد في العمل والتوفيق في الأداء ٢

حسن عوره

الإسكندرية في ٢١/٧/١٩٥٢



# اللغة



## النقط الأساسية

ما هي؟ كيف تنشأ؟ أشهر اللغات، أسبق

اللغات، ما هي اللغة العربية؟

## اللغة

هي أداة من أدوات التعبير والتفاهم في المجتمعات الإنسانية ، بل هي أهم تلك الأدوات على الإطلاق ، يمكن بواسطتها أن نشرح حاجياتنا ، ونبين عن رغباتنا ، ونبين للآخرين إحساسنا وشعورنا . ولللغة بهذا المعنى ضرورة اجتماعية ، فلا يمكن لمجتمع ما أن يكون له وحدة وكيان بدون هذه الأداة تربط وحدته وتؤلف بين أفراده .. وتحمّل ثبات أغراضه وأهدافه .

## نشأة اللغة

واللغة أيًّا كان نوعها تنشأ مع المجتمع الإنساني ، فهي عنصر أساسي من عناصر تكوينه ، وأداة فعالة من أدوات تطوره ونموه ورقابته .

وفي كل طور من أطوار هذا المجتمع تعتبر اللغة سرقة صافية تمسكـسـ عليها حياة ذلك المجتمع ، ليـرىـ من خـلـالـهاـ عـقـلـيـتهـ وإـحـانـاـهـ وـتـفـكـيرـهـ وـدـرـجـتـهـ منـ الثـقـافـةـ والـتـدـيـنـ . ولـهـذاـ فـقـدـ اـتـجـهـ فـيـ الـعـصـورـ الـمـحـدـيـةـ بـجـهـودـ كـثـيرـ منـ الـعـلـمـاءـ فـيـ الـغـرـبـ أـوـلـاـ ، وـفـيـ الشـرـقـ أـخـيـرـاـ إـلـىـ درـاسـةـ الـلـغـاتـ الـمـخـلـقـةـ فـيـ مـهـدـهـاـ رـفـيـ عـصـورـ نـوـهـاـ : لـيـتـفـهـمـواـ عـلـىـ ضـوـئـهـ حـالـةـ الشـعـوبـ فـيـ طـفـولـتـهـاـ وـيـدـرـكـواـ مـنـهـاـ حـرـكـةـ التـطـاـرـ العـقـنـشـلـيـ فـيـ . تـلـكـ الشـعـوبـ ، بـلـ هـيـ درـاسـةـ لـتـارـيخـ الشـعـوبـ إـنـ أـعـوـذـ المـؤـرـخـينـ وـجـوـدـ الـوـثـاقـ التـارـيـخـيـ .

ولـيـسـ هـذـهـ الـمـحاـوـلـاتـ الـىـ نـرـاـهـاـ مـنـ وقتـ لـآخـرـ بـيـنـ كـثـيرـ مـنـ الـعـلـمـاءـ الـذـيـنـ يـذـهـبـونـ إـلـىـ الشـعـوبـ الـبـادـيـةـ فـيـ أـفـرـيـقـيـاـ وـفـيـ آـسـيـاـ وـفـيـ أـمـرـيـكاـ الـجـنـوـيـةـ مـلـاـحـظـةـ لـذـاتـ هـذـهـ الشـعـوبـ وـمـاـ تـشـتـمـلـ عـلـيـهـ مـنـ مـقـاطـعـ وـأـصـواتـ وـمـاـ تـدـلـ عـلـيـهـ مـنـ معـانـيـ وـأـغـارـضـ ، ثـمـ لـمـرـفـقـ بـلـغـ ماـ هـنـالـكـ مـنـ تـطـابـقـ بـيـنـ هـذـهـ الـلـغـاتـ وـالـبـيـنـاتـ الـىـ نـشـأـتـ فـيـهـاـ ، نـقـولـ إـنـ هـذـهـ الـمـحاـوـلـاتـ لـيـسـ إـلـاـ نـوـعـاـ مـنـ تـلـكـ الـدـرـاسـاتـ الـلـغـرـيـةـ الـوـاسـعـةـ . وـالـكـلامـ عـلـىـ نـشـأـةـ الـلـغـةـ يـحـتـاجـ إـلـىـ فـصـلـ طـوـيلـ فـقـدـ شـغـلـ الـفـكـرـيـنـ قـدـيـماـ وـكـانـ مـوـضـعـ نقـاشـ وـجـدـلـ يـخـتـفـانـ بـاـخـلـافـ الـعـصـورـ شـذـةـ وـعـنـفـاـ ، وـلـاـ نـزالـ بـمـجـدـ حـولـ هـذـاـ الـمـوـضـعـ فـيـ الـعـصـورـ الـمـحـدـيـةـ وـعـلـىـ ضـوـءـ الـعـلـمـ الـتـجـرـيـيـةـ وـالـمـلـاـحـظـاتـ الـنـفـسـيـةـ نـظـرـيـاتـ عـدـةـ . وـلـسـاـ نـسـطـيـعـ فـيـ هـذـاـ الـبـحـثـ أـنـ نـتـعـرـضـ بـاـنـفـصـيلـ مـاـ تـجـهـ إـلـيـهـ تـفـكـيرـ الـقـدـماءـ وـلـاـ مـاـ اـهـتـدـتـ إـلـيـهـ تـجـارـبـ الـمـحـدـثـيـنـ ، فـإـنـ ذـلـكـ يـخـرـجـ بـنـاـ عـنـ الـمـوـضـعـ الـذـىـ رـسـمـنـاـ لـهـ الـخـلـةـ ، وـمـاـ نـظـنـ أـنـ بـخـثـنـاـ فـيـ حـاجـةـ إـلـىـ مـثـلـ هـذـهـ الـإـفـاضـةـ وـإـنـاـ يـكـفـيـهـ مـاـ أـنـ نـعـرـضـ لـرـوـسـ الـمـسـائـلـ وـبـنـيـنـ أـنـ الـأـفـكـارـ بـالـآـراءـ حـتـىـ يـكـونـ الـقـارـيـهـ لـبـحـثـهـاـ هـذـاـ عـلـىـ بـيـنـةـ مـنـ الـأـسـنـ الـعـامـةـ الـتـيـ تـسـتـلزمـهـاـ طـبـيـعـةـ الـكـلامـ عـنـ النـحـوـ وـشـأنـهـ وـتـحـليلـهـ وـمـقـارـتـهـ ، تـارـكـيـنـ الـفـصـيـلـ

في ذلك لعلماء الاتجاه اللغوية الخالصة ولمراجعة المتعددة الواسعة . وعلى هذا فلتتحدث أولاً عن وجهة نظر القدماء بالنسبة لنظرية اللغة ونشأتها ؛ ثانياً عن وجهة نظر المحدثين .

لم نجد فيها قرأتنا من آيكات الغربيين عن اللغات ونشأتها وتطورها من زعم أن اللغة توقيقية ، أي تنزل من السماء أو يوحى بها الله سوى أفلاطون<sup>(١)</sup>

ولهذا الاتجاه من ذلك الفيلسوف مايرره : فإن بيته التي شأ فيها، ودراساته التي اهتم بها ، وأساتذته الذين سموا به إلى كثير من المعايير الروحية ، وعصره الذي امتاز باحترام العقيدة والأوامر الدينية ، كل ذلك

---

(١) إنلاطون هو ذلك الفيلسوف اليوناني الكبير ذو الفلسفة الجبارية والمؤلفات العديدة الحامة . ولد في سنة ٤٢٩ ، مات في سنة ٣٦٧ ق.م ، أي أنه عاش نحو من اثنين وعشرين سنة . كان وهو في سن العشرين تقريباً تلميذاً لسقراط ولم يتلامذَ بعد لهذا السن على أستاذ سواه وصار أستاذًا لارسطو . وتعتاز مؤلفاته بعليقتها التي تكتب بها : إذ كانت تكتب على شكل حوار ، والتحدث فيها سقراط . أهم تلك المؤلفات : كريتون *Criton* ، فيدوف *Phèdre* ، فيدر *Phédre* ، جورجياس *Gorgias* ، بانكبيه (الوليجة) *Banques* ١٥ ، الجمهورية *la République* ١٠٥٥ والتروابين ١٠٥٥ . وليس من السهل أن نضي في تعداد مؤلفاته كلها ولا في تحليل هذه المؤلفات ؟ وحسبنا أن نعلم أن عدد ما ألقه من المخاورات قد بلغ ٤٣ نسخة وأربعمائة حواراً ؟ وله بعد ذلك نحو من ثلاث عشرة رسالة على شكل خطابات ؟ وله فوق هذا المقدمة الضخم مجموعة من الأفكار مدونة بلا نظام ولا ترتيب ؟ وفيها يختلس بهذه الأفكار وبتلك الرسائل فلم يثبت بصفة قاطعة أنها له ؟ وقد استطاع النقاد المحدثون أن يثبتوا له فقط من هذه المخاورات ما يقرب من ثلاثين محاورة .

كان حافزاً لتفكير إفلاطون ومهدأً لطريقته في مواجهة المسائل الفكرية وحل ما يمكن أن يعترضه من النظريات العلمية . كانت الديانة والآلهة تختل المكان الأسمى ، وكان ميدان التفكير الإنساني ذا أفق محدود ، ودائرة تجربة العلية لا تكاد تتجاوز البيئة التي يعيش فيها ، ولذا فكان سهلاً على الإنسان فيما كانت مكانته العلية ودرجته في سمو العقل وسعة التفكير إذ ذلك أن يعزز مالا يجد وسيلة لفهمه أو مايسما فوق مداركه إلى الطبيعة ، إلى القوة الخالقة ، إلى الآلهة . هذا والدرس لتاريخ الأديان والملم بطبيعة المجتمعات التي نشأت فيها تلك الأديان المختلفة يستطيع أن يلمس تماماً أن تقدم العقل البشري كان في كثير من الأحيان على حساب الأديان ، بمعنى أن العقل البشري كلما اتسعت آفاقه فأدرك بوسائله الخاصة وتجاربها المختلفة حقيقة من الحقائق التي كانت عصيرة الفهم غامضة الإدراك فيها مضى ، نقول كلما أدرك حقيقة من هذا النوع من الحقائق فإنها تخرج من حظيرة الدين ولا تصبح سراً من أسراره ، ولا معجزة من معجزاته وتقع في محيط المدركات العقلية ، وهذا دواليك يضيق أفق العالم الإلهية كلما اتسعت ميادين الإدراكات العقلية . أما بقية علماء الغرب فهم بمحضوف فيها نعتقد على أنها وضعية أي من وضع الإنسان ، ومن وحي البيئة ، ومستلزمات الظروف . ونظرة الغربيين في هذا نظرة واقعية كنظرتهم إلى أغلب المسائل العلية والظواهر الاجتماعية . ولذا فقد غلت عليهم النظرة المادية .

وتحكم فيهم وساد بينهم المذهب المادي . وقد قال بذلك شيشرون (١)

---

(١) شيشرون : هو أكابر خطيب روماني بلا منازع ، ولد في مدينة أربينوم فاسمه الآن أربينو . وذلك في سنة ١٠٦ قبل الميلاد . برع منذ شبابه في صناعة القول فاستطاع أن يلفت إليه الانتباه ، ونقلب في مناصب الدولة حتى وصل إلى أخطرها ، وهو منصب الفنصل . وقد لعب أدواراً هامة في سياسة روما ، فقد عرف بميله إلى نظام الحكم الجمهوري وبإذا فإنه أفقد الجمهورية من مؤامرة ديكاتورية خاطئه قام بها كاتيلينا ، وذلك بعد أن كشف شيشرون أمرها واستطاع أن يقدم للحكومة أنصار ذلك الديكتاتور فيحكم باعداته . وبعد ذلك استحق شيشرون من الشعب الروماني لقب ( أبو الوطن ) .

وقد ناصر شيشرون قيصر ما دام يحكم على النظام الجمهوري ، وأظهر شيئاً من التراخي حينها ظهر قيصر بمعظم الديكتاتور . وبعد قيصر عمل على معاونة أوكتافيوس ، ولكن الخصومة بينه وبين أنطونيوس قد أورده مواد الملاك : فبعد ما تحرجت الأمور السياسية في روما ، وبالرغم من اعتزاله السياسة فقد هرب شيشرون من روما ليختفي في القرى . ولكن أنطونيوس وهو الخائن منه ومن لسانه بعث إليه من أدرکوه في الطريق وقتلوه غيلة في سنة ٤٣ ق.م .

كان شيشرون إذن خطيباً بارعاً ، ومحامياً ماهراً ، وسياسياً عنكاماً فوق ذلك فقد كان عملاً كبيراً ومؤلفاً عظيماً : ترجم بعض الكتب عن اليونانية ، وألف في الخطابة ، وفي اللغة ، وفي الدين ، وفي الفلسفة . وما هي مؤلفاته لا تزال معتبرة من أهم المراجع في هذه الميادين العلية . وينبني أن تقر هنا أن الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه

د. تاريخ آداب اللغة العربية ، ص ٤٦ ج ١ هو الذي يروى عنه هذا الرأي في نظرية اللغة ولكن كآدابه لا يذكر نصا ولا مرجعًا وبالرغم من اطلاعنا الكبير على ما كتبه شيشرون فإننا لم نجد نصًا صريحةً ومع ذلك فان اتجاهه في جموع الآراء ، ووجهه في التأليف ، ومنزنه في فهم اللغة يؤيد ما نسبه إليه الرافعى .

(١) ديدور الصقل : هو مؤرخ يوناني كبير عاش في عصر الامبراطور

### أغسطلس

ربما كان أكثر دقة من هيرودوت ، وهو لا يقل عنه شهرة . والذي عرف عنه هو كتابه التاريخي العظيم الذي يعتبر سجلًا لتاريخ العالم القديم حتى سنة ٦٠ ق.م .

وينقسم كتابه في التاريخ إلى ثلاثة أقسام مرتبة على حسب الأحداث التاريخية : القسم الأول يتناول تاريخ الشعوب المعروفة قبل حرب طروادة التي تنتهي بها هرميروس في إلياذته ؛ وهذا القسم يشتمل على ستة كتب عشر منها على خمسة فقط ؛ ثلاثة من هذه الكتب الستة تختص تاريخ اليونان في خلال تلك العصور السابقة على حرب طرواده ، وثلاثة أخرى تتناول سائر الشعوب . القسم الثاني يتناول تاريخ الشعوب منذ حرب طرواده حتى وفاة الإسكندر الأكبر ؛ وهذا القسم يحتوى على أحد عشر كتاباً لم يهتم الباحثون إلا على سبعة كتب منها . أما القسم الثالث فهو يتناول أحداث العالم التاريخية منذ وفاة الإسكندر حتى غزو قيصر لبلاد الغال ؛ وهذا القسم يشتمل على ثلاثة وعشرين كتاباً لم يوجد منها سوى ثلاثة كتب فقط .

ومنذ ذلك الحين لم نسمع ولم نقرأ فيها قرأناه ، رأياً يخالف رأى هذين العالمين فكتّبنا بذلك قد قضيا على فكرة التوقف بالنسبة لما كان مهروقاً عن اللغة . ومهداً السبيل للبحث العائلي المبني على ملاحظات نفسية وتجريبية ، فتنهى وجدنا من بعد ذلك عناء نعمدو الأبحاث اللغووية وأفاضوا في الكلام عنها ، ولستكينهم لم يشيروا ، ولم يفهموا منهم ، ولو من طريق بخني ، أنهم من ذئنة نظرية التوقف أو من القائلين بما : نذكر من هؤلاء العلماء فارون <sup>(١)</sup> العالم اللاتيني الغزير المادة والواسع

---

وذكر هنا أيضًا ما ذكرناه منذ قليل من أننا لم نقف بأنفسنا على نص صريح لديونور في توقف اللغة ولكن الذي ينسب إليه هذا الرأى إنما هو الاستاذ الرافعي في نفس الكتاب المتقدم ؛ ومع هذا فإن روحه في التأليف وتفكيره في مواجهة المسائل تجعلنا نطمئن إلى ما تسببه :

<sup>(١)</sup> كان فارون دائرة معارف عصره ، عرف بالدأب والمثابرة ، وأشهر بالبحث الواسع والاطلاع الغزير إلى درجة لا يتصور وقد مات بعد اغتيال شيشرون بستة عشر عاماً كانت الجمهورية الرومانية في طورها إلى الانقلاب والحكم الامبراطوري في سبيل التأسيس . ولقد استغل هذا العالم اللاتيني معارفه الواسعة وأطلاعه الكبير خلف وراءه ثروة طائلة من المؤلفات ، وصلت إلى أربعة وسبعين مؤلفاً ؛ ولسوء الحظ لم يوجد من هذه الرثوة العلمية حتى الآن سوى مُؤلفين ؛ أحدهما عن اللغة اللاتينية . . . . . بخطي هذا المؤلف قد وصل مبتوراً ؛ إذ لم يكتشف منه غير ستة كتب ، وهي بين

الاطلاع . توفي هذا العالم في سنة ٢٧ قبل الميلاد ، وكان مما تركه كتاب عن اللغة اللاتينية ، قد كتب إهداؤه إلى شيشرون ؛ وفيها كتبه عن اللغة في هذا الكتاب يفهم منه أن اللغة كائن اجتماعي يتطور بتطور المجتمع ، ولا دليل لاي قوة خفية في تنشئته أو تعميمه

ونذكر كذلك من هؤلاء العلماء - كانطليان - <sup>(١)</sup> *Quintilianus* الذي عاش قطعاً إلى ما بعد سنة ٩٦ بعد الميلاد وامتاز دون معاصريه

---

الكتاب الخامس إلى الكتاب العاشر بينما المؤلف كاه سكان يحتوى على خمسة وعشرين كتاباً ؛ والآخر عن الزراعة ، . والذى يعنينا بالذات هنا هو مؤلفه الأول ، وعلى الأخص البحث الذى كتبه عن أصل الكلمات في اللغة اللاتينية ؛ ففي هذا البحث تناول فارون ما تناول من مفردات اللغة بطريقة طبيعية معقولة لا دخل لمسألة التوقيف فيها .

(١) كانطليان *Quintilianus* : هو من الإسبانيين الذين امتهنوا بالدولة الرومانية عقلاً وروحاً ولغة وتفكيرأ . ولد في مدينة إسبانية اسمها  *كالاجوريس Catagurris* فيما بين سنة ٣٠ و ٣٥ بعد الميلاد ؛ ثم جاء إلى روما شأن كثير من الإسبانيين الذين يدرسون في روما ؛ وكانت أهم الدراسة إذ ذاك هي دراسة اللغة والفلسفة ، بدأ مبكراً في ميدان المحاماه ولكنه لم يستمر فيها طويلاً فاعتزلها وأنشأ مدرسة لغوية غايتها الكبرى تخرج الخطيب الكامل ، وقد اتخذ مثله الأعلى شيشرون ، ولهذا فقد بذل عناته في تدريس اللغة بما فيها من أساليب وبيان ، وهو في تدريسه ، وفي تأليفه يتحدث عن اللغة كظاهرة اجتماعية تخضع لظروف المجتمع إلى حد بعيد ، ولم يتوّر عنه مطلقاً أن اللغة مصدرها وهي أو توقيف :

بدراساته اللغوية وأبحاثه في أساليبها ، وتحليله لظاهر رقيها وقوتها وملاظمرها ضعفها وانحطاطها : وهو في خلال ذلك كله يفهم اللغة ويصورها كما صورها من قبله شيشرون وقارون .

وهكذا تغيرت نظرة علماء الغرب إلى اللغة واستمروا يفهمونها كظاهرة اجتماعية تنشأ مع المجتمع وتشاركه في حياته رقياً وضعفاً : راستمرت هذه النظرة سائدة خلال العصور الوسطى بالرغم مما اكتتبته اللغة اللاتينية القديمة على يد الكنيسة المسيحية ورجاها من معنى التداص وظاهر الإجلال . وإذا ما وصلنا إلى العصور الحديثة فأننا نجد الفروي تنضاف في الغرب وملكات العلامة تسأزره على تحليل اللغة كظاهرة اجتماعية دراستها عند الأطفال ، وفي البيئات البدائية ، ثم تعليل نشأتها وتطورها وما يلابس ذلك كله من ظواهر ونتائج . وسنرجي الكلام قليلاً عن هذه النظرة الحديثة لكن نلم أولاً بوجهة نظر العلامة الشرقيين بالنسبة لنشأة اللغة .

أما في الشرق فإننا نجد أنفسنا أمام فريدين من العلماء : فريق يوافق الغرب في رجاه نظره ومنهم أبو علي الفارسي (١) ،

---

(١) هكذا يذكر الرافعي في كتابه (تاريخ أداب اللغة العربية) ج. ١ صفحة ٤٦ . ولكن ابن سيده في كتابه المخصص ج ١ صفحة ٤ يذكر أن أبا علي الحسن ابن أحمد بن عبد الففار بن سليمان الفارسي النحوي يرثاها : من عند الله؛ وكان يحتاج بذلك بقوله تعالى «علم آدم الآباء كلها» .

وتلبيذه ابن جنى<sup>(١)</sup> وبعنه المعزلة . والفرق الآخر يرى أن اللغة توقيفية من خلق الله ، ولا إرادة للإنسان فيها ، ويستدل هؤلاء على رأيهم بما فهموه من بعض النصوص الدينية . ولعل أصرحها في ذلك قول الله تعالى في سورة البقرة : د وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبذوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك ، لا علم لنا إلا ما علمنا ، إنك أنت العالم الحكيم .

---

= والفارسي هذا هو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن سليمان الفارسي النجوي ؛ يذكر ابن النديم في كتابة - الفهرست صفحه ٩٥ طبعة سنة ١٢٤٨هـ بالطبعه الرحمانية بمصر ، أن أبيا على الفارس قد توفي قبل السبعين وثلاثة ، وأن له من المكتب - كتاب الحجة ، كتاب التذكرة ، كتاب أبيات الاعراب ، كتاب شرح أبيات الإيضاح ، كتاب شتصر عوامل الاعراب ، المسائل المصلحة يرويها عن الزجاج وتعرف بالإغفال . ويروى أنه توفي سنة ٢٧٧ . وقد اعتمد هذه الرواية الاستاذ مصطفى الرافعى ج ١

صفحة ٤٤٦

<sup>(١)</sup> هو أبو الفتح عثمان بن جنى ؛ كان مولده بالموصل قبل عام ٣٠٠هـ وهو من أصل روبي ، إذ أن والده كان عملاً رومياً لسلیمان بن قہذ بن أحمد الأزدي . كان من أشهر تلاميذ أبي على الفارس ومن أكثرهم مصاحبة له . إذ أنه بقى في صحابته أربعين عاماً ؛ ويروى ياقوت أنه ولد منصب كاتب الإنشاء في عضد الدولة وفي بلاط خلفه ؛ وفي أثناء قيامه بهذا العيشه كان يتنقل ما بين حلب وفارس ، مما سهل عليه التعرف بالبلقني . ومصادفته ؛ ولهذا فقد كان يناظره في النحو ويناقشه في الأدب ؛ ولذلك من نتيجة ذلك أيضاً أنه بكتب شرعاً لديوان المتنبي . وقد عبر ابن جنى

قال يا آدم أنتهم بأسمائهم ، فلما أبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إن  
أعلم غيب السورات والأرعن وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتبون ، <sup>(١)</sup>

طويلاً حتى أشرف على المائة وربما يكون قد تجاوزها ، إذ أن رفاته  
كانت في سنة ٢٩٢ هـ . واشتهر ابن بيبي بمعرفته بالنجو وبكل ما يتعلّق  
بالتصريف حتى أصبح في ذلك بحجة وثقة . ولم يُعرف لابن بيبي تختين  
لإحدى المدرستين النجويتين ، مدرسة البحرة ومدرسة الكوفة . شأن غيره  
من العلماء المعاصرين ، بل على العكس من ذلك كان واضعه الشبهية  
العلمية فكان يتخير لنفسه مذهباً وسطأً بين المدرستين . وأهم مؤلفاته كتابان :  
أحدهما ( سر الصناعة وأسرار البلاغة ) والآخر ( كتاب الخصائص ) في  
علم أصول العربية . والأخير منها يعذينا بالذات : إذ انه يلقى صورةً على  
رأي صاحبه في نظرية التوقيف في المائة . وهو وإن لم يجد رأيه بصراحة  
في أن اللغة وضعية إلا أن المطلع على ما ذكره في أول الكتاب لا يتردد  
في فهم موقفه من هذه النظرية فهو يميل بوضوح إلى القول بوضعها .  
<sup>(١)</sup> إن كتب التفسير لهذه الآية تلقى صورةً على نظرية اللغة التي نحن  
بصددها فهي تذكر المذهبين وتتفاوض آراء كل فريق ، ولعل أهم هذه الكتب  
هو تفسير الفخر الرازي . وهذا هو ما يزيد كره صاحبه لهذا التفسير جداً  
ص ٣٥٧ وما يليها

(( المسألة الأولى )) : قال الأشعري والجبياني . والسيكي . اللغات كلثمة  
توصيفية بمعنى أن الله تعالى خلق عليها ضروريًا بتلك الألفاظ . وي تلك المعانى  
وبيان تلك الألفاظ موضوعة لتلك المعانى واحتاجوا عليه يقوله تعالى ( ويعلم  
آدم الأسماء كلها ) والكلام على التسلك بهذه الآية سؤالاً وجواباً ذكرناه في  
أصول الفقه وقال أبو هاشم إنه لابد من ثقدم لغة أصطلاحية واحتاج على =

— أنه لابد وأن يكون الوضع مبرقا بالاصطلاح بأمور (أحدها) أنه لو حصل العلم الضروري بأنه تعالى وضع هذه المفetaة لهذا المعنى لكان ذلك العلم إما أن يحصل للعاقل أو لغير العاقل؛ بلا جائز أن يحصل للعاقل. لانه لو حصل العلم الضروري بأنه تعالى وضع ذلك الفظ لذلك المعنى لصار صفة الله تعالى معلومة بالضرورة مع أن ذاته معلومة بالاستدلال بذلك الحال؛ ولا جائز أن يحصل لنير العاقل لانه يبعد في العقول أن يحصل العلم بهذه اللغات مع ما فيه من الحكم العجيبة لنير العاقل.. فثبت أن الفرل بالترقيق فاسد.

(وثانيها) أنه تعالى خاطب الملائكة؛ وذلك يرجى تقدم لغة على ذلك التكلم.

(وثالثها) أن قوله « وعلم آدم الأسماء كلها » يقتضي إضافة التعليم، إلى الأسماء؛ وذلك يقتضي في تلك الأسماء أنها كانت أسماء قبل ذلك التعليم وإذا كان كذلك كانت اللغات حاصلة قبل ذلك التعليم.

(ورابعها) أن آدم عليه السلام لا تحدى الملائكة بعلم الأسماء، فلا بد وأن تعلم الملائكة كونه صادقا في تعين تلك الأسماء لتلك المسمايات، والا لم يحصل العلم بصدقه. وذلك يقتضي أن يكون وضع تلك الأسماء لتلك المسمايات متقدما على ذلك التعليم.

والجواب عن الأول: لم لا يجوز أن يقال يخلق العلم الضروري بأن وانفعاً وضع هذه الأسماء بهذه المسمايات من غير تعين أن ذلك الواقع هو الله تعالى أو الناس. وعلى هذا لا يلزم أن تصير الصفة معلومة

— بالضرورة حال كون الذات معلومة بالدليل ، سلنا أنه تعالى مأخوذ بهذا العلم في العاقل ، فلم لا يجوز أن يقال إنه تعالى خلقه في غير العاقل ، والتعویل على الاستبعاد في هذا المقام مستبعد .

وعن الثاني : لم لا يجز أثر يقال خاطب الملائكة بطريق آخر بالكتابة وغيرها .

وعن الثالث : لا شك أن إرادة الله تعالى وضع تلك الألفاظ لتلك المعانى سابقة على التعليم ، فسكتنى ذلك في إضافة التعليم إلى الأسماء .

وعن الرابع : ما يتأتى بيانه إن شاء الله تعالى - وإن الله تعالى أعلم .

ثم يمضي صاحب هذا النفي في مناقشة بقية الآراء حتى يقول :

( القول الثاني ) وهو المشهور ، أن المراد أسماء كل مخلوق الله من أحجاس المحدثات من جميع اللغات المختلفة التي يتكلم بها ولد آدم اليوم من العربية والفارسية والرومية وغيرها . وكان ولد آدم عليه السلام يتكلمون بهذه اللغات ، فإذا مات آدم وتنفرق ولده في نواحي العالم تكلم كل واحد منهم بلغة معينة من تلك اللغات ، فقلب عليه ذلك اللسان .. فإذا طالت المدة ، وماتت منهم قرن بعد فرن نسوا سائر اللغات . فهذا هو السبب في تغير الألسنة في ولد آدم عليه السلام . قال أهل المعانى قوله « وعلم آدم الأسماء » ، لا بد فيه من إضمار فيحتمل أن يكون المراد وعلم آدم أسماء المسميات ، ويحتمل أن يكون المراد وعلم آدم مسميات الأسماء . قالوا ليكين الأول أوفي قوله « أَنْبَثْنَا بِأَسْمَاءٍ بِعَوْلَاءٍ » وقوله « فَيُنَادِيهِمْ بِأَسْمَاهُمْ » ولم يقل أَنْبَثْنَا بِهُوَلَاءٍ ، وأَنْبَاهُمْ بهم . فأن قيل فلما عليه الله تعالى أنواع جمـ

السميات ، وكان في المسميات مالا يكُون عادة فلم قال عرضهم ؟ ولم يقل عرضها ؟ قلنا لأنّه لما كان في جلوس الملانكة والإنس والجن وهم العقلا . فذاب الأكمل ، لأنّه بجرت عادة العرب بتذليل الكامل على الناقص كلما غلبوا )) .

لقد حاولنا في نقل هذا النص التوصل بما فيه من فلسفة كلامية ، وجدل على أن نقدم للقارئ صورة عن مبلغ ما لدى علماء الإسلام من خلاف في مسألة وضع الله ، وتوفيقها ؛ ثم لنرى كيف تشعبت أفكارهم حول مسألة اللغة ، وكيف استمرت فكرة التوفيق معروفة عندهم وما أنصارها ومشاعرها حتى أواخر العصور الوسطى ، بل إننا نجد من يميل إلى أنها ويفيدوها ولو من طريق غير مباشر في الصدور الحديثة ؛ من ذلك الأستاذ مصطفى صادق الراوسي في كتابه ، تاريخ آداب اللغة العربية ، فإنه يعزو في كثير من مواقفه جمال اللغة العربية ، وحسن تركيبها ، وبلاهة تعبيرها ؛ وهو أسلوبها إلى صفات مستمدّة من قوة فرق مستوى البشر ؛ إذ أنه لا يتردّ بوجود لغة إنسانية أخرى تسمى إلى مكانة اللغة العربية في هذه المزايا ؛ فهي في نظره معبّرة اللغات لينزل بأسلوبها القرآن معجز البشر ؛ ولديست بهذه الفكرة عند الأستاذ الراوسي إلا من تراث القدماء ، ومن كثرة ما ذكره في كتابه المزهو ؛ فإنه شخص بوشيه بصنع المفرين ما ذكره السيوطى في كتابه المزهو ؛

آراء القائلين بتوفيق اللغة ؛ وكذلك آراء القائلين بوضعها ؛ ثم نقاش إلى بعد هذه الآراء ، ولكته — شأنه في أغلب المسائل العلية — ثم يتخذ لنفسه موقفاً معيناً .

— وجدير بالذكر هنا ، وقد أتينا على كثير من علماء العربية في نظرية توقف اللغة : أن نشير بكلمة إلى رأى عالم واسع الإطلاع : وحجة بحق ، ذلك هو ابن النديم مصاحب الفهرست الذي يعتبر أجمل دائرة معارف عربية قدية قد وصلت إلينا .

لا يتعرض ابن النديم صراحة إلى نظرية التوقف والربيع في اللغة : ولذلك يتناول بالبحث أصل اللغة العربية : فيروي آراء من سبعة من العلماء في هذه المسألة ويتشدد لذلك بما سمعه أو رأه من آثار : ثم في أثناء هذا البحث يذكر كلاما يطمئن هو نفسه إليه ويقتنهم القارئ . منه أنه يرى أن اللغة وضعية ، وأنها ظاهرة اجتماعية تحيا بحياة المجتمع وتتطور بتطوره وتشكل بشكل البيئة التي هي فيها : وهو رأى جدير بالنظر حقاً إذا عرف الزمن الذي قيل فيه : إذ أنه يتفق إلى حد كبير مع أحدث الآراء التي تقال في اللغة وفي أصولها وفي تطورها . وكل ما يمكن أن يلاحظ على ابن النديم فيما ذكره هو ما قاله من أن اللغة العربية قد استمرت في نورها ورقها حتى نزل القرآن فوقفت عند هذا الحد ولم تتسع : وهذا هو نص ابن النديم نفسه : أيام أعين القراء ليروا بأنفسهم إلى أي حد يتمشى مع المحدثين . من علية الآراء :

يقول ابن النديم في كتابه الفهرست ص ٨ بعد ذكر كثير من الآراء في أصل الكتابة العربية : «... ولم يزل ولد استغيل على مر الزمان يشقون الكلام بعضه من بعض ... ويسعون للأشياء أسماء كثيرة بحسب حدوث الأشياء الموجودات ... وظموزها فلما اتبع الكلام ظهر الشعر الجيد الفريح في العدنانية ... وكثير بذلك بعد معد بن عدنان ، ولكل قبيلة من قبائل

وأشهر من قال بذلك ابن فارس <sup>(١)</sup>

---

= العرب لغة تتفرد بها وتؤخذ عنها وقد اشتركتوا في الأصل . قال : وإن  
الزيادة في اللغة امتنع العرب منها بعد بعث النبي ﷺ لأجل القرآن ،

وهذه الملاحظة التي أشرنا إليها منذ قليل ، بالنسبة لرأي ابن السديم  
في توقف اللغة عن الزيادة بعد بعث النبي ﷺ ، تدل على أن صاحب  
الفهرست قد نظر إلى اللغة العربية نظرة ضيقة ؛ إذ أن اللغة لم تتوقف  
في جوهرها إلا من ناحية أنها عملت على جمع القبائل العربية على تلك  
اللسانية التي نزل بها القرآن ؛ أما فيما عدا هذا فما زلت لا نستطيع أن نسايره  
فيما يقول ؛ وكأننا يعرف مبلغ ما أصابته اللغة العربية بعد الفتوح  
الإسلامية من توسيع وزيادة في مفرداتها ، وفي تراكيمها ، وفي أفكارها ،  
وفي أخيلتها ، وفي صورها ، وفي أساليبها ؛ بل إن نموها ، بعد أن  
اتسعت رقعة البلاد الناطقة بها ، في كل هذه النواحي كان أعمق أثراً ،  
وأبعد مدري من نموها قبل أن يبعث الرسول ﷺ

(١) هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب ؛  
اشتهر في اللغة وفي النحو ؛ وهو أحد تلاميذ مدرسة السكونية النحوية ؛  
توفي سنة ٣٩٥ هـ . وكان كثير الدأب لا يمل البحث ولا الدرس ؛ يدل  
على ذلك كثرة تنقله بين المدن الكبيرة لهذا الغرض ؛ فقد أقام في قزوين ،  
وفي مكة ، وفي بغداد ، وفي همدان ، وفي الري ؛ وقد ملأت شهرته  
اللغوية والخلقية آفاق الدولة الإسلامية فاستدعاه خير الدولة بن بويه إلى =

والأشعرى <sup>(١)</sup> ومن تبعه من علماء العرب ؛ ثم نحمد صدقي ذلك  
أيضاً عبد ابن سيده صاحب المخصوص <sup>(٢)</sup>

---

الرأى ووكل إليه تأديب ولده بجد الدولة أبا طالب .

كان شافعى المذهب ولكن تحول عنه إلى المالكية أخيراً وكان شديد  
التعصب للعرب ضد الفرس ؛ وقد بلغ من سمو خلقه ، وكرم طبعه ،  
وسماحة نفسه أن وهب ما عليه من اللباس إلى القراء أكثر من  
مرة ؛ ومن أشهر تلاميذه بديع الزمان ، والصاحب بن عباد .

ولابن فارس مؤلفات عديدة أهمها بالنسبة لموضوع بحثنا هذا هو  
كتابه — الصاحبى فى فقه اللغة و السنن العرب فى كلامها — وقد طبع  
فى القاهرة سنة ١٩١٠ م .

<sup>(١)</sup> ينقل هذا الرأى عن الأشعرى الاستاذ مصطفى صادق الراوى فى  
كتابه — تاريخ آداب العرب — ج ١٠ ص ٤٥ - ٤٦ .

<sup>(٢)</sup> يعرض أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوى اللغوى الاندلسى  
المعروف بابن سيده والمتوفى سنة ٤٥٩ هـ نظرية نشأة اللغة وما جاء فيها  
من خلاف بين أصحاب مذهب التوقيف ، ومذهب الوضع ، ثم يناقش  
أدلة كل فريق مناقشة هادئة منطقية ؛ وأخيراً يهدى رأيه صريحاً فى أنه  
يؤيد القائلين بالتوقيف :

يقول ابن سيده في ص ٣ وما بعدها من الجزء الأول من كتابه <sup>٢٣</sup>

.. ونخن لو أصغورنا موقف هذا الفريق من العلماء؛ وأبعنا النظر في رأيهم؛ ثم تركنا جانبًا ظواهر الأشياء؛ ونفذنا إلى بوطنها، وحملناها تحليلاً فاسقينًا عميقةً، لوجدنا أنهم لم يدينوا بهذا الرأي ويعتقدوا ذلك المذهب القائل بتوقيف اللغة، بناء على هذه النصوص الدينية فقط ولكن لأن في نفوسهم ميلاً وزروعاً إلى فكرة التوقف بأوسع مظاهرها. فشلت فيهم تبعاً لذلك فكرة الإسلام، ونما عندهم مذهب التواكل. وقد استطاعوا بذلك، أو توهموا أنهم استطاعوا أن يتخلصوا من بعض المسائل العقلية الصعبة، وأن يحلوا كثيراً من المشاكل الاجتماعية الخطيرة.

المخصص الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية بيولاق سنة ١٣١٦ هـ:

وقد اختلفوا في اللغة أمتواطأ عليها أم ملهم إليها وهذا موضع يحتاج إلى فضل تأمل غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحي ولا توقف، إلا أن أبا علي الحسن بن أحد ابن عبد الغفار بن سليمان الفارسي النحوي قال هي من عند الله واجتى به قوله سبحانه وتعالى: آدم الاسم كلامه، وهذا ليس باحتجاج قاطع بذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله أقدر آدم... .

ثم ينفي المؤلف في مناقشة هذا الرأي حتى يقول في ص ٦: .. وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله تبارك وتعالى فقوى في أنسنا اعتقاد كونها توقيقاً من الله تعالى وأنها وحي... .

ونتيجة كل هذا أن وجد في الشرق المذهب الروحي؛ ونما عند الشرقيين  
كل ماله مباس بالمعانى الروحية.

والدارس لتاريخ الشرق، والمتبع لأنظمة المجتمع في الشعوب السامية على الخصوص يستطيع أن يلحظ فيهم هذه النزعة الروحية، وذلك أبيل إلى الاتجاه إلى القوى الخفية، إلى السماء، إلى الآلهة، في كل ما يعز عليهم إدراكه أو ما يختار العقل في فهمه. فكثير من أخلاقهم، وعاداتهم، بل وقوانينهم كان متاثراً إلى حد بعيد بهذه القرى المديدة، المتأفة، وبتلك العالم الخفية المجهولة؛ وليس نظام التحكيم الآلهي بصورة العديدة إلا أثراً من آثار ذلك النزع الروحي، والاستسلام العقلي إلى ما تكشفه السماء، ويصدر عن الآلهة<sup>(١)</sup>. وقد اتّصل هذا النظام من الدولة البابلية إلى الدولة الآشورية وامتدت آثاره إلى سكان شبه الجزيرة العربية؛ ولا زال الآن نرى صوراً مختلفة منه في قبائل البدو الضاربين في الصحراء الشرقية من أرض مصر. وتبع ذلك أيضاً ما كان معروفاً عند شعوب الشرق منذ القدم من إلهاء زمام كثيير من

---

(١) لقد فصلنا الكلام عن نظرية التحكيم الآلهي في كتابنا - العراق وما توالى عليه من حضارات - الطبعة الأولى ص ١٧ . وانظر أيضاً : قصة الحضارة - تأليف ول دبورانت - وترجمة الاستاذ محمد بدراوي - الجزء الثاني - الشرق الأدنى - ص ٢٠٧ وما بعدها .

الأُمور في نظام المجتمع إلى المعابد ورجال الدين ؛ فكان منهم الأطهاء ،  
وكان منهم القضاة ، وكان منهم المُشرعون ، وكان منهم العلماء ، وكان  
منهم المنجمون ؛ ولم يسكن برد لهم في أغلب الأحيان رأي ، بل لقد  
وصل من مكانتهم في المجتمع أن كانوا يملون إرادتهم على رجال السلطة  
الدينية ؛ فكانوا هم الذين يولون المالك . كانت هذه الظواهر الاجتماعية  
من أهم ما لفت نظر الإغريق عند ما جاؤوا يدرسون العلم والحكمة في  
الشرق ، ثم يدرسون تاريخه ، وأخلاقه ، وعاداته .

وكاما تغافل الإغريق في معرفتهم بالشرق ، وزاد اختلاطهم بالشرقيين ،  
كانت تزداد دهشتهم من سمو السلطان الروحي واستثنائه بنفوذ أوسع ،  
وبساطة أكبر إذا ما قورن بالسلطان المادي .

ولعل أقرب صيغة في مصطلحات الشعوب الحديثة لتصوير ذلك عند  
المجتمعات القديمة في الشرق هي: الدين مصدر السلطات: كما يقال الآن الآمة  
مصدر السلطات ؛ بل إن ذلك الاصطلاح كان يحمل معنى أوسع وأدق  
ما يحمله هذا الاصطلاح الحديث .

ولم تقطع دهشة الإغريق ؛ بل انتقلت إلى الرومان فأخذوا يدرسون  
الشرق على ضوء المعارف الأغريقية ؛ ثم اتصلوا مباشرة بالشرقيين  
وبعدوا يفهمون ويحللون هذه الظواهر الروحية فكتبوا عن ذلك معجبين

ـ ورث الغرب الحديث عن أسلافه من اليونانيين والرومانيين هذه الموارف : ولاحظ بنفسه وجود أثر الميئي الروحي عند الشرقيين : فببدأ علماؤه وباحثوه يفهمون نفسية الشرق ونزعاته بالنسبة للأنظمة الاجتماعية ، وأصحابهم اتجهوا في تعليمهم لكل ما يقفون عليه وجهة تختلف وجهة علماء اليونان وعلماء الروم .

وقد علل علماء الغرب هذه الظاهرة الاجتماعية في العالم الشرقي بأن الشرق أرض الأديان ، ومهد الوحي ومبعد الرسل والأنبياء .

وإن يثبت هذا ثأنا خليق بها أن تكون مصبوغة بالصبغة الدينية ومتأثرة بالنزاعات الدينية ؛ وقائمة على الأسس الدينية ؛ والذي عبّد في كل الأديان ، وثنىها وسماها ، هو الاهتمام العظيم بتربيّة الروح ، وغرس بذور الخضوع في صورة الاحترام والتقدис لكل ما هو خلق

---

(١) لقد تناول الكلام عن الديانة والآلهة وأثر ذلك في الأنظمة الاجتماعية في الشرق وبصفة خاصة في مصر كثير من الكتاب اللاتينيين مثل تاسيتونس ، وفيرجيليوس ، وجوفينال : ولعل أهم من أفاد في ذلك هو شيشرون في مؤلفه — عن طبيعة الآلهة — الكتاب الأول — الفصل السادس عشر والرابع والعشرين ، والسادس والثلاثين .

وبعيد عن العقل البشري لدرأك .

: ومن شأن الاحترام والتقدير: في هذه الصورة أن يقينا العقل إلى حد ما؛ وينخلقا حوله جوًّا ليس من السهل نجاوز حدوده؛ ولا اختراق آفاقه. بعثنا يكُون وراءه من إبرار، بطلبًا لفهم ما يمكن أن يوجد من تجهلات . وقد تناول شيشرون قديمًا هذا المعنى في كثير من مواقفه؛ ولعل أهم من بحث هذا الموضع وأوضاع فيه من المحدثين هو الأستاذ أمدي ديكسل *Amédée Duguesquel* في كتابه *تاريخ الآداب Histoire des Lettres* ، المطبوع في سنة

١٨٤٥ .

وأظنتنا الآن لأنجده معنى لقول بأن اللغة توقيفية ، فما نشاهده بأنفسنا في اللغات المختلفة ، وما زرناه من تكيف كل لغة بتكيف الشعب الذي ينطق بها والبيئة التي تنمو فيها لا يترك مجالا للشك في أن اللغة ظاهرة اجتماعية يخاقها المجتمع الإنساني ، ويتجه بها حينما توحي إليه ظروف البيئة التي يعيش فيها : ومن هنا كانت اللغة يغلب عليها الاتجاه الروحي ، وتسود فيها المعانى الروحية ، وتنشر فيها الألفاظ التي تعبر عن تلك المعانى ، إذا كانت في بيئه دينية روحانية . ويفلب عليها الاتجاه المادى ، وتنشر فيها أنواع الآلات والصناعات والمكتشفات . إذا كانت في بيئه مادية صناعية ... وهكذا إذا تبعنا اللغات المختلفة في البيئات المختلفة .

· والآن بعد أن استعرضنا آراء القدماء شرقاً وغرباً بالنسبة للشاة. اللغة.  
وما قيل فيها عن توقف وضع نحب أن نلم سريعاً برأي المحدثين لكن تم  
الديننا صورة وأشياء عن طبيعة اللغة وكيف كانت تفهم قدماً؛ وكيف يمكن  
أن تفهم الآن .

لقد خلت الدراسة اللغوية في الحصور الحديثة خيارات سريعة، وتناولها  
كثير من العلماء باعتبار أنها أهم مظاهر من مظاهر رق المجتمع وأعثمت بجهل  
لتاريخ المجتمعات؛ ولم يقتصر أمر هذا البحث على علم النفس والاجتماع،  
ولا على رجال اللغة والأدب، وإن كانته تعدى كل هذه التخصصات، وشغل  
جزءاً هاماً من علم التشريح فسخر الأطباء جانباً من بجهودهم لتحليل هذه  
الظاهرة الاجتماعية وإزالة ما علق بها من غموض. ونخن نؤثر بالذكر رأى  
هذه الطبقة في نشأة اللغة لا لهم من نظر ثاقبة، وتجربة دقيقة، وخبرة  
تامة بالنفس الإنسانية وبوظيفة أعضائها: -

يرى عليه الترجح: أن أول ظاهرة من ظواهر اللغة الإنسانية إنما هي صرائح الطفل. بعد ولادته؛ إذ أن هذا الصراخ ليس في الواقع سوى نتيجة لإحساسه بشيء ي يؤله؛ وليس من سهل تحديد هذا الإحساس ولا نوع الأليم الذي صدر عنه ذلك الإحساس؛ وكل ما يمكن أن يقال ببيانه إنما هو إحسان عام؛ وإن الذي يحدث في مثل هذه الحالة هو أن تسرع الأيم لأنهن يشرفت على شأن الطفل يبذل شيء لاسكانه ومراعاته. إنما باهتمامه

تهدىها ، أو بأنشودة ننطها . أو بشىء تقدمه لارضاعه ، أو بشىء لذيد تعطيه  
 لإطعامه ، أو بضميمة رحيمة إلى مصدرها . أو بهزة لطيفة بين يديها ؛  
 وقد يكون الطفل راغباً عن كل ذلك ، وقد يكون صراخه ناتجاً عن  
 إحساسه بالألم ، ولكنه سرعان مايزول عنه مصدر ذلك الإحساس ،  
 ويدرك بحسه لا بعقله أن ذلك الصراخ قد منحه شيئاً حلواً وأعقبته  
 مراعاة لذيذه ؛ ومن ذاك يبدأ الطفل في استعمال الصراخ لا ليعبر به عن  
 ألم يحسه ، ولكن ليشرح به حاجة يطالعها . ورغبة يتمتع بها ؛ ومن هنا  
 يكون الصراخ أول مرحلة من مراحل اللغة، وأسبق تعبير من تعبيراتها .  
 والمراحل التالية من مراحل اللغة هي الإشارة ؛ حيث يبدأ الطفل في  
 التوفيق بين إشاراته وبين الاصطلاحات المخارجية التي تحيط به ، ثم يأتي  
 بعد ذلك مباشرة دور التوفيق بين هذه الاصطلاحات المخارجية وبين  
 إشاراته هو بالنظر أو بالرأس أو باليد ؛ وما أثبته التجارب أن  
 إدراك الطفل لما تطاوى عليه الإشارة باليد أو بالنظر أو الإشارة  
 المتعلقة بالذوق العام أمرع من إدراكه لما تتطوى عليه الإشارة المتعلقة  
 بالسمع . والطفل ، بالرغم من تأخره في إدراك المسموعات ، يأخذ  
 بسراويله في حاكاة تلك المسموعات فيخرج أصواتاً لا يفهمها الآخرون  
 ولا تؤدي في نظرهم أي معنى ، ولكنها تعبير عن إدراكات لديه ،  
 ورغبات عنده . وفي أثناء ذلك يتكون الجهاز الصوتي عندـه ويبدأ  
 بمارين وظائفه ، فينتقل الطفل بهذا الجهاز إلى مرحلة ثانية من مراحل

اللغة فيخرج أصواتاً تدل على معانٍ ولكنه أيضاً لا يستطيع أن ينقد صلة بين هذه الألفاظ وبين موضوعها . وذلك مثل كلمة « بابا » وكلمة « ماما » .

المرحلة الرابعة هي التي يبدأ التلفل فيها فيفقد الصلة بين الألفاظ وبين مفهوماتها ، وهذا يبدو تقدماً في اللغة بواسطة الكمية التي يعيها من الأسماء : وقد لوحظ في هذه المرحلة أيضاً أن إدراك الأسماء أسبق من إدراك الصفات ، وأن إدراك الصفات المتعلقة بالذرق أسبق من إدراك الصفات المتعلقة بالإحساسات الأخرى . عدا فيما يختص بالإسماء والصفات التي لا صلة لها بالزمن : أما الصيغ المعتبرة عن الأحداث والمنتبطة بالزمن فلنشاشةها وتطورها نظام آخر : لوحظ أن الصيغ الزمنية الأولى التي يلجأ إليها الطفل للتعبير عنها يدركه من أحداث إنما هي صيغ الحاضر : إذ إنه لا يعرف الأنس ولا ما يتعاقب به ، ولا الفد ولا ما سيكون فيه . ثم ينبع إدراكه بالأحداث الزمنية ويتجاوز الحاضر إلى الماضي فيبدأ يذكر ما حصل له ، وما أحس به ، ولكنه يستمر فترة من الزمن قد تطول وقد تقصص وهو بعيد عن إدراك المستقبل الذي يحتاج إلى شيء غير يسير من الجهد والتفكير إذ أنه من السهل على الطفل أن يقارن بين الصور التي يلمسها ويحسها في الخارج ، وبين صور أخرى تشبهها قد لمتساواها في الماضي : أما مالم يكن رأه ولا أحس به مما هو متصل بالمستقبل فإنه يصعب عليه إدراكه وتصوره . وهذه الصعوبة التي تحول

يلته وبين إدراكه المستقبل تشبه إلى حد كبير نفس الصعوبة التي تحول  
 بينه وبين إدراكه لمعنى — أنا — فهو لا يستطيع بعد أن ينطوي على نفسه،  
 ولا أن يوجد إدراكه وإحساسه إليها بدل أن يصرفها إلى ما يحيط به من  
 عالم خارجي؛ ولذا فهو لا يتحدث عن نفسه؛ وأسكنه يتحدث عن  
 الغير؛ وإن يكون في مقدوره إدراك نفسه، والإسلام يعوض آفاقها إلا  
 بعد أن ت تكون لديه مجموعة كبيرة من الصور، وطائفة غير سيرة  
 من المدركات؛ وحتى في هذه الحالة عندما يبدأ يدرك نفسه لا يتحدث  
 عنها بصيغة — أنا — وإنما يتحدث عنها بصيغة الشخص الثالث، أي  
 بصيغة الغائب؛ إذ أن حديثه عن الآخرين يدخل ضمن الفصوص  
 والوصف؛ والتعبير الطبيعي لذين الترعين من الكلام إنما هو التعبير بصيغة  
 الحاضر والماضي؛ وقد ظهر فيما مضى أن إدراك صور الماضي والحاضر  
 أسرع بكثير من إدراك صور المستقبل. أما الحديث عن النفس فإنه  
 يدخل في نطاق الإشارة، والإشارة مرحلة لا تأتى إلا بعد إعداد

وفي كل هذه المراحل التدريجية التي من بها الطفل منذ إدراكه لبعض  
 الصور حتى استطاع أن يعبر عنها يدركه بالصيغة الزمنية الرئيسية الثلاث  
 ينفي: ألا يغيب من حسابنا أن إدراكه للحسوبات أسرع من إدراكه  
 للعناوين، فهو يرى ويسمع قبل أن يتخيّل ويفهم:

«ولعل ما يتصل بموضوع اللغة وثائقها أيضًا هو ما يذكره ثلاثة

التشرع من أولية الكتابة والقراءة ، فإنهم يقررون أن الكتابة تسبق القراءة إذ أن الكتابة ولادة الحس بينما القراءة ولادة الإدراك ؛ وكما أن الإشارة باليد تسبق النطق بالسان فإن الرسم يسبق الكتابة ؛ ولأذن فزاحل اللغة من ناحية التسجيل ؛ لا من ناحية النطق ، هي الرسم ، ثم الكتابة ، ثم القراءة .

ونحن لو استعرضنا تاريخ اللغات الكتابية لوجدنا أنها كانت في أول أمرها رسوماً ، ثم أنها قد أخذت في التطور حسب مقتضيات الظروف والأحوال حتى آل أمرها إلى رموز صوتية بدل أن كانت رسوماً لأمور حية . وليس لنا الآن أن نفيض في الكلام عن هذا الموضوع فقد يبعدنا عن بحثنا الأصلي ؛ ولكننا نريد أن نمثل فقط بما هو معروف من اللغات لنثبت ما أشرنا إليه بصفة إجمالية .

إن اللغة الهيروغليفية مثلاً واللغة المسارية لم يسكننا في أول أمرها شيئاً آخر سوى رسوم لكتانات محسوبة <sup>(١)</sup> : أناس ، حيوانات ،

<sup>(١)</sup> انظر - وادى الزافدين مهند الخضارة - قص ٢٣ دراسة اجتماعية لسكان العراق في فتر التاريخ السيد ليونارد رولي . وتعريف أجد عبد الباق طبع دار الكتاب العربي بمصر . - الطبيعة الأولى : سنة ١٩٤٨ . وانظر أيضاً ما جاء في كتاب التاريخ عن مصر القديمة من نصوص خرى .

طيور ، أسماك ، نباتات ؛ ثم اختصرت هذه الرسوم وتحورت على مر الزمن فأصبح الرسم الواحد يدل على جملة أشياء بدل دلالته على الكائن الحي نفسه ؛ وأخيراً استحال إلى رموز صوتية قريبة الشبه بما نراه اليوم في الكتابات الحديثة المختلفة كالكتابة العربية ، والكتابات اللاتينية ؛ وما نحن أولاً لا نزال نرى صورة من الكتابة الرسمية القديمة عند الشعوب المتحضرة كالفراعنة ، والسمريين ، والبابليين ، والآشوريين ؛ فقول لا نزال نرى صورة من تلك الكتابة الرسمية القديمة عند الشعب الصيني :

هذا والطفل في أول عهوده ، كما يقرر ذلك أيضاً علماء التشريح .  
يلجأ إلى الرسم ويمارسه قبل أن يمارس الكتابة ؛ فهو إن أعطى ورقه وقلماً  
يبدأ في التخطيط وفي رسم أشياء مما يقع تحت حسه قبل أن يبدأ في  
الكتابه ؛ ولن يأخذ في الكتابة إلا بعد نحو عقلي وإدراك غير قليل ؛ وحتى  
في أول عهده بتعلم الكتابة إنما يبدأ المعلم معه بتعليمه نسخ شيء أو نقله ، فهو  
أيضاً في هذه المرحلة يرسم لا يكتب ، ويقدّم لا يخلق ولا يعبر ؛ إذ أن  
الرسم في مراحله الأولى وفي أشكاله المختلفة وليد الحسن ؛ أما الكتابة  
بمعناها المتعارف فهي ولادة العقل ؛ وبما أن الحسن أسبق في تكوينه من  
العقل ؛ فإن ما هو وليد الحسن أسبق مما هو وليد العقل .

---

== هيروغليفية ، حيث يوجد صور عدة و مختلفة عن الكتابتين : المسماوية  
والميروغليفية .

وقد امتدل على ذلك علماء التشريح بأدلة منها : إننا نستطيع أن نعلم الآخرين نسخ شيء أو نقله دون أن نعلم هؤلاء الآخرين قراءة ذلك النسخ و النقل وذلك مثل ما كان يحدث عند المصريين القدماء و عند السومريين بذلك ؛ ومن هذه الأدلة أيضاً ما لوحظ بصفة مؤكدة من أننا نفقد القدرة على القراءة ، ولا نفقد القدرة على الكتابة .<sup>(١)</sup>

قد يظن القارئ أننا أطلانا الحديث عن نشأة اللغة ، وأننا خربنا عن وضع البحث في اللغة كظاهرة اجتماعية إلى اللغة كيف تنشأ عند الطفل أما عن النقطة الأولى فإن كل ما ذكرناه لا يتجاوز القدر الضروري بما نظن ، لعرض اللغة ، والتعریف بها . وأأخذ صورة واضحة عنها وعن راحل تكونها ؛ وبخصوصاً إذا عرفت خصوصية الابحاث اللغوية ، ومكانتها النسبية لائر الابحاث الأخرى وأدركت مهمة فهم اللغة ، وطبيعة تكونها النسبية لبحثها عن النحو العربي وتحليله .

وأما عن النقطة الثانية فإننا عرضنا لرأي علماء التشريح في نشأة اللغة

---

<sup>(١)</sup> انظر الفصل الثالث من كتاب : « العبرية الأدبية »  
Paris 1912 10 genis illustré par Dr A. Remond et Paul Koutoulou .  
حيث يوجد عرض كامل لهذا الموضوع عند علماء التشريح يعنون بـ (بنبره)

عند الأطفال وبيان المراحل التي تمر بها ، سواء أكانت لغة النسل أم كانت لغة الكتابة ، لأن كلام هؤلاء الأطفال عن اللغة عند الأطفال يرسم لنا في نفس الوقت صورة عن اللغة عند المجتمعات ؛ وهل المجتمعات البدائية سوى أطفال بالنسبة للمجتمعات الراقية ؟ وهل حياة المجتمع ومظاهره تناوره في اللغة ، وفي الكتابة ، وفي الإدراك ، كما يدرسها ويحملها علماء النفس والاجتماع ، نقول هل حياة المجتمع بالنسبة لهذه النواحي يمكن أن تكون شيئاً آخر - وى صورة من حياة الطفل ، ومظاهر تطوره في اللغة ، وفي الكتابة ، وفي الإدراك ؟

## أشهر اللغات

باللغات المشهورة التي شغلت العلماء ، وكانت هدفاً لأبحاثهم ، و موضوعاً لدراساتهم هي اللغات التي تفرعت عن هذين الأصلين : الآري والسامي .

فمن الآري تفرعت السنسكريتية ، واليونانية ، واللاتينية . أما السنسكريتية فقد انتشرت في الشرق . وأما اليونانية واللاتينية فقد نمتا وتفرعتا في الغرب .

ومن الأصل السامي تفرعت اللغات السامية المعروفة وهي : الآبلية - الآشورية ، والكنعانية ( الفينيقية والعبرية ) ، الآرامية ، والهنية ، والجبيمية ، والعربية .

: ولما لم يحکم عن شأننا ولا من موضوع بحثنا أن ندرس هذه اللغات العديدة ، ونتبع فروعها الكثيرة المشتقة فيستحسنها جانبأ ، وبخاصة بالكلام اللغة العربية التي هي موئلنا الحقيق .

## أسبق اللغات

أما الكلام عن أسبق اللغات ، وأيها كانت اللغة الأولى لل المجتمع الإنساني فظن أنه كلام لا طائل تخذه ، إذ لا سبيل لمعونة ذلك الآن ، فكل ما لدينا من وثائق التاريخ ووسائل العلم لا يجعلنا نطمئن إلى ما ذكره القدماء بخصوص هذا ، ولا يجعلنا كذلك نؤمل أن نصل إلى معرفة ذلك بعد قليل . وكل ما ذكره القدماء في ذلك إنما هو من قبيل التخيّل ، قد أملأه عليهم في أغلب الأحيان نوع من التعصب للجنس أو الدين : من ذلك ما قيل من أن لسان آدم كان سريانياً أو عبرانياً .

وإليكم ما يذكره عاصي الغورست <sup>(١)</sup> : « قال تيادورس المفسر في تفسيره للسفر الأول من التوراة أن الله تبارك وتعالى خاطب آدم باللسان النبطي وهو أفعى من الإنسان السرياني وبه كان يتكلم أهل بابل فلما بلبل الله الآلية تفرقت الأمم إلى الأضيقاع والماوضع وبقي لسان أهل بابل

<sup>(١)</sup> الفهرس ص ١٨٠ . المطبعة الرحمانية سنة ١٣٤٨ هـ .

غلى حاله فاما النبطي الذى يتكلم به أهل القرى فهو سريانى مكسور غير  
مشتقيم بالفظ . وقال غيره اللسان الذى يشتمل في الكتب والقراءة وهو  
الفصيح فلسان أهل سوريا وحران والخط السريانى استخرجته العلامة  
وأصطاحوا عليه وكذلك سائر الكتابات وقال آخر إن في أحد الآنجل  
أو في غيره من كتب النصارى أن ملكاً يقال له سيمورس عالم آدم  
الكتابية النزيانية على ما في أيدي النصارى في وقتنا هذا ، ثم بعض صاحب  
الفهرست في بيان أفلام السريانيين .

ونحن نورد هنا على سبيل المثال ما ذكره هيرودوت المؤرخ اليونانى  
**الكبير :**

يرى هيرودوت أن أحد الفراعنة من ملوك مصر أراد أن يعرف اللغة  
الطبيعية الأولى للجنس البشري . ولعله سأله في ذلك العلامة والفلسفه  
ورجال الدين ، فلم يجد لديهم جواباً يطمئن إليه ، وأخيراً فكر في هذه  
التجربة وتفذها : ذلك أنه أمر أحد خواصه بأن يبحث عن طفلين رضيعين  
حديفي عهد بالولادة ، ويضعهما بمعزل في مكان ناه عن المجتمع بحيث لا تصل  
إليهما أصوات الناس ، ثم يتعددهما بالرضاع والإطعام حتى يكبرا  
دون أن يسمعا أى لفظ كان من أى إنسان كان . وقد أشرف هذا الرجل  
على تنفيذ إرادة الملك . وفي يوم ما زهو ب وعدم إليهما الطعام سمع أول  
لفظة ينطق بها أحد التلقيين وهى ( نيكوس ). فطار بها الرجل رأسه

بـالـلـكـ : وـلـاـ لـمـ تـكـنـ هـذـهـ الـفـظـةـ مـعـرـوـفـةـ فـيـ الـلـغـةـ الـمـصـرـيـةـ فـقـدـ سـأـلـ العـلـاءـ  
فـيـ ذـلـكـ ، وـأـخـيـرـاـ عـرـفـ أـنـ هـذـهـ الـفـظـةـ إـحـدـىـ الـفـاظـ إـلـيـهـ الـيـونـانـيـةـ ، وـأـنـ  
ـمـعـنـاهـاـ (ـالـخـبـزـ)ـ

ـوـأـظـنـنـاـ فـيـ غـيرـ حـاجـةـ لـأـنـ نـشـيرـ إـلـىـ الرـوـحـ الـتـيـ أـمـلـتـ عـلـىـ مـيـرـوـدـوـتـ  
ـأـنـ يـقـضـ هـذـهـ الـفـصـةـ ، وـقـيـ غـيرـ حـاجـةـ أـيـضـاـ لـأـنـ نـذـكـرـ الـهـدـفـ الـذـيـ  
ـرـبـ إـلـيـهـ مـنـ وـرـاءـ هـذـهـ الـفـصـةـ :

ـوـبـمـاـ يـدـخـلـ مـعـنـاـ أـيـضـاـ وـيـتـصـلـ بـهـذـاـ الـمـوـضـعـ مـاـيـقـابـ عـنـ مـسـتـقـبـلـ بـعـضـ  
ـالـلـفـاتـ مـثـلـ مـاـيـسـعـهـ مـنـ أـنـ لـغـةـ الـقـبـيرـ هـيـ السـرـيـانـيـةـ ، أـوـ أـنـ لـغـةـ أـمـلـ  
ـالـجـنـةـ هـيـ الـلـبـانـ الـعـرـبـيـ ، أـوـ أـنـ الشـعـوبـ جـيـعـاـ صـائـرـةـ إـلـىـ أـنـ يـتـصـبـعـ شـعـبـاـ  
ـوـاحـدـاـ يـتـفـاـهـمـ بـلـغـةـ وـاحـدـةـ . وـمـاـ يـشـبـهـ ذـلـكـ مـاقـامـ بـهـ الـعـلـاءـ مـنـذـ قـلـيلـ. مـنـ  
ـابـتـكـارـ لـغـةـ عـالـيـةـ تـصـلـحـ أـدـاـةـ لـتـفـاـهـمـ الشـعـوبـ جـيـعـاـ ، تـلـكـ هـيـ لـغـةـ الـأـسـيـرـاتـ .

ـوـبـالـرـغـمـ مـنـ مـثـابـرـةـ الـفـائـمـينـ عـلـىـ شـأنـ هـذـهـ الـلـغـةـ حـتـىـ الـيـوـمـ ، وـبـالـرـغـمـ .  
ـمـنـ خـاـواـلـاتـهـمـ الـعـدـيدـةـ لـتـثـيـتـ أـقـدـامـهـ وـالـعـمـلـ عـلـىـ تـعـمـيمـهـ وـنـشـرـهـ ، وـبـالـرـغـمـ  
ـمـاـ أـفـوـهـ فـيـ هـذـاـ الـمـيـدانـ مـنـ كـتـبـ ، وـمـاـ أـنـشـئـهـ مـنـ مـكـتـبـاتـ ، وـمـاـ نـشـرـهـ  
ـمـنـ أـبـحـاثـ فـإـنـهـ لـاـ تـزـالـ فـيـ دـائـرـةـ ضـيـقةـ مـحـدـودـةـ ، وـلـاـ تـزـالـ بـعـيـدةـ عـنـ أـنـ  
ـتـصـبـعـ لـغـةـ تـفـاـهـمـ حـتـىـ بـيـنـ الـفـائـمـينـ عـلـيـهـاـ .

ـوـلـقـدـ أـرـدـنـاـ أـنـ نـخـبـرـ هـذـهـ الـلـغـةـ ، وـحـاـولـنـاـ أـنـ يـتـبـيـنـ مـدـبـيـقـنـهـاـ لـلـاـتـشـارـ

فقرأنا بعض ما كتب منها باللغة الفرنسية ، واتصلنا ببعض المشرفين على تعليمها في باريس خلال عامي سنة ١٩٤٧ و سنة ١٩٤٨ م ، ولذلكنا سخريجنا من كل ذلك بفكرة هي : أن هذه اللغة صائرة إلى الموت قبل أن تغادر المهد وأن هذه المحاولات مآلها الفشل بالرغم من صدق المشرفين عليها ، ومن إخلاصهم في العمل . ونستطيع أن نعزز ذلك إلى أسباب تشخصها فيما يلي : -

أولاً : أن اللغة لا تفرض على الشعوب فرضها فهي ليست مظهراً خارجياً يمكن تشكيله حسباً تتطلب الظروف وإنما هي عنصر أساسى من عناصر تكوين المجتمع تمزج بروحه منذ طفولته ، وتلازم تطوره العقلى في كل مظهر من مظاهر ذلك التطور ، وأليس أدل على ذلك من فشل المحاولات بعض الشعوب في فرض لغاتها على بعض المناطق التابعة لدول أخرى ، جرياً وراء أغراض سياسية ، وذلك مثل المحاولات الفرنسية في إقليم السار التابع لألمانيا ، ومحاولات ألمانيا المتكررة في إقليم الالزاس واللويرين التابعين لفرنسا . بل هناك ما هو أبعد من ذلك في الدلالة ، فقد تقوم الدولة السياسية على عنصرين أو أكثر من عناصر الأمة الواحدة ، ومع ذلك يستمر كل عنصر بمحافظة على لغته الخاصة ، وأسلوبه في التعبير والإداء ، دون أن يتأثر بمحاولات الدولة من أجل التوحيد في اللغة ، كما تأثر بها في محاولاتها من أجل التوحيد في الأهداف السياسية للوطن وفي كثير من المظاهر الاجتماعية للمواطنين ؛ وأوضح مثال لذلك بلجيكا ، التي تضم بين حدودها عبقرى متأثرين في اللغة : عنصر ينطق بلغة هي من أصل

الماني ، وعنصر ينطق باللغة الفرنسية ؛ وأكثر من ذلك . سويسرا التي تضم بين حدودها ثلاثة عناصر مختلفة : عنصر يتحدث بالفرنسية ، وعنصر يتحدث بالإيطالية ، وعنصر يتحدث بالألمانية .

وأمما من الأمثلة الحية ما رأيناه من فشل محاولات الإنجليز في فرض لغتهم في يوم ما على المصريين ، وعلى المندوب ؛ وكذلك ما رأيناه من فشل محاولات فرنسا في فرض لغتها على شمال إفريقيا ، وعلى سوريا ولبنان . أما ما نراه في ~~سكننا~~ أو في الولايات المتحدة أو في غيرها من البلاد الأخرى فإن اللغة فيها لم تفرض على السكان الأصليين . ولكن السكان الجدد هم الذين جاءوا إلى هذه البلاد بلغة جديدة فاستعمروها واستيروا بألقابهم الأصلية .

نانياً : أن تعلم لغة جديدة من اللغات لأفراد أو لشعب من الشعوب لهم لغتهم الأصلية يستلزم في كثير من الأحيان شيئاً من المنطق ؛ واللغة كظاهرة طبيعية من مظاهر المجتمع تتنافى مع المنطق ؛ ويقاد ~~يكون~~ مستحلاً تعلم شعب بأسره مادة من المراد تخضع للقياس المنطقي ؛ ولم يكن فشل المحاولات التي أشرنا إليها سابقاً إلا نتيجة لذلك .

## ما هي اللغة العربية؟

واللغة العربية التي نحن بصدده الحديث عنها هي تلك اللغة التي كانت ينطق بها أفراد القبائل الضاربة في شبه الجزيرة العربية ، من شمال اليمن حتى ريف العراق وبادية الشام .

وكانت هذه اللغة متشعبة ومتعددة بتنوع القبائل الناطقة بها ، وذلك ما يعرف باللهجات العربية . ومنذ هضت قبيلة قريش في أرض الحجاز وبدأت تسود غيرها من القبائل وتزعمها في الدين والسياسة والاقتصاد أخذت لهجتها كذلك تسود اللهجات الأخرى ، وتنقلب عليها . وقد استمرت هذه اللهجة في طريقها من الرق بواسطة عدة عوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية حتى كادت تهمل في جانبيها اللهجات القبائل الأخرى ، وهي التي أورثتنا هذه الآثار الدينية والأدبية والعلمية ؛ وهي أيضاً لغة القرآن والحديث والأدب العربي .

وعلماء الشرق بمعون على أن هذه اللهجة هي لهجة قريش ؟ ولكن من بين الغربيين الآن من بدأ يناقش هذا الرأي قائلاً بأن ما يسميه العلامة لهجة قريش يغلب على الظن أنه غير صحيح ، إذ من الصعب أن تصور لقريش لهجة خاصة مع ما نعرفه من عدم بقاءها في بيضة منعزلة عن القبائل الأخرى . فقد كانت بيتهما مورداً للقبائل العربية يأتون إليها للتجارة والمحاجة والمخاورة والمنافرة في الأسواق .

وكانت قريش بحكم زعامتها الدينية والاقتصادية دائمة الاتصال تقريباً بهذه القبائل .

وعلى هذا فإن لغة قريش يمكن أن يقال عنها بأنه لا وجود لها ، وما هي فيحقيقة الأمر إلا خليط أو منزوع من لهجات القبائل الأخرى يكون على مر الزمن ، وانتهى به الأمر إلى أن يكون لغة البيئة المجازية التي تسكنها قريش .

ونحن بدورنا نقول إن هذا الرأي مع ما له من وجاهة ، وفيه من نضوج وعمق تفكير لا يسهل التسليم به : إذ أنا كيف نتفق وجود لغة قريشية بسبب كثرة الدخيل فيها ؟

من المسلم به أن قريشاً كانت على صلة بالقبائل العربية الأخرى ، وأن لغتها كانت في أغلب الأحيان هدفاً لأن تطعم من اللهجات الأخرى.

ومما يثير الشك في ذلك اللغة القرشية فلن يرق فيها نظر إلّى أن ينصح أمامه الأصل ليتأصل ذلك الدخيل . والذى يبني أن تصيوره ونظمن إليه هو أن لقرיש لغة خاصة ممتازة ، وكانت مع ما لها من صلات دائمة باللهجات الأخرى تتبع وتهضم ما يفدى إليها من تلك اللهجات . وليس أدل على ذلك من هذه الفروق في اللهجات الأخرى التي نجدوها في بعض .

الآيات والشاهد الذى نقلها إلينا من تصدى بجمع اللغة وتدوينها من القدماء . وحتى لو سلنا جدلاً بأن اللغة القرشية الأولى قد انحنت تماماً وحل

محلها هذا الخليط من اللهجات الأخرى فإذا لا نزال نجد أنفسنا أمام لهجات متباينة ومتضادة عن غيرها من اللهجات الأخرى . ويستوى في ذلك أن نسميها لهجة قريش أو لهجة بيئة الحجاز .

• • •

هذه اللهجة الفرزية المسائدة في بيئة الحجاز والمزعنة تبعاً لسكانها يتبعها اللهجات الريمة الأخرى هي التي نزل بها القرآن ، وروي بها الحديث ، وما يبقى من الشعر الجاهلي . ثم هي نفسها الأداة التي دوّنت بها العلوم والمعارف الإسلامية في مختلف العصور . وسرى عند الكلام عن النحو العربي أنه أنس على هذه اللهجة الفرزية ، ولم يتعرض لغيرها من اللهجات إلا في القليل البادر . وكذاك الحال بالنسبة لمن تصدى بجمع اللغة العربية وتدوينها . وهذا ما جعلنا نخس دائماً بفجوة في معلوماتنا عن اللغة الفرزية ، وبعجز عن فهم بعض النصوص العربية التي وردت عفواً في ثنايا المكتب ، والتي علّها علماء اللغة بما يسمونه الشذوذ ؛ وما كان يملأ هذه الفجوة ولا يوضح تلك الأمثلة الشاذة — كما يسمونها — إلا معرفتا بذلك اللهجات العربية الأخرى . ومن هنا نلس كم أتعينا هؤلاء العلماء وأضاعوا علينا من الفوائد ، وإن لم يكن ذلك منهم عن قصد واختيار . ولو أنهم نقلوا إلينا : ( فيما نقلوا ) سائر اللهجات العربية الأخرى لأراحوا النهاة وأراحونا معهم من تلك التأويلات البعيدة ؛ وذلك التحرير العجيب ، ولكن ساجبهم الله . وبغفر لهم .

على أننا لم نصل بعد إلى درجة اليأس من الوصول إلى معرفة شيء  
كثير من تلك اللهجات . فهناك يمكن أن نثر على بعضها في بطون  
كتاب اللغة ؛ وفي ثانياً كتب النحو ؛ وفي خلال النصوص الأدبية .  
وخصوصاً في القراءات العديدة التي قرأت بها آيات القرآن . نعمة أننا  
لقد قرأنا ذلك كلـ، قراءة الممحض الدقيق ؛ واستخرجنا من تلك الكتب  
جليعاً ما يدخل في هذه الدائرة من البحث ؛ ثم جمعنا هذه العناصر المبعثرة ؛  
وألفنا بين هذا الشتات تذكرنت لدينا ثروة لانشك في أنها تصلح لأن  
تكون موضوعاً لهذا الدرس .

إن تعدد اللهجات من طبيعة اللغات ، سواء في ذلك قديمها وحديثها ؛  
وكثيراً ما كان المحرص على معرفة اللهجات المختلفة معيناً على فهم أساليب  
اللغة وما فيها من أسرار بلاغية ؛ ووسيلة لإدراك الفروق . بين الشعراء  
والكتاب الناشئين في بيئات مختلفة اللهجات ، وكثيراً ما كان المحرص على  
جميع اللهجات المختلفة للغة من اللغات أساساً لدراسة تلك اللغة . ومعرفة  
الظروف التي نشأت فيها . ثم تطورت حتى أخذت لها مظهراً موحداً ؛  
وأسلوباً عاماً .

ونظرة بسيطة إلى تاريخ اللغة اليونانية . وآثارها الأدبية . ثم مقارنة  
هذه الآثار بعضها ببعض . بالنسبة للألفاظ ومعانيها . والجمل وتركيبها .  
والآفكار . وطرق عرضها ؛ نقول إن نظرية بسيطة إلى ذلك . تلقى صواباً على

قيمة معرفة الدراسين باللهجات المختلفة في اللغة الواحدة . ولقد شرم علماء اللغة اليونانية وآدابها هذه الخطوات فامتدوا إلى تتابع هامة بالنسبة لفهم اللغة وآدابها . ولعل أهم تلك التتابع من الناحية العملية بالنسبة للغة ، ومن الناحية العلمية بالنسبة للدراسين هو ما وجدوه من ثروة طائلة في وسائل التعبير عن الفكرة الواحدة .

ولقد سايمت اللغة اللاتينية بعد اليونانية نفس الخطوات . وكان اهتمام الباحثين فيها وفي آدابها مائلاً لاهتمام الباحثين في اللغة اليونانية . ثم إن التتابع المادي والعلمي يجمع اللهجات ودراساتها وتحليل أساليبها بعد أن اتخذت سبيلاً إلى التوحيد تشبه في جملها نفس التتابع التي وصلت إليها دراسات اللغة اليونانية وآدابها .

هذا وقد أخذ العلاء في دراسة اللغات الحديثة وآثارها بنفس الطريقة التي درست بها اللغات القديمة . واستطاعوا ملاحظة كثير من الفوارق بين الأدباء المختلفين باختلاف بيئاتهم ولهجاتهم . وذلك مثل ماحدث في اللغة الفرنسية ، فإن ما تمتاز به الآن من ثروة في المفردات ، وسخافة في التعبير ، ودقة في الأداء . إنما مرجعه إلى تمدد لهجاتها ، وتبسيط أساليبها . ثم إيقاعها على الكثير من منايا هذه الأساليب وتلك اللهجات .

ومن هنا يتبيّن لنا إلى أي حد ينبع أن نوجه عنايتها بدراسة اللهجات في اللغة الفرنسية ، وألا يكون حصيناً حيالها صنيع رجال اللغة والنحو من

القدماء . وللوصول إلى هذه الغاية ينبغي ألا تستصرخ شأن ما لدينا من أمثلة وشوادر لتلك اللهجات . فإن إهمان القدماء لها وعدم اهتمامهم بجمهرها وإبداء رأيهم بصرىح العبارة فيها من أنها شعيبة أو شاذة ، أو غير مشهورة . كل ذلك قد جعل من شأن قيمة معرفة هذه اللهجات ، وزعزع من سبقونا في دراستها ؛ ويعقابل هذا الإهمال تشريع متعدد من ناحية أخرى بالنسبة للهجية قريش ، فتند رووا من شأنها على حساب اللهجات الأخرى ، بل إنهم زادوا في احترامها ، وأسبغوا عليها صفات هي أقرب إلى صفات القدامة .

وعلينا الآن ، بعد أن أطالتنا على مناهج البحث الحديث ورأينا النتائج ؛ التي وصل إليها علماء هذه المذاهب ، أن نواجه نظرية اللهجات في اللغة العربية . بفكرة جديدة ، وفهم واضح ، ونجمع أولاً ما يسكننا جميعه منها مما قبل ؛ فمن الخطوط البسيطة الواهية يتكون الجبل القوي المنين .

وهل كانت أرائل العلوم الواسعة سوى بعض المسائل البسيطة المبينة ؟ . ولعل منشأ قصوى الدارسين حتى اليوم هو أنهم لم يسعوا دائرة اطلاعهم ، ولم يستوعبوا كل ذلك التراث العلنى الواسع ، والأدب الغزير . وحتى بين اطلع منهم على الكثير منه لم يقرأه وهو يقصد ذلك المدف ، أو يرمى إلى تلك الغاية التي أشرنا إليها .

وبالتالي يمكن من طبيعة هذا البحث أن يتعرض في شيء من التوسيع لذكر هذه اللهجات العربية المختلفة ، وذكر بيئتها ، والتعريف بمميزاتها .

ووجع ما يمكن جده من أمثلتها وشهادتها ، فإننا نترك ذلك كله لدرس مستقل ؛ فهو ميدان يكتو ومحض معا يستحق من الدارسين المختصين عناية عظيمة وبهداً كبيراً .

ولكنا مع ذلك لا نود أن تركه دون أن نشير إلى تلك الفكرة الخاطئة التي سادت فيها بينما زمان طويلاً والتي كان من شأنها أن فهم الباحثون قلة الموروث من تلك اللهجات ، وعدم القناعة في جمعها ، وإحيائها ؛ وكان من شأنها كذلك أن دب اليأس في نفوس الدارسين فانصرفوا عن الاهتمام بها أجيالاً عديدة ؛ وأصبحوا لا يذكرونها إلا في معرض التدليل على ضعفها ، وفي سبيل الاستشهاد على قاعدة نحوية غريبة أو شاذة .

هذه الفكرة هي الفائلة بضعف هذه اللهجات ، وبعدم مساواتها للهجية قريش في الفصاحة والبيان ، وقد ألمتنا فيها مضى إلى فسادها؛ وليس أدل على ذلك من نزول بعض آيات القرآن بها ، راجحاع علماء الإسلام: على صحة قراءة المشهورين من القراء بأساليبها ، وموقف الرسول ﷺ من تصويب القراءات المختلفة بالنسبة للنص القرآني الواحد . . . .

كل هذا يدعونا إلى نبذ تلك الفكرة ، وإلى أن نذكر جزءاً من محهودنا إلى جم اللهجات العربية ودررها . ولستنا نميل إلى مشابعة القائلين بقلة الموروث من هذه اللهجات ؛ بل إننا نستطيع أن نزعم بأن ما يوجد منها ، فـ ثانياً . الكتب والآثار . يصلح لأن يكون موضوعاً كافياً للدروين ؛

يقد اشرنا فيها بمضي إلى مطلبان وجود تلك المهمات ، وإلى المنسادر التي  
نبغي أن نعتمد عليها لنجمع منها المادة الأولى ؛ ونضيف إلى ما تقدم كتب  
لتاريخ وكتب السير ؛ والتصرص الأدبي حتى نهاية العصر الأموي . وإن نظرة عامة  
لي ما جاء في كتاب سيدويه وحده من أمثلة المهمات القبائل العربية المختلفة  
تتعينا بصدق ما نزعم . وتكلفينا متونة الاستئداء لدعيم الدليل .

والآن بعد هذا العرض العام بخصوص اللغة ونشأتها ورأى العلماء ، قد يبدأ حديثاً في ذلك ، ثم بخصوص أئمـة اللـغـات ، والأـلسـنـاتـ الـقـائـمـةـ علىـهـاـ إـسـمـهـ هـذـهـ اللـغـاتـ ؟ نـقـولـ بـعـدـ هـذـاـ عـرـضـ الـعامـ طـفـلـهـ المـسـائلـ ، نـخـالـلـينـ أـمـكـنـ أنـ ظـاهـرـ هـذـاـ اـخـاصـ منـ وـرـاءـ ذـلـكـ ، وـهـوـ مـوـضـعـ الـلـغـةـ رـبـيـهـ : الـذـيـ هـوـ مـدـارـ بـحـثـنـاـ ، نـتـقـلـ إـلـىـ مـوـضـعـ آـخـرـ أـخـصـ منـ الـأـوـلـ بـوـ الصـلـةـ بـيـنـ الـلـغـةـ وـالـنـجـوـ .



# اللغة وال نحو

اللغة العربية — النحو :

صلةه باللغة — نشأته

لقد كان موضوع حديثنا فيما مضى ببساطة تميد لا بد منه للحديث عن النحو ، وقد انتهينا منها إلى بيان كيف كانت اللغة العربية متعددة اللهجات ومنتشرة في كل القبائل الضاربة في شبه الجزيرة العربية تقريباً ، ثم كيف تضاءلت هذه اللهجات وانحصرت في لهجة قريش فقط ، وذلك بواسطة صنيع الرواة والعلماء ، ومن تصدى بجمع اللغة ، وتدوين ملاحظات عليها .

نحن إذن أمام اللغة العربية بمثابة في لهجة قريش فقط التي ورثنا بها نصوص القرآن ومن الحديث والتراث الأدبي القديم .

ونحن إذ نقر بذلك إنما نسائر الفكرة الشائعة التي أوضناها في الفصل السابق ، ولكتنا حيث نجد أنفسنا من تلك الفكرة ومن مشيلاتها . الفكر ، الذي أخذناها عن القدماء بطريقة هي أقرب إلى التلقين ، حين نواه الصرس الدينية ، والأدبية ، واللغوية مواجهة صريحة . نجد أن كثيراً من لهجات القبائل العربية الأخرى مثلاً في هذا التراث اللغوي الواسع ، غ

أن ذلك التثيل لم يكن كافياً في نظر القديماء لكي يدخلوه في حسابهم  
ويتناولوه بالدرس ، أو يسلووه لنا على الأقل بجرداً من تلك الاعتبارات  
الواهية التي أصتوها به . والأسئلة الشبيهة باشتراطته التي أصدروها عنه ؛  
فكان لذلك ثرثرة في نفس من جاء بعدهم بالنسبة لتقدير هذا التراث .

ولأن صور الخلاف بين اللهجات التي نقلها إلينا النحاة في ثنايا كتبهم ..  
لتشهد بما كان لبعض اللهجات من قوة تكاد تساوى بها قوة لهجـة قريش ؛  
فكل من درس النحو يدرك مبلغ النفوذ الذي كانت تتمتع به لهجـة تميم ؛  
ويعرف ما أثبته النحاة في قواعدهم ؛ وفي مؤلفاتهم من خلاف بين « ما » ،  
المجازية و « ما » التميـيـة . وإذا كان النحاة لم يكتـروا من صور الخلاف  
بين لهجـة قريش ، ولهجـات القبائل العربية الأخرى ، وعتمدوا فيها نـاظـن  
أن يغضـوا عن كـثيرـ منها ، الا أنـا نـستـطـعـ أنـ نـدرـكـ في سـهـولةـ صـوـزاـ،  
أـخـرىـ كـثـيرـةـ . وـقـرـبةـ وـمـنـتـشـرـةـ بـيـنـ سـكـانـ الـجـزـيرـةـ الـعـرـبـيـةـ فـيـهاـ كانـ يـحـدـثـ  
بـيـنـ القـبـائـلـ مـنـ مـفـاخـرـةـ ، وـمـنـافـرـةـ وـمـهـاجـةـ ؛ إـذـ أـنـهـ لـيـسـ مـنـ السـهـلـ أـنـ  
تـصـوـرـ خـضـوعـ شـعـراءـ القـبـائـلـ جـيـعـهـاـ لـهـجـةـ قـرـيشـ فـكـلـ ماـ يـلـشـدـونـهـ مـنـ  
قـصـائدـ فـيـ بـحـثـعـاـتـهـمـ ، وـفـيـ أـسـوـاقـهـ الـأـدـبـيـةـ ؛ وـلـيـسـ مـنـ السـهـلـ أـنـ تـظـوزـ  
كـذـلـكـ أـنـ الـحـكـمـ بـيـنـ الـشـعـراءـ مـنـ قـبـائـلـ مـخـتـارـهـ كـانـ يـدـخـلـ فـيـ حـسـابـهـ ، حـينـ  
بـصـرـ حـكـمـ عـلـىـ قـيمـهـ الـشـعـرـ ، مـاـ كـانـ مـنـ خـلـافـ فـيـ لـهـجـةـ بـيـنـ شـعـراءـ هـذـهـ  
لـقـبـائـلـ الـمـتـبـاـيـنـهـ .

والنحو بالنسبة للغة هو عبارة عن جمجمة الملاحظات والنواتج التي تلزمها أساليب اللغة في طرق أداتها للعاني . فالالتزام الرفع في كل من يصدر عن الفعل أو الحدث ، والالتزام النصب في كل من يقع عليه الحدث ، والالتزام الجزم في كل حالة من حالات الإضافة وفي كل اسم مسبوق بحرف من حروف الجر ، والالتزام الجزم في الفعل المضارع إذا أُسند إلى نون النسوة أو سبق بحرف من حروف الجزء ؛ نقول إن التزام حالة من حالات الإعراب المختلفة لكل حالة من حالات الكلمة بالنسبة لموضعها من الجملة إن هو إلا طريق من طرق الأداء في اللغة العربية . أما ملاحظة ذلك للسير على نهجه فهو من النحو .

ومن هنا نلمس نقطة هامة وهي أن النحو لا ينشأ مع نشأة اللغة ، وإنما هو مرحلة من مراحل نموها ، وظاهر من ظواهر رقيها ؛ إذ شوهد هذا الاعتبار وليد العقل ، واللغة في نشأتها الأولى وليدة الحس .

وليس من شك في أن العقل متاخر في الوجود عن الإحساس . وليس أدل على ذلك من أن النحو لا يوجد إلا في اللغات الراقية ذات الآثار الأدبية والعلمية الواسعة .

وقد ساوت اللغة العربية في هذا الطريق سير غيرها من اللغات الأخرى كاللغة اللاتينية واليونانية مثلا . وإذا لم يكن لدينا من الوثائق التاريخية ، ولا من الأدلة العلمية اليقينية ما يسهل علينا مهمة إثبات ذلك بالنسبة للغة

العربية ، فإن ما نجده في مثيلاتها من اللغات الأخرى يجعلنا نطمئن إلى هذا الحكم ، ونضرب صفيحاً عن رأي بعض علماء الورب التماثلين بأن النحو العربي قد يسمى التأشة ، بل إنه توثيق . كما أن اللغة في نظرهم توثيقية أيضاً . ومن مؤلأء الإمام ابن فارس <sup>(١)</sup> ، ومسنونه بالتفصيل لوجهة نظره عند الكلام على نشأة النحو العربي .

من الثابت أن كلها من اللغة اليونانية واللاتينية قد نشأت بسيطه <sup>(٢)</sup> في ألقاظها وفي تركيبها ، بمحدودة في أساليبها ، وفي طرق أدائها المعانى . غير أنها لم تلبث أن اتسعت دائرتها ، وتعددت أساليبها ، وتلا ذلك خلعاً ما يشبه التعقيد المعنى ، فبدأت تتلزم طرقاً خاصة لتأدية المعانى ، وتمييز بعض التركيب عن بعض . إذ أن اللغة في حياتها تخضع لحياة المجتمع وطبيعته ؛ فكلما اتسع المجتمع ، وتعددت مشاكله ، وتعقدت أمره كان في حاجة إلى أن تتسع لغته : وتتعدد تركيبها ، وتشكل أساليبها وفق ما يستلزمها النحو العقلى في المجتمع . ولعل أول مظاهر من مظاهر رقيها هو ما وجد فيها من الأغانى الشعبية التي تكون جزءاً مما يعرف عند الغربيين <sup>(٣)</sup> بالفولكلور Volk-Lore . ولما كانت زمام هذه الأغانى الشعبية لا يزال منوطاً بيد الحس ، ولا دخل للعقل فيه إلا عن بعد ، فإن الملاحظات : التحوية والالتزامات الدقيقة المنظمة لا ترى ولا تحس إلا قليلاً ؛ ولنا فيما نراه

<sup>(١)</sup> التعريف بابن فارس تقدم في ص ٢٢

من الأغانى الشعبية شاعر على ذلك ،

وليسكن عندما يدخل العقل في دور العمل ويتسنم زمام اللغة ، ويبدأ في تصريفها وترتيبها بحيث يسهل أن يؤدي بها كل ما يتصور من المعانى ، ومانندوا إليه الحياة الاجتماعية ؛ يتجدد الله تبعاً لذلك تدخل بدورها في التزام طرق للأداء بخصوصه ، وأسائليب فى التعبير متباعدة تباين المعانى والتركيب .

فلئة الشعوب البدائية بعيدة كل البعد عن ذلك التشقيق وتلك الطريق المتباعدة في الأداء ؛ بل إن مجموعة بسيطة من المفردات وبقية يسيرة من التركيب ، وطاقة قليلة من الأسلوب التقليدية تكفى للتعبير عن حاجيات هذه الشعوب ، ولشرح أغراضها . ولنكي تتصور ذلك في وضوح فا علينا إلا أن نرجع بأذهاننا إلى الوراء لنتظر في تاريخ الكتابة الميلوغرافية أو السومرية . فإن : عدداً بسيطأ من الرسوم كان كافياً للأداء ما يراد أداؤه ، وللتعبير عما يراد تبجيله ؛ وبقدر ما كان يظهر من انحدار العقل في المجتمع كانت تتطور وتتعدد تلك الرسوم ؛ ولكن حينما صارت هذه الرسوم عن كل ما يدور في أفق المجتمع ، وكل ما يقع تحت حمه الباطنى أخذت الصورة الراجمدة تدل على كثير من المعانى ، فأصبحت الكتابة بذلك وسطاً بين الرمز والتصوير ؛ وفي المرحلة النهاية للكتابه تنتقل إلى الرمزية الخامسة حيث تعجز الرسوم تماماً عن شرح وأداء ما يراد . وتاريخ الكتابة التصورية يعتبر إلى حد كبير مرآة لتاريخ اللغة نفسها ؛ وكل من اللغة

والكتابة يمثل الفو العقلى فى المجتمع بعد مرحلة الحس الحالى . وحينما نصل اللغة إلى الدرجة التي تستطيع أن تساير بها المجتمع في إحساسه ، تصوّره ، وخياله ، وإدراكه للأمور فإنها تكون قد استكملت إلى حد كبير ثروتها في التراكيب والأساليب كما استكملت ثروتها في المفردات . حينئذ نجد أن هذه الطرق ، تلك الأساليب هي التي تمهد لللاحظات نحوية ، ولاستبانت القواعد والآحكام التي هي من عمل النعمة .

هذا ولو استعرضنا تاريخ حياة اللغة على ضوء هذه الاعتبارات السريعة بجدناها تمر بأطوار أساسية ثلاثة : طور الطفولة ; وطور الشباب ; وطور نضوج . على أن المدة التي تقضيها اللغة في كل طور من هذه الأطوار تختلف باختلاف الظروف والملابسات ، فقد تبقى اللغة في طفولتها لانتفعل طور آخر مادام الشعب في حياته البدائية الأولى كلغات الشعوب في ريقيا الوسطى ; وقد تنتقل طفورة إلى طور النضوج إذا أتيح لها من رص ما يؤهلها لأن تأخذ مكانتها بين اللغات المهدية الراقية . وهكذا نجد باعتبارها ظاهرة اجتماعية ، تتأثر بما يتأثر به سائر الظواهر الاجتماعية الأخرى ؛ وهذه الأطوار الثلاثة التي تكلمنا عنها إنما هي المراحل الرئيسية لـث التي مرت بها كل من اللغة اللاتينية واليونانية . ونعتقد أنها هي مـها التي مرت بها اللغة العربية . وما يقال غير ذلك فليس بمحبـول ؛ إذ اللغة العربية لم تكن بـدعا ولا منفردة في شأنـتها عن اللغـات الأخرى .

.. وينبني. ألا يحول جملنا بتاريخ هذه اللغة بیننا وبين الاممتنان إلى هنا  
الافتراض ، كما يعني ألا ينبع ذلك الجبل أيضاً من تطبيق ما حصل في  
اللغات الأخرى على اللغة العربية من حيث النشأة والتطور ، إذ أن القرآنين  
الطبيعية واحدة في معاييرها وإن اختلفت في الشكل والمظهر . هذا وما وجد  
حتى الآن من النصوص العربية القديمة ، سواء ما كان عنها منقوشاً على  
بعض المقابر أم ما كان مدفوناً في بعض الأماكن ، يعتمد بداية طيبة  
لدرس تاريخ هذه اللغة ، ويبشر بأن وراء هذه النصوص نصوصاً أخرى  
سيكشف عنها البحث ، ويستقي ضرورةً على نسبتها ، وتطورها . ولقد كانت  
أمثال هذه النصوص على قلتها وبساطتها في اللغة اللاتينية أساها لمرفة  
أوليتها ، ودرس تاريخها ؛ وما حدث في اللغة اللاتينية يشبه إلى حد بعيد  
ما حدث في اللغة الفرنسية . وليس من هدفنا في هذا البحث أن نعرض  
لتاريخ هذه اللغات ، قد يهمها وحدتها ، ولا أن نبين في وضوح عمود انتقامها  
مع ذكر الميزات لكل عهد ؛ ولكننا قد قصدنا مما تقدم بيان القرآنين  
العامة ، والأنس الطبيعية التي تخضع لها اللغات ؛ ومنها يتضح موقفنا من  
اللغة العربية ؛ ونستطيع أن نحدد أهدافنا من درسها ؛ ونبعد بعض  
اللاحظات على ماهي من أمرها .

وإذن فمن هذا العرض السريع يمكننا أن نستخلص الحقائق الآتية :-

. أولاً : اللغة العربية التي نحن بصدد الكلام عنها لم توجد في أول عهدها

كاملة ناضجة ؛ فذلك ينافي القوانين الطبيعية العامة ؛ وإنما سارت على  
ستون غيرها من اللغات الأخرى ومرت بالمراحل الثلاث التي مررت بها سائر  
اللغات : طفولة ، شباب ، نضوج .

ثانياً : اللغة العربية كما زرناها ونقرؤها تتمثل المرحلة الثالثة ، التي هي  
عبارة عن جهود زمن طويلاً ، وربما أجيال عديدة ، في سبيل تنوعها  
واتساعها وبلغوها إلى درجة من الدقة والرقى تستطيع معها أن تعبّر عما  
تستلزمها حياة صاحبة في مجتمع عظيم .

ثالثاً : لم تلتزم اللغة العربية طرق الأداء الخاصة ، والنظام الدقيق في  
ملاحظة علامات الإعراب من حركات وحروف إلا في هذه المرحلة  
الأخيرة . أما ماسبتها من مراحل أخرى فليس من المقبول أن تكون  
كذلك من هذه الدقة والانضباط .

ومن هنا يظهر لنا فساد الرأي عند القائمين بأن اللغة العربية  
توصيفية في قواعدها كما هي في نظرهم توصيفية في مفرداتها . وكذلك  
يظهر فساد رأى من قال بأن اللغة العربية لم تعرف اللحن مطلقاً ، أو أن  
العربي لا يُنطق باللحن وليس من طبيعته أن يلحن . ليس هنا مجال عرض  
آراء هؤلاء العلماء ، ولا مناقشة هذه الآراء ، والرد عليهما ؛ فسيكون  
لنا معهم بعد قليل موقف آخر ، نسائلهم ، ونخلل آرائهم ، ونبين مدى  
مخالفتهم لطبائع الأشياء . وبغلب على الظن أن مانجده الآن في بطن

١ - إما أن تكون هذه البهايا من الأمثلة النادرة أو الشاذة . قد يجدها على لسان بعض القبائل العربية الأخرى غير قبيلة فريش . وحيث يمكن أن تعلل بهذه الأمثلة بأن تلك اللهجات العربية الأخرى التي لم تصل إلى ما وصلت إليه لهجة فريش من التضروج والكمال ، قد استمرت تمثل فيها العادات الأولى للغة حيث لا يتلزم فيها بأمرداد نظام مخصوص للأداء ، ولا قواعد مضبوطة للتعبير ، كما هو شأن في اللغات الأخرى .  
وحيث كانت القبائل العربية منفصلة متباينة . لا تجتمع إلا في ظروف ضيقه ؛ وحتى في هذه الظروف لا يجتمع إلا بعض أفراد منها كرؤساء

القبائل ، والقائمين بشئون التجارة ، مما لا يكفي معه أن تتأثر لهجة قبيلة بلهمجة قبيلة أخرى ؛ فاستمرت العزلة ، وساعد على استمرارها ظروف الحياة في شبه الجزيرة العربية حتى بعد نهضة قبيلة قريش ، ومحاولته الإسلام الكبرى بتوحيد القبائل ، وجمعها على لهجة واحدة . وذلك عكس ما يلاحظ في شبه جزيرة اليونان ، وفي شبه جزيرة إيطاليا بالنسبة لما كان هناك من لهجات متباينة ، ثم من صلات متبادلة ، وتوحيد في اللهجة سريع .

ولقد كان من نتيجة هذه الحسابة ونظمها الاجتماعية في شبه الجزيرة العربية أن أصبحنا نجد هذه الفوارق في طرق الأداء، ونحس بما كانت تحدثه من خلاف واضطراب عند رجال النحو واللغة حينما تصدوا بجمعها ودراستها، وتدرين ملاحظاتهم عليها. وإليكم بعض الشواهد بما يلق ضوءاً على ذلك: وقد حاولنا جمع هذه الشواهد في طوائف بكل طائفه منها خاصة بقاعد نحوية؛ فما يختص بقاعدة إفراد الفعل من تقدمه على الفاعل المثنى أو الجمجم نجد:

· جاموني بنو فلان ، وأكلونى اليراغيث

وقول الشاعر

رأى الغراني الشيب لاح بعارضي ؛ فأعرضن عن بالحدود النواضر

وقول الآخر

تج الربيع محاسنا ، الفخنها غر السحائب (١)

ومنها أيضاً قول أمية بن أبي الصلت :

يلومونني في اشتراط النجاح على أهل فكاهة الازم

وقول ابن قيس الرقيات :

تولی قنال المارقین بسیفه و قد اسلامه بعد و حجیم

وقول الفرزدق ضمن تصييدة يمجد بها ابن سهراء التضي :

راکن دیافی أبوه وأمه ، بوران يعمرن السليط أفاربه (٢)

وقد جاء القرآن بأمثلة من هذه اللهجات فقال تعالى : « وأسروا النجوى الذين ظلموا ، وقال : « ثم عموا وسموا كثيراً منهم » . ومن ذلك أيضاً ما روى : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار .

<sup>(١)</sup> انظر فقه اللغة للشاعبي - القسم الثاني : سر العربية ص ٤٨٨

(٤) هذه الآيات الثلاثة قد ذكرها الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي في كتابه «مع الموامع على جمع الجوابع»، بمناسبة الكلام على القاعدة النحوية التي ذكرناها؛ ثم شرحها وعاق عليها الاستاذ أحمد بن الأمين الشنقيطي في كتابه «الدرر اللوامع» - على هم مع الموامع شرح جمع الجوابع - ج ١ ص ١٤١-١٤٢. وقد ذكر بعض النحاة أن هذه الشواهد قد جاءت بلهجة طيء، وقال بعضهم إنها لهجة أزد شنوه، الذين يأتون بالآلاف في الفعل مع المثنى، وبالواو مع الجمع للذكر وبالنون مع الجمع للتوزن . .

هذه الأمثلة جمع الفعل مع تقادمه مع الفاعل الجماع تيسر لنا سهل  
قول بأنه من المرجح أن تكون هذه الطريقة في التعبير أسبق من  
عادة العامة المعروفة الآن وهي إفراد الفعل عندما يتقدم الفاعل الجماع :  
لما عقول أن يجمع الفعل مع الجماع ، ويفرد مع المفرد . وقد أحس بهذا  
مالي وأشار إليه <sup>(١)</sup> حين اعترف بأصالة هذا التعبير ؛ والثعالبي هو  
أولئك العلماء الذين امتازوا بقدرة الإدراك ، ودقة الحس بالنسبة لحقيقة  
لغة العربية ، وأساليبها ؛ وله في كتابه ، فتح اللغة ، مواقف عديدة تؤيد  
هذا القول ؛ فكثيراً ما ثار على النحاة واتخذتهم في طريقة فهمهم لأساليب  
اللغة ، ونبه إلى أن اللغة ينبغي أن تدرك بالذوق والحس قبل أن تدرك  
للنطق والعقل .

ومن العجيب أن نجد النحاة يغرسون عكس هذا المبدأ ؛ فيسمون  
اللة إفراد الفعل مع ثانية الفاعل أو جمعه قياساً ؛ ويكون العكس  
ذلك ، وهو ثنية الفعل مع الفاعل المثنى ، وإفراده مع الفاعل المفرد ، وجمعه  
مع الفاعل الجماع ، خروجاً عن القياس . <sup>(٢)</sup>

<sup>(١)</sup> فقه اللغة ص ٢٨٨

<sup>(٢)</sup> انظر الدرر اللوامع للشنقيطي ج ١ ص ١٤١

ومن القواعد النحوية أيضاً ، التي اهتم بها النحاة وأكثروا فيها من الأمثلة والشواهد الخارجة على قواعد المقررة ، والمشيرة إلى لهجات قبائل أخرى غير لجنة قريش ، فقاعدة إعراب الأسماء الخمسة .

ومن ذلك أيضاً ما نجدوه في كثير من أبيات الشعر لشعراء قبائل مختلفة قد اهتم بها النحاة ، وأوردوها في جملة من أبواب النحو مثل الأسماء الخمسة ، والمعنى ، وجمع المذكر السالم وملحقاته ، وجمع المؤنث السالم ، وما لا ينصرف ... الخ

ونذكر من ذلك على سبيل المثال فقط لا على سبيل الاستقصاء قول أبي النجم العجمي ، وهو من بني شبل من بكر وائل :

وأها لريا ثم واهما واهما هـ هي المنى لو أنتا لمنها

يا ليت عينيها لنا وفاما وـ بشـن نرضـى به أباها

إن أباها وأبا أباها هـ قد بلغا في الجهد غايتها

وهنا نلاحظ قصر الآب من الأسماء الخمسة على الآلف : وكذلك قصر المعنى على الآلف في ( غايتها ) . ومن قصر المعنى أيضاً قول الشاعر .<sup>(1)</sup>

نزود منابع أذناه ضربة هـ دعوه إلى هابي التراب عقيم

<sup>(1)</sup> شرح حمـمـ المـوـامـعـ جـ ١ صـ ١٤ـ . هـابـيـ التـرـابـ =ـ ماـ اـخـلـطـ مـنـهـ بـالـرـمـادـ ، عـقـيمـ =ـ لـاـ يـلدـ .

نلاحظ ، أذناه ، بدل ، أذنيه ،  
وقول عمرو بن العاص ، في رواية : حين حله معاوية على مبارزة عبلي  
ابن أبي طالب : مكره أخاك لا بطل .

ومن ذلك أيضاً ما جاء على لسان رجاع من حشة كما يقول المفضل <sup>(١)</sup>

إن لسلبي عندنا ديوانا « يخزى فلانا وابنه فلانا  
كانت بعمرها عمرت زماما » وهي ترى سبباً إحساناً  
أعرف منها الآف والعينانا « ومنخرین أثينا ظبياناً  
نلاحظ ، عينانا » و ، ظبيانا ، مع ، منخرين ، .

ثم نلاحظ كذلك التزام فتح نون المثنى في تلك اللهجات ، ويقال إنها  
لهمة بنى الحارث بن كعب ، إذ أنهم يقلدون الياء الساكنة إذا انتفعوا  
قبلها ألفاً فيقولون : أخذت الدرهان ، وشتريت ثوبان ، والسلام علام .  
قال ذلك أبو حاتم والأخفش . <sup>(٢)</sup>

ومن العرب أيضاً من يلزم المثنى الآلف ، ويعرّبه بالحركات على  
النون ، من ذلك هذا البيت الوارد في كتاب المواقف منسوباً إلى أبي  
عمر الزاهد :

يا أبا أذنى القذان « قالنوم لا تطعمه العينان : <sup>(٣)</sup>

<sup>(١)</sup> شرح همع الموامع ج ١ ص ٢١

<sup>(٢)</sup> المصادر السابق ج ١ ص ٢١

<sup>(٣)</sup> المصدر السابق ج ١ ص ٢٢ . القذان = جمع قذة ; البراغيث

وَمَا خَرَجَ عَنْ قَاعِدَةِ إِعْرَابِ جُمُعِ التَّصْحِيحِ وَمَا أَلْحَقَ بِهِ مَا رَوَى غَنْ جَرْبَرُ أَنَّهُ قَالَ أَبِيَاتًا يُخَاطِبُ بِهَا فَضَالَةَ الْعَرَبِ مِنْهَا :

عَرَفْنَا جَعْفَرًا وَبْنَ أَبِيهِ ۚ وَأَنْسَكْنَا زَعَافَ آخَرِينَ

جَيْثَ رَوَى بَكْسَرُ النَّونِ فِي «آخَرِينَ» وَقَدْ قَرَرَ فَرِيقٌ مِنَ النَّحَاةِ أَنَّهَا لَهُ فِي الْمُجَمَعِ .<sup>(١)</sup>

وَمِنْهَا مَا نَقَلَهُ الشَّنَفِيَطِيُّ عَنِ السَّيُوطِيِّ : إِلَّا الْمُخْلَتُفُ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّينَ<sup>(٢)</sup> بَكْسَرُ النَّونِ أَيْضًا فِي «النَّبِيِّينَ» .

وَمِنَ الْمُلْحَقِ بِجُمُعِ الْمَذَكُورِ السَّالِمِ مَا وَرَدَ بِلِفَةِ بَعْضِ بْنِ تَمِيمٍ وَبْنِ عَامِرٍ حَيْثُ يَلْزَمُونَهُ الْيَاءُ وَيَجْعَلُونَ لِإِعْرَابِهِ عَلَى النَّونِ؛ وَذَلِكَ مُثْلُ بَيْتِ جَرْبَرِ الَّذِي قَالَهُ ضَمِّنْ قَصِيدَةَ يَمْجُومُهَا الْفَرْزَدقُ :

رَأَتِي مِنَ السَّنِينِ أَخْذَنِي مَنِ ۖ كَأَخْذَ السَّرَارَ مِنَ الطَّلَابِ

جَيْثَ كَسَرَتِ النَّونَ بِالْإِضَافَةِ إِلَيْهِ (مِنْ) .

وَبَيْتٌ آخَرٌ يَرْوِي إِشَاعِرٌ مِنْ خَزَاعَةَ أَوْ مِنْ جَرْبَمْ .<sup>(٣)</sup>

أَلْمَ لَسْقَ الْجَجِيجَ سَلِيْ مَعْدَأً ۖ سَنِينَا مَا تَعْدُ حَسَابًا

جَيْثَ لَزَمَتِ الْيَاءُ أَيْضًا فِي «سَنِينَا»، وَنَصَبَتِ النَّونُ .

---

<sup>(١)</sup> انظر: الدرر اللوامع للشنفيطي ج ١ ص ٢١٠ .

<sup>(٢)</sup> نفس المرجع ج ١ ص ٢٢٠ .

<sup>(٣)</sup> نفس المرجع ج ١ ص ٢٠ .

وهكذا نستطيع أن نمضي في ذكر أمثلة من جمع المؤنث السالم ،  
اسم المنوع من الصرف قد شلت عن القواعد النحوية التي قررها  
ويون لها ؛ ولكننا نحيل القاريء إلى عذين البابين في سبکت النحو  
سعة كثیر ابن عقیل وشرح الأشمونی على ألفیة ابن مالک ؛ وكتاب  
صل للزخیری ، وعلى رأس هذه الكتب جمیعاً كتاب سیبویه .

هذه الشواهد التي ذكرها النحاة في مؤلفاتهم وعلى رأسهم سیبویه ، وحاولوا  
فهمها فيما منطبقاً وتعديل خروجها عن قواعدهم المقررة تعتبر في  
فع بعيدة الدلالة ؛ ففي لا تتفق عند إثبات لمحجة من الت徼يات كما  
بأن ، ولكنها تلق حضوراً على كثير من المسائل الحسانیة في اللغة  
یة ؛ إذ أنها تبين إلى حد بعيد فارق الأداء المختلفة عند القبائل ،  
لات الإعراب في اللهجات ، وطبيعة اللغة في العصر الجاهلي ومدى ما  
هذاك من خلاف في الأساليب مع توافق في المعنى .

والذى يزيدنا اهتماماً بهذه الأمثلة وتشبعاً بدراستها دراسة عميقه ، وبفهمها  
جديداً هو ما نجده من شيء لها في النصوص القديمة من اللغات  
ية كاليونانية واللاتينية ، فقد كانت هذه الأمثلة في هاتين اللتين بعثابة  
من ابنى عليه كثير من المسائل لفهم تاريخ اللغة ، وتطور الإعراب  
، وما دامت اللغات في جموعها خاضعة لزماميس طبيعية واحدة خان

مقارنة اللغة العربية بغيرها من اللغات القديمة المعاصرة يعتبر عظيم الجدوى  
 لفهم ما غمض من سائلها ، وما أهمل من موضوعات الدرس فيها . ولقد  
 كان من نتائج هذه الدراسات المقارنة أن تنبه لها كثيرون من العلماء فتوسعوا  
 فيها حتى شملت كثيراً من العلوم كالآداب المقارن ، والنسو المقارن . والقانون  
 المقارن ؛ وأكثروا من ذلك لإنما فتحت آفاقاً جديدة لفهم بعض الأمور في  
 كل ميدان على حدة من ميادين المعرفة الإنسانية ، بل لقد تخلل بعض  
 العلماء هذه الميادين جميعها وأدخلوها في الآداب يقارنها ببعضها ، ويبين مدى  
 ما يمكن أن يكون بينها من تشابه واختلاف ، ومدى ما يمكن أن  
 يكون بعضها قد استمد مبادئه وتعاليمه من البعض الآخر . لهذه الاعتبارات  
 قد اعتمدنا في بحثنا اعتماداً كبيراً على مقارنة اللغة العربية ونحوها بغيرها  
 من اللغات الأخرى وما يتصل بها من دراسات ؛ وسيرى القارئ صوراً  
 عدّة من هذه المقارنة كلما امتدت به القراءة في هذا البحث .

عرضنا منذ قليل لبعض الشواهد الأدبية من لهجات القبائل المختلفة  
 التي لا تتفق مع قواعد النحو المقررة ، وعرضنا لبيان وجهة النظر عند  
 النحاة في فهمها ، ثمينا وجهة نظرنا نحن إذا ما وجدناها وحاولنا دراستها .  
 وأما ما نجده من ذلك في القرآن أو في الحديث ، أو ما جاء عن لسان  
 بعض الفرسان فيمكن أن يعلل بتعليق آخر :- . . .

ذلك أن يكون القرآن أو الحديث قد التجأ إلى هذه الطرق من التعبير

لفرض خاص استلزمه أمر بلاغي أو ظرف اجتماعي ، ف أحياناً يلجم البيان  
إلى التعبير بأساليب قديمة ؛ إما لأن موضع الحديث يستدعي ذلك ،  
وإما لأن المتحدث إليه توجهه بذلك القديم صلة وثيقة ؛ وإما لاستحضار  
صورة من ذلك القديم لأغراض أخرى .

كفرض التأثير ، أو الإيقاظ ، أو التمجيل ، أو الذكرى ؛ فإن مجرد  
الإشارة في كل هذا يعني عن عبارة ؛ وقد اتخذ علماء البلاغة من هذا  
ميداناً لدرسهم وتكلموا بيدهم ، وذكر الآثار النفسية والأدبية ، التي تحدثها  
هذه الممارق في الأداء . ولم يكن ذلك بذاته في اللغة العربية ولا في  
أساليبها ، فإننا نجد كبار الكتاب اليونانيين والرومانيين يصنفون ذلك في  
أساليبهم لأغراض بلاغية كالأغراض التي ذكرناها من قبل ، فتكون هذه  
التعابير القديمة ، سواء أكانت خاصة باللغة أم بالقواعد التحوية ، في ثنايا  
الأساليب الحديثة بثبات حلية تزيتها ، أو بمحنة تجربتها قوتها .

ومن أشهر من عرف بذلك هو فيرجيل ، أكبر شعراء اللاتينية في  
ملحمته « الإيبياد » ، وبيتروس ليغوس من أكبر مؤرخيها أيضاً في تاريخه  
الروماني .

ثم إننا نجد صدى ذلك كله واضحاً تماماً في صنيع المؤلفين

المسرحيين ، تقديمهم وحديتهم على السواء . كأرستوفان *Aristophane*<sup>(١)</sup> ،  
أوريبيه *Euripide*<sup>(٢)</sup> من اليونانيين ، وبليوت *Plute*<sup>(٣)</sup> ، تيرانس  
*Terence*<sup>(٤)</sup> من اللاتينيين : وشكسبير *Shakespeare*<sup>(٥)</sup> من الأنجلز :

---

(١) أرستوفان *Aristophane*، عاش في القرن الخامس قبل الميلاد .  
أشهر بشعره المسرحي في أثينا ولد أحد عشر مسرحية انتقد فيها الأدب  
والسياسة في عصره .

(٢) أوريبيه *Euripide* ولد نحو سنة ٤٨٠ ق.م ومات سنة ٤٠٥  
أو ٤٠٤ ق.م شاعر مسرحي أيضاً ولد عدد كبير من المسرحيات يصف  
فيها نزعات الحب ، ويعالج الناحية العاطفية معالجة دقيقة .

(٣) بليوت *Plute* ولد نحو سنة ٢٥٠ ق.م ، مات نحو سنة  
١٨٤ ق.م شاعر مسرحي روماني وقد استطاع أن يصور في مسرحياته نزعات  
نضره وأخلاق المجتمع .

(٤) تيرانس *Terence* شاعر مسرحي روماني ولد في قرطاجنة سنة ١٩٤  
ق.م ومات ١٥٩ ق.م وهو من العبيد المحررين ولد عدد كبير من  
المسرحيات قلد فيها المسارح اليونانية .

(٥) ششكسبير *Shakespeare* ولد سنة ١٥٦٤ ومات ١٦١٦ م  
أكبر شاعر مسرحي إنجليزي ولد عدد كبير من المسرحيات المشهورة ،  
وقد استطاع أن يصور بصدق كل الإحساسات وكل نزعات الحب .

وكورني *Cornecille*<sup>(١)</sup>، ومولير *Molière*<sup>(٢)</sup>، وراسين *Racine*<sup>(٣)</sup> من الفرنسيين. هؤلاء جميعاً قد لاستثنوا في مسرحياتهم هذه الاعتبارات ملاحظة دقيقة؛ إذ أنهم في حاجة إلى تصوير شخصياتهم ووصف مناظرهم تصويراً ووصفاً حقيقيين أو شبيهين بالحقيقة حتى يكون النظر على نفس الناظر أحياناً وقعاً، وأبعد أثراً؛ فإن كانت الشخصيات المنظر من القدماء استحضر وهم بذاتهم فإذا جروا على المستheim نفس لمحاتهم وأساليبهم وأفاظهم ويزكوا منظفهم يعبر عن نفسه كيدهم، ويشرح مبلغ ما لديهم من ثقافة وعمرقة؛ وإن كانت الشخصيات المنظر من المحدثين لا جنوا في تمثيل وتصويرهم بكل ما يتصل

<sup>(١)</sup> كورني *Cornecille* ولد سنة ١٦٠٦ ومات ١٦٨٤ وهو أبو التراجيدي الفرنسي كما يقول رجال الأدب في فرنسا . وله عدد كبير من المسرحيات يصور فيها أخلاق عصره .

<sup>(٢)</sup> مولير *Molière* ولد سنة ١٦٢٢ مات ١٦٧٣ م

وهو شاعر مسرحي وممثل ومدير لمسرح في آن واحد . وقد تجول في ميدان المسرحيات منذ أبسطها حتى أسمائها . وقد خدم بمسرحياته لغة الأدب ولله عدد كبير من المسرحيات .

<sup>(٣)</sup> راسين *Racine* ولد سنة ١٦٣٩ مات ١٦٩٩

وقد قلد القدماء في مسرحياتهم وأساليبهم التي تدور حول تصوير العواطف والإحساسات . ولله عدد عظيم من المسرحيات .

بظروفهم الاجتماعية ، والثقافية ، والأخلاقية ، وحارلوا إبراز هذا كله في هنائهم وفي لغتهم ، وأساليبهم ؛ وكله — كان نجاح المؤلف المسرحي عظيمًا في هذه الأمور ، كانت مكانته في التأليف أكبر ، وشهرته أوسع .  
إذن فعلى ضوء هذا المبدأ البلاغي الذي يكاد يكون مبنياً على احساس فطري يمكن أن يفهم ما جاء في القرآن والحديث موافقاً لمجات القبائل العربية الأخرى غير قبيلة قريش .

ومن أمثلة ذلك في القرآن مانجده في قوله تعالى :

وأسروا النجوى الذين ظلموا .

ثم عموا وسموا كثيراً منهم .

واتبعوا ما تتلو الشياطين .

وفي الحديث :

يتناقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار .

وكل ذلك خاص بجمع الفعل مع تقدمه على الفاعل الجمجم .

ولعل من هذا القبيل أيضاً مانجده في القرآن من مخاطبة الواحد بلفظ الاثنين كقوله تعالى مخاطباً مالكا خازن النار : « أقيا في جهنم كل كفار عنيد » .

ومن ذلك أيضاً ما يلجم إلينه القرآن من . تأنيث بعض الأسماء . مرة . وتذكرها أخرى دون أن يتلزم طريقة واحدة في هذه الأسماء . ومنها :

وأعتقدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ، ثم يقول بعد ذلك ، إذا رأيتم من مكان بعيد . ، فرة ذكر السعير ومرة أنته .

، إذا السماء انشقت ، ، ، السماء شفطر به ، ،

فرة ذكر لفظ السماء ومرة أنته .

ومن هذا القبيل أيضاً ما نجدوه في القرآن من التزام المبني للألف في حالة النصب والرفع مثل ذلك قوله تعالى :

، إن هذان لسامران يريدان أن يخرباكم من أرضكم بسحرهما ، ،

ومن ذلك أيضاً ما ورد عن السيدة فاطمة رضي الله عنها أنها قالت :  
( يا حسنان يا حسنيان ) .

إن ما أوردناه من الأمثلة وما هو موجود في كثير غيرها يمكن بسهولة أن يعالـل بما ذكرنا ، ثم إنه فوق ذلك يلقـ ضـوءـاً قـويـاً أـمامـ البـاحـثـينـ بالـنـسـبةـ لـمـنـ يـدـرـسـ اللـلـةـ الـعـرـبـةـ وـتـهـاـورـهـ ،ـ وـالـنـحـوـ الـعـرـبـ وـنـشـائـهـ ،ـ إـذـ أـنـنـاـ اوـ اـسـتـرـضـنـاـ كـلـ ذـالـكـ مـعـ مـلـاـحظـةـ تـطـبـيقـ هـذـينـ الـمـبـدـأـينـ الـمـخـافـيـنـ :ـ البـسيـطـ يـسـقـيـ المـركـبـ ،ـ وـماـ يـدـرـكـهـ الـحـسـ يـسـقـيـ ماـ يـدـرـكـهـ الـعـقـلـ :ـ نـقـولـ لـوـ اـسـتـعـرـضـنـاـ هـذـاـ الـخـلـيـطـ مـنـ الشـواـهدـ الـعـرـبـةـ مـعـ مـلـاـحظـةـ هـذـينـ الـمـبـدـأـينـ لـحلـ أـمـاـنـاـ كـثـيرـ مـنـ الـمـشاـكـلـ الـتـىـ لـمـ يـتـبـهـ لـهـ نـحـةـ الـعـرـبـ ،ـ وـلـاـشـتـارـ طـرـيقـ وـضـعـ تـارـيخـ لـتـطـوـرـ قـوـاءـ الـنـحـوـ مـنـ وـجـهـ الـنـثـلـ الـفـنـيـةـ لـاـ الـعـلـيـةـ ؛ـ فـنـدرـكـ مـشـلاـ أـنـ التـزـامـ قـاعـدةـ الـإـعـرـابـ بـوـاسـطـةـ الـمـحـكـاتـ كـانـ أـسـبـقـ إـلـىـ الـانـضـباطـ مـنـهـ إـلـىـ الـإـعـرـابـ بـوـاسـطـةـ الـحـرـوفـ ؛ـ وـنـدرـكـ كـذـلـكـ أـنـ

الالفاظ الدالة على المحسوسات كانت أسبق في الوجود من الألفاظ الدالة على الأمور المعنوية؛ وأن الألفاظ المكونة من مقطع واحد – أى من حرف متحرك وآخر مسكن – أسبق من الألفاظ المكونة من مقطعين أو ثلاثة.

وهذا ما سار عليه الأب انسانتي ماري السكرملي في كتابه «نشوء اللغة العربية ونموها واكتهاها»، وما سنسر عليه عند الكلام على النحو العربي ونشأته.

إن ما أوردناه من أمثلة حتى الآن، وما حاولناه من تعليل لوجود هذه الشواهد في القرآن وفي الحديث، وفي كلام بعض الفرسين إنما هو من قبيل العرض، والوصف لما هو كائن؛ والتعليق ليقائه واستمراره حتى سادت لهجة قريش وعمت أساليبها؛ أما تعليل نشأته فإنما لم ت تعرض لذلك بالتفصيل. وينبغي ألا نختتم بحثنا في اللغة العربية، وألا ننتقل إلى البحث في النحو قبل أن نبين السبب في نشأة هذه الطرق المختلفة في التعبير التي كان من جرائها هذا التمايز في اللهجات، وذلك الاضطراب في الأساليب؛ إننا نرجح أن مصدر هذا الخلاف في تذكر بعض الأسماء وبتأنيتها على السواء، وفي إعرابها بمرة بالمحروف، ومرة بالحركات، وفي دلالتها طوراً على معنى، وطوراً آخر على معنى يخالف المعنى الأول؛ نقول إن مصدر كل هذا يمكن أن يرجع بصفة إجمالية إلى تعدد اللهجات؛ فبعضها

كان يستعمل ألفاظاً على أنها مؤنثة ، والبعض الآخر كان يستعملها على أنها مذكورة ؛ وبعدها كان يستعملها بمعنى ، والبعض الآخر كان يستعملها بمعنى آخر .

وليس من السهل أن يكون الأمر كما وصفنا إلينا كانت القبائل العربية منفصلة تماماً ؛ وكل قبيلة تخلق من الألفاظ وتكون من التراكيب ما يتلام مع بيتها ، وظروفيها الطبيعية والاجتماعية .

وها نحن أولاء لأنزال نجد صورة حية من ذلك بين قبائل البدو المختلفة الضاربة في صحراء مصر الشرقية ؛ فلقد جمعنا منذ ستين مجلس مع أحد البدو المقيمين في الصحراء قريباً من مدينة حلوان ؛ وسار بنا الحديث حتى تكلمنا عن لهجات القبائل البدوية المختلفة ، وبذلك يتبص علينا أوجهاً من الخلاف في الألفاظ وفي المعانى ، وإن هذه القبيلة مثلاً تعبّر عن نفس المعنى بلفظ كذا ، وتلك القبيلة تعبّر عن نفس المعنى بلفظ آخر ؛ ثم ذكر حادثة كان هو شاهد عيان فيها قال : اجتمع أحد البدو بشيخ قبيلة تقيم بناحية الفيوم ، وفي أثناء الحديث انتسب البدوي إلى قبيلة معروفة من القبائل الضاربة في الصحراء الشرقية ما بين مدیني حلوان والصف ؛ ولكن شيخ القبيلة قد لا حظوا عليه لسمة غريبة ولهمجة لا تتفق مع لهمة القبيلة التي انتسب إليها ؛ فقصدى له أحدهم ، ووجه إليه بضعة أسئلة يلجا إليها البدو عادة في مثل هذه الظروف لكي يميزوا أفراد قبيلة من أفراد قبيلة أخرى ؛ ذلك أن

ذكر له جملة أسماء لسميات ، ثم طلب منه أن يذكر أسماءها في القبيلة التي انتسب إليها : فراح ذلك البدوى يذكر أسماءها كما يعرف : ولم يمض طوبل حتى كشف أمره وعرف كذبه ، وتبينوا أنه أجنبي عن تلك القبيلة جاء من قبيلة أخرى متسللاً يريد بأنحد الأفراد شرآ .

هذه الحادثة هي بلا شك ، صورة لما كانت عليه لهجات القبائل العربية في العصور الجاهلية الأولى ، ولما كانت تمتاز به لهجة قبيلة عن لهجة قبيلة أخرى ؛ ولكن حينما بدأت هذه القبائل تتصل بعضها ، وأنخذت لهجاتها بحكم هذا الاتصال تقارب ، نشأ فيها تمقظ ، ما يشبه أن ينضون لغة عامة يشارك جميع القبائل في التفاهم بها وإن انفرد كل قبيلة بلهجتها الخاصة ؛ هذه المهمجة أو هذه اللغة كانت عملاً في لهجة قريش التي سادت شبه الجزيرة العربية بعكلاتها الدينية ، والاقتصادية ، والاجتماعية .

هذه اللهجة الموحدة لم تنضج ولم تنسع إلا على حساب لهجات الأخرى ، أي أنها أخذت من لهجات العربية ما تستحسن من الألفاظ والتركيب ، وطرق الأداء ؛ ثم مزجت ذلك كلها ، وأبرزته في صورة لغة موحدة :

وإذن فإننا نزعم أن أكثر ما في اللغة العربية على الأقل من مستردادات ، ومن طرق متنوعة لبيان معنى الواحد ، ومن أساليب إعرابية متعددة لنفس التركيب الواحد ، إن هو إلا أثر من آثار تلك اللهجات : العربية التي أخذته لهجة قريش .. وأضافته إلى ما كان فيها من

## اللفاظ وأساليب .

وإن نظرة إلى النص القرآني ، وما فيه من مفردات كانت تختفي بقبائل أخرى غير قبيلة قريش لترىنا إلى أي حد كانت تستمد اللفاظاً من اللهجات الأخرى ، وإلى أي حد كانت لغة القرآن صدى للهجات العرب جمعاً . وقد لفت هذه الظاهرة في نص القرآن نظر علماء الإسلام فكتب بعضهم في هذا وحاول أن يشير إلى ما في القرآن من لفاظ غير قرئية ، ثم عزا كل لفظ من هذه اللافاظ إلى القبيلة التي هو مأخوذ منها . <sup>(١)</sup>

---

" انظر كتاب اللغات في القرآن أخبر به إسماعيل بن عمرو المقرئ عن عبد الله بن الحسين بن حسنون المقرئ يأسناده إلى ابن عباس

تحقيق ونشر صلاح الدين المنجد

وقد ذكر صاحب هذا الكتاب مجموعة من اللافاظ الخاصة بالقبائل العربية ونسب كل لفظ إلى القبيلة التي تتعلق به ؛ ثم إنه قد ذكر اللافاظ الواردة في القرآن والخاصة بقبيلة قريش دون أن يشركها فيها غيرها .

واللافاظ المذكورة في هذا الكتاب تدل على مبلغ ما جاء في القرآن من لهجات القبائل المختلفة لا فرق بين شمال شبه الجزيرة العربية وجنوبها ولا بين شرقها وغربها وإنكم أسماء القبائل التي أخذ القرآن من لفاظها : قريش ، هذيل ، كنانة ، حمير ، جرم ، تميم ، قيس ، عيلان ، جشم ، أزد ، شنوء ، أهل عمان ، طيء ، مذحج ، مدين ، غان ، بني خنيفة ، حضرموت ، أشعر ، أنمار ، خزاعة ، بني عامر ، لثم ، =

كُنده ، سباء ، أهل البِيَامَه ، مزينة ، تغيف ، سدون ، سعد العشيرة ، العالقة ، عذره ، الأزد ، تغلب ، الأوسن ، هدان . . .  
ونجد في الصفحات الأولى من هذا الكتاب جدولًا يذكر اسم هذه القبائل ويشير إلى عدد الألفاظ التي أخذت من كل قبيلة :

عدد الألفاظ	اسم القبيلة
١٠٤	قرיש
٤٥	هذيل
٣٦	كنانة
٢٣	حنين
٢١	جسرهم
١٣	تميم ، قيس عيلان
٦	أهل عمان ، أزد شبوه ، خشم
٥	طيء ، مذحج ، مدین ، غان
٤	بنو حنيفة ، حضرموت ، أشعر
٣	أنمار
٢	خزاعة بنو غامر لخم كُنده سبأ ، أهل البِيَامَه ، مزينة ، تغيف ، العالقة ، سدون ، سعد العشيرة

ويؤيد هذا الفرض الذى افترضناه بالنسبة للغة العرب ما حدث بالنسبة للغة اليونانية، ولغة اللاتينيين، ثم لغة الفرنسيين من حيث وجود مفردات متعددة لمعنى واحد بعد أن توحدت لenguاتها في لغة واحدة، ومن حيث وجود التردد في التذكير والتأنيث لبعض الألفاظ ومن حيث وجود الطرق المختلفة للتعبير عن الفكرة الواحدة . ولدينا أمثلة عديدة لكل هذا في كل من هذه اللغات الثلاث ؛ ولو لا أن ذلك يغدو عن بُعدنا ، ويطيل ما جسأنا إليه بضطربي من استطراد لأتبنا على المكثير منها .

والآن بعد كلامنا على اللغة وما يتصل بها نوجده هنا إلى الكلام على النحو وما يتصل به .



# نشأة النحو العربي

لنا نبني من وراء هذا البحث أن تناول النحو العربي كما ظاهر عليه العداء أو كما نجده مدوناً في كتبهم ولذلك سذهب إلى الوراء بعيداً؛ وتناول النحو تناولاً لم يعهد حتى الآن؛ فنبين حقيقته؛ ونذكر موضعه من اللغة؛ وشرح الصلة بينها على شوئ نشأة كل منها وإذا فما لاشك فيه أن النحو العربي كغيره من سائر العلوم الأخرى؛ قد نشأ فناً قبل أن يكون علمًا؛ أي أن هذه الطرق الخاصة للأداء في اللغة العربية قد التزمت باطراد في تراكيبيها وأساليبها ومررت عليها ألسنة العرب وتمكنت من طبائعهم قبل أن توضع لها القراءات النحوية المجردة وضعًا علياً وتدرس دراسة مستقلة لتعرف وتحتذى.

وإذن فنحن أمام نحويين إن صحت هذا التعبير: نحو فني؛ ونحو على. أما النحو الفني فهو جزء من اللغة وعنصر أساسى من عناصر تكوينها كافة مهذبة راقية؛ وهو في نشأته في اللغة يكاد يكون فطرياً وإن كان الأساس في وجوده هو المجهود العقلي. فإن اللغة بعد أن تتجاوز مرحلة التفولة؛ ويدرأ العقل يتصرف فيها من حيث الاشتغال، والنحو؛ والتصريف، ثم من حيث التراكيب ووضع الضوابط المميزة بين هذه

الراكيب بالنسبة لـ«أداة» المعانٍ : يجد نفسها مضطورة بحكم معايرتها لظروف المجتمع إلى التزام بعض الضوابط لتمييز بعض الراكيب عن بعض ، ولمعرفة وظيفة كل لفظ بالنسبة لموقعه من الجملة . هذه الضوابط في حورتها الأولى هي عبارة عن التحوّل الفنى .

وهو كسائر الفنون يسبق النحو العلمي ؛ ففن المندسة أو المندسة العملية وجدت قبل أن يوجد علم المندسة ؛ وفن النحت وجد قبل أن توجد النظريات العلمية له وفن الموسيقى وجد قبل أن تنبأ نظرياتها العلمية .

ولا نزال نرى في التعليمات الدامية من الشعوب فنانين قبل أن يدرسوا هذه الفنون أو يتلقوا نظرياتها عن أستاذة أو في معاهد خاصة . فهناك الموسقيون وهم لا يعرفون شيئاً عن علم الموسيقى ، وهناك البناؤون وهم لا يعرفون شيئاً عن النظريات العلمية في العمارة . وهناك الزارعون وهم لا يدرسون شيئاً عن مسائل الزراعة ، بل وهناك الأطباء وهم لا يؤدون شيئاً عن علم التشريح . وهكذا لو استعرضنا تاريخ الشعوب وتاريخ حضارتهم لوجدنا أنهم كانوا في كل شيء فنانين قبل أن يكونوا علماء ، وأن مظاهر الفن قد سبقت نظريات العلم . وعلى هذا فإن اللغة كما ذكرنا منذ قليل حينما تدخل في دور النور في الألفاظ والتوسيع في التعبير يبدأ العقل الاجتماعي في وضع ضوابط يمكن بها تمييز المعانى بعضها عن بعض ، ويسهل بواسطتها فهم الإيميل العديدة المتفرعة ، والنحو الفنى وإن لم يصاحب اللغة من يوم نشأتها

إلا أنه يلزمها من يوم نموها ولا يتصل عنها مدامات هي في سبيل الحياة ومن هنا كان ذلك النحو واحداً في كل اللغات لا يختلف في لغة عنه في لغة أخرى إلا بقدر ما تختلف لغة عن لغة أخرى في الفاظها ودلالاتها وخصوصاً تراجمها.

ومن هنا أيضاً كانت نشأة ذلك النهر طبيعية في كل لغة قدر لها أن تكون لغة أدب وعلم وفن .

ولعل الفرا يسائلون الآن عن تاريخ ذلك النحو الفني ، وعن الحالة التي كان عليها في عهده الأول ، وعن الظاعرة الأولى التي بدرت لتكون بمثابة اللبنة في بناء تلك الضوابط النحوية العملية : ونحن نقرر أنه ليس من السهل أن نجحيب عن هذه الأسئلة ، إذ الفرق يعيده بجدأ بين تاريخ الفنون وتاريخ العلوم فالفن جزء من الماهية ، وهو إلى حد بعيد يعتبر صردي للإحساسات ; والإحساسات قديمة النشأة في الإنسان ، دقيقة التكوين فيه . أما العلم فهو تجريد أو وصف لما تمتاز به الماهية ، وهو إلى حد بعيد يعتبر صردي للعقل ؛ والعقل يجيء بعد مرحلة تكون الإحساس .

ومن هنا كان تاريخ الفن تاریخاً حقيقةً من المسائل الصعبة بل من المشكلات؛ أما تاريخ العلم فسهل ميسور متى عرفت ظروفه وجمعت وثائقه. وإن من يدعى تاريخ الفن بهذا الاعتبار الدقيق كمن يدعى معرفة أول بيت بنى على الأرض، وأول بيت نسبت فيها؛ وذلك وهم وخیال.

وإذن فكل محاولة لأنonyme النحو بمعناه الفنى تعتبر محاولة عابثة ؟ غير

نستطيع أن ننظر في تلك الضوابط النحوية التي تميز تراكيب اللغة ،  
لما يلي أن نستعرضها في بحثها لنقارن بين ظواهرها المختلفة في الكلام .  
اللفاظ تلزم حالة واحدة في النشاط مما نغير موضعها في الجملة كالمبنيات .  
اللفاظ تغير بتغيير التراكيب كالمعربات : ثم من هذه اللفاظ المغيرة  
تتغير بالحركات فقط كالرفع ، والنصب ، والجزم : والجر ، ومنها ما يكون :  
التغير فيها بواسطة الحروف كالألف ، والياء ، والنون .

وعلى بنزه ذلك النazar ، وهذه المقارنة نستطيع أن نقرر ولو على  
مل الأقراض أن بعض بهذه الظواهر كان أسبق من بعثتها الآخرين ،  
بعضها قد تناور بين حالات إلى أخرى بينما التزم البعض الآخر نفس  
لة التي عرف بها منه القدم .

كما أن حالة الإفراد في اللغة ، على ضوء ما تقدم من ملاحظات تبين حالة الجماعة ، فنستلبيع أن نقول ونخمن بطبعتنا أن حالة الإعراب بواسطة المركبات من رفع ونصب وجبر قد سبقت حالة الإعراب بالمحروف من ألف وواو وباء ونون ؛ وليس أدل على ذلك من الإبهاء على الإعراب . بذلك المركبات مع وجود هذه الحروف وذلك في بعض اللهجات كان يقال مثلـاً :

جاء الزيدان ، ورأيت الزيدان ، ومررت بالزيدان .  
رفع النون في الأول ، ونصبها في الثاني ، وجرها في الثالث ؛ وعلى هذه الملة ورد البيت الذي تقدمت الإشارة إليه منذ قليل :

يا أبا أرقى الشذان ، فالنوم لا تطعنه العينان .  
ومن ذلك أيضاً ما ذكره الإمام الشنقيطي عن الشيباني من ورود هذا المثال : هما خليـلـان ، بالتزامـأـلـفـالـثـيـنـيـةـ وـضـمـ النـونـ . (١) ومن هذا الباب أيضاً ما سمع من السيدة فاطمة رضي الله عنها - يا حسان  
ويا حسينان - ؛ وقد قيل إن ضم النون في هذه الأمثلة وما شابهـاـ لـنـةـ عن بعض الفبانـلـ .

ومن ذلك أيضاً ما ورد من الإعراب بالحركات في الجماعة وملحقاته مع

(١) - الدرر اللواتح على هم المقام للشنقيطي جـ ٦ صـ ٢٢ .

وجود المحرف وهي لهجة لبعض بنى نعيم وبني عامر ؛ إذ كانوا يلزمون  
الباء للجمع ويقولون على الإعراب بالحركات مثل بيت الشعر لجبرير ، الذي  
ذكرناه فيها ماضى من قصيدة يهجو بها الفرزدق :

أرى من السنين أخذن مني ॥ كا أخذ السرار من الملال <sup>(١)</sup>  
ومثل هذا البيت وهو فيها يظهر لشاعر من خزاعه أو من جزءهم كما  
تقدمت الإشارة إلى ذلك .

لم نتى الجميع سلي معدا ॥ سينينا ما تعد لنا حسابا <sup>(٢)</sup>  
ومثل هذا البيت أيضاً :

رب حى عرنوس ذى طلال ॥ لا يزالون ضاربين القباب <sup>(٣)</sup>  
وييمكن الاستدلال على صحة هذه النظرية ( الإعراب بالحركات ) وجد  
قبل أن يوجد الإعراب بالحروف ) بما يأتي :

أولاً : - البسيط يسبق المركب ، والإعراب بالحركات بمنابة البسيط  
والإعراب بالحروف بمنابة المركب .

ثانياً : - الإعراب بالحروف وجد في الأفاظ لا يمكن أن تكون قد وجدت واللهفة في  
حالها الأولى ، فالمثنى والجمع وجدتاً حتماً بعد الألفاظ المفردة ، ووجودهما  
يدل على تطور في اللهفة ، ويقىع ذلك أن علامات إعرابها قد وجدت بعد  
علامات إعراب المفردات .

ثالثاً : - ما جاء في بعض اللهجات من شواهد وأمثلة فيها علامات

(١) انظر شرح همزة الهوامع ج ٢ ص ٣٠

(٢) المقدر السابق : عزنوس = ثيد ، طلال = الحالة الحسنة ، ضاربين خـ  
ضاربي القباب بـ

الإعراب بالحركات مع وجود الحروف ، وقد تقدمت طائفه كبيرة من تلك الشوائد ، ويمكن العثور على مئات منها مبعثراً في كتب اللغة والنحو ..

رأيماً : - النسبة فيها نجده في اللغة عربياً بالحروف بجانب ما هو مبوب بالحركات ، فلاغد جمع النهاة ما هو مدرب بالحروف فيها يأتي : -

الأفعال المخولة : يفعلون ، وتفعلون ، ويفعلان ، وتفعلان ، وتفعلين.

والأسهام الستة : أبوك ، وأخوك ، وحموك ، وغريك ، وهنوك ، وذر مال .

ثم الثاني ؛ والجمع للذكر السالم ، وما ألمع بها .

وبهذه الأنواع الأربع يمكن أن ترجع إلى نوعين اثنين هما المثنى والجمع .

أما الأفعال الفعلية فيمكن أن تلحق بالمثنى والجمع إذ أنها صور منها . و كذلك الأسماء الستة فهي إما أن تكون حروفها امتداداً لحركات الإعراب الحقيقة الموجدة على الحروف السابقة ؛ وإما أن تكون مضافة ، أي مركبة ؛ فتلحق بالمثنى أو بالجمع من حيث إضافة شيء جديد إلى الاسم في حالة الأولى ، وهي إذا قطعت عن الإضافة رجعت إلى الإعراب بالحركات كالمثنى والجمع إذا رجع كل منها إلى حالة الأفراد ..

وعلى هذا فلنلة تبدو واضحة ؛ إذ إننا لا نجد ما يعرب بالحروف على هذا الاعتبار سوى المثنى والجمع وما بيق فهو ملحق بها ، ولنا في صناعة النهاة وفي احتلالها تأييد لما ذهبنا إليه ، فقد قالوا إن هذه الحروف في تلك الأنواع التي تعرب بها ليست إلا نيابة عن حركات الإعراب .. بهذنه

وهناك ملاحظة أخرى تتصدى بهذه المعرفة التي نابـت عن المزكـات في الإعراب؛ ذلك أنـنا نرجع أنـ الإعراب بهذه المعرفـة من واو وـونـ .  
ومن يـاد وـونـ؛ وـمن أـنـقـ، وـثـونـ، لـمـ يـوجـ. كذلك حـنة وـاءـةـ ، ولـمـ تـأثـمـ  
طرق الأداءـ بهـ منـ أولـ الـأـمـرـ بهذهـ الصـورـةـ التيـ نـرـأـهـ الآـنـ؛ وـإـنـاـ وـجـدـ  
الـحـيـفـ الـأـوـلـ وـهـوـ الـأـنـقـ أوـ الـوـاوـ أوـ الـبـاءـ ، وـسـارـتـ الـلـغـةـ عـلـىـ ذـلـكـ  
وـدـةـ مـنـ الـزـمـنـ؛ ثـمـ التـرـمـتـ النـوـنـ بـعـدـ ذـلـكـ .

ولـنـاـ عـلـىـ هـذـاـ ماـ نـهـدـهـ مـثـلاـ فـيـ الـلـغـةـ الـلـاتـينـيـةـ ، قـبـيلـ أـنـ تـسـتـفـيـ فـيـهاـ  
عـلـامـاتـ الـإـعـرـابـ وـنـائـمـ طـرـيقـةـ خـاصـةـ؛ فـهـذـاـ كـانـتـ بـعـضـ الـعـلـامـاتـ الـإـعـرـابـيـةـ الـمـكـوـنةـ  
مـنـ حـرـفـيـنـ فـأـكـثـرـ غـيـرـ مـسـتـفـرـةـ عـلـىـ نـظـامـ ، وـغـيـرـ كـامـلـ الـدـدـ بـالـنـسـبةـ لـلـحـرـوفـ  
الـتـيـ نـرـأـهـ مـكـوـنةـ لـعـلـامـاتـ الـإـعـرـابـ بـعـدـ أـنـ شـفـلـ الـلـغـةـ نـظـامـ وـاسـمـدـ مـنـ  
الـإـعـرـابـ . وـيـسـكـادـ يـكـوـنـ هـذـاـ طـبـيعـيـاـ فـيـ تـطـوـرـ الـلـغـةـ ، فـالـسـكـالـ بـسـيـوقـ  
بـنـهـصـانـ . وـسـتـعـرـضـ بـعـدـ قـلـيلـ لـكـثـيرـ مـنـ الـأـمـثـلـةـ فـيـ الـلـغـةـ الـلـاتـينـيـةـ يـتـضـعـ مـنـهـاـ  
حـالـةـ تـلـكـ الـعـلـامـاتـ الـإـعـرـابـيـةـ قـبـيلـ أـنـ تـأـخـذـ وـجـعـهـاـ النـافـيـ .

وـعـماـ يـمـكـنـ الـاسـتـدـلـالـ بـهـ عـلـىـ هـذـاـ فـيـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ هـوـ مـاـ نـرـاءـ. فـيـ بـعـضـ  
الـأـمـيـاتـ مـنـ أـمـثـلـةـ وـشـواـهـدـ . وـمـاـ تـحـاـولـ النـحـاةـ أـنـ يـوـجـدـواـ لـهـاـ تـخـرـيجـاـ أوـ  
قـلـيلاـ كـدـأـبـمـ فـكـلـ مـاـ يـتـنـافـيـ معـ قـوـاعـدـهـ أـوـ يـشـذـ عـنـهـاـ .

وـعـذـهـ بـعـضـ الـأـمـثـلـةـ كـمـاـ نـرـأـهـ فـيـ كـتـبـ الـنـحـوـ وـالـلـغـةـ :-

هـاـ خـطـنـاـ لـمـاـ إـسـارـ وـمـنـ . وـلـمـ دـمـ . وـالـقـتـلـ بـالـحـرـ أـجـدرـ

وقد ورد بهذا البيت ضمن أبيات في جاسة أبي عام ، وقد استشهد به النحاة على أن الزون في «خطيان» وقد حذفت للإضافة المفبرة ، وراحوا يتناولون هذا المضاف المذوق . ورأى فريق منهم أن المضاف إليه هو إسار وقد فصل بين المضاف والمضاف إليه بـ إما .

وأنا ابن جنی فانه يرى رفع «إساد» ويستجوده .<sup>(١)</sup>

ويعنى هذا أنه يفسر حذف النون من المثنى مع عدم الإضافة إلى كلة «إسار»، وأصرح من هذا ما ذكره البغدادي من أن هذا الشاهد وأمثاله قد جاء بلغة من يحذف نون التثنية من القبائل دون أن يكون هناك ما يستدعي حذفها كالإضافة.

.. وقد ذكر من ذلك أمثلة شعرية وأخرى ثقافية تؤيد وجود هذه اللغة عند العرب . ومن ذلك أيضاً هذا المثل :

خليلي ما إن أنتا الصادقا هوي . إذا نفتها فيه عذولا ورواشيا  
وقد علل النحاة حذف النون من « الصادقان » للاقتصار ، ولم يشيروا  
ـ مطلقاً إلى احتمال أن تكون هذه هي الحالة الأولى لطريقة الأداء في التعبير  
ـ بالمعنى أو الجمجم ، وذلك بالرغم من تعليمهم أحياناً ما يرون أنه من شذوذ على  
ـ القواعد النحوية بأنه قد جاء على لغة قبيلة كذا ، أو بلهجة قبيلة كذا

<sup>(١)</sup> شرح: هم التوام. ج. ١ ص. ٢٢

وكانهم بهذا يفهمون أن اللغة وجدت كاملاً ناضجة لم تتعثر في طريق تكوينها، وأن النحو وطرق الأداء كما يتصورونها قد نشأت تامة شاملة، وفي دفعة واحدة. وظاهر جدأً أن عدم توسيع النهضة في المسألة، أو عدم توجههم إلى تلك المراحل الطويلة التي مرت بها اللغة والنحو، وهذا في طريق التكوير، وقد جعل لهم ينتقدون في التحديات، ويتعذرون في التفسيريج: يعني ولو كان ذلك على حساب المعنى في البخل والزراكيبيه. بل إنهم قد ين慨ضون عن المدى أحياناً؛ ويتجذرون إلى تأويلات فية تضره أو تفسده.

ولهم في ذلك مواقف عدّة يظهر منها تمسّكهم الشديد بمحرفة القواعد التي وضعوها أو تلقوها؛ من هذه المواقف ما نجده في بعض الشواهد الأدبية وطريقة تحكمهم في فهمها، وفي بعض الآيات القرآنية ومحاولتهم فرض قواعد مطلقاً على قراءتها، وتخوّلها القراء إن هم أخلوا بتلك القواعد. على أنه ينبغي أن نخاطط في هذا الحكم بالنسبة للنحو فلا نتهمهم: جميعاً بهذا الجمود في التفكير، والصلابة في تطبيق القواعد، إذ أن منهم وهم أوائل النحاة، وعلى رأسهم الخليل بن أحمد وسيبوه والفراء من كانت درايته باللغة واسعة، وذوقه في إدراكها سليم . . .

وكتاب سيبوه يشتمل على أمثلة عدّة تبين إلى أي حد كان مؤلفه يتحمّل إلى اللغة لا إلى القواعد النحوية، وينفذ إلى طبيعتها وطبيعة الناطقين بها وظروف المعانى التي قصد بها التعبير عنها، دون أن يتفتّت شكلها الظاهري

وَمَلَاحِقُ المَنْطَقَيْةِ ، الَّتِي كَثِيرًا مَا تَتَنَافَى بِعِمَّ طَبِيعَةِ نَشَائِهِ وَتَنَوُّرَهَا .. مِنْ ذَلِكَ مَا نَجِدُهُ لَهُ عِنْدَمَا يَجْسَابُ التَّحْوُرَ وَضَوَابِطَهُ وَيَتَكَلَّمُ عَنِ الْلُّغَةِ مِنْ حِيثِ أَدَاءِهَا الْمَعْنَى ، فَيَنَاقِشُ الْمُخَاهَةَ مُنَاقِشَةَ الْمُدَرِّكِ لَا مُسَارِهَا الْبَلَاغِيَّةُ : وَلِفَتْضِيَاتِ ظَرْوَفَهَا وَأَحْرَوَالِ النَّاطِقِ بِهَا .

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا مَا زَرَاهُ عِنْدَمَا يَنَاقِشُ مَسَأَلَةَ نَصِيبِ بَعْضِ الْأَسَاءَدِ دُونَ أَنْ يَكُونَ فِي الْكَلَامِ فَعْلٌ خَلَاءً يَعْمَلُ فِيهِ ، فَإِنَّهُ يَفْهَمُ النَّصِيبَ عَلَى أَنَّهُ مِنْ طَبِيعَةِ الْأَسَاءَدِ الْعَرَبِيِّ ، لَا عَلَى أَنَّ الضَّرَابِطَ التَّحْوُرِيَّةَ هِيَ الَّتِي أَدَتَتِ إِلَى هَذَا .

يَقُولُ سِيِّبوِيه<sup>(۱)</sup> فِي هَذَا : ((وَحَذَفُوا الْفَعْلَ الْمُكْتَبَرَةَ اسْتَهْمَمُ إِيَاهُ فِي الْكَلَامِ ؛ وَلَعِمَ الْمُخَاطِبُ أَنَّهُ حَمَّلَ عَلَى أَمْرٍ ؛ وَنَثَرَ ذَلِكَ قَوْلَكَ : أَنَّهُ يَأْفَلَانَ أَمْرًا قَاصِدًا ، إِنَّمَا أَرْدَتَ اَنْتَهُ وَآتَيْتَ أَمْرًا قَاصِدًا ، إِلَّا أَنَّ هَذَا يَجْوِزُ لَكَ فِيهِ إِظْهَارُ الْفَعْلِ ، وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُ الْقَطَانِيِّ :

فَسَكَرْتُ تَبْتَغِيهِ فَوَاقَتْهُ ءَ عَلَى دَمِهِ وَمَصْرِعِهِ السَّبَاعَا  
وَمِثْلُهُ قَوْلُ ابْنِ الرَّقِيَّاتِ :

لَنْ تَرَاهَا وَلَوْ تَأْمَلْتَ إِلَّا ءَ وَطَأَ فِي مَفَارِقِ الرَّأْسِ طِيَا  
وَإِنَّمَا نَصِيبُ هَذَا لِأَنَّهُ حِينَ قَالَ وَاقْفَتْهُ وَقَالَ لَنْ تَرَاهَا فَقَدْ عَلِمَ أَنَّ  
الْطَّيْبَ وَالسَّبَاعَ قَدْ دَخَلَا فِي الرُّؤْيَةِ وَالْمَوْافِقَةِ وَأَنَّهُمَا قَدْ اشْتَمَلَا عَلَى مَا بَعْدَهُمَا

<sup>(۱)</sup> - سِيِّبوِيه - الْكِتَابُ ج ۱ ص ۱۴۲

فِي الْمَعْنَى ، وَمُثْلِذُكَ قَوْلُ "ابْنُ قَدْبَشَةَ" :

تذكّرت أرضاً بها أهلاً = آخر الما فيهما وأعماّمها

لأن الآخوال والأعدام قد دخلوا في التذكرة . ومن ثم ذلك فيما ذُيِّعَ

الخليج :

إذا تفتق المقام الورق هيفعنيه ولو أتفربت بعدها أم عمار

قال الجليل : لما قال هيجنی عرف أنه قد كان ثم ذكر لذكرة الحمام  
وتهجمه فألقى ذلك الذى قد عرف منه على أم عمار كأنه قال : هيجنی ذكرني  
أم عمار )) . إن طريقة هذين العالمين الجليلين في تعليل هذه الشواهد ،  
ومناقبها وفمها تدل على مبلغ تحررها من القواعد الجسمانية ، التي أفسا  
وجودها عند من جاء بعد ذلك من النحاة وترينا من ناحية أخرى أن أم  
العوامل في علامات الإعراب المختلفة إنما هو المعنى الذى يريد العربى إن  
يعبر عنه . وبجانب سيبويه وأستاذة الجليل نجد الفراء يسلك نفس السبيل  
في فهم الأسلوب العربى ؛ سواء ما كان منها في الأدب أم في القرآن .

.. وفواضله في ذلك عديدة ومشرورة في كتابه - معانى القرآن - الذى لا يزال مخطوطاً حتى الآن . وإن من يطلع على هذا المخطوط يستطيع أن يلاحظ بوجه عام أن الفراء في تحليله للأساليب ، .. وفي تعليله للضوابط الإعرابية يرکن إلى طبيعة العربي ، وحسه في استعمال اللغة ثم إلى حسه هو في فهمها .. فهو تعليل ينلام مع أولى المراحل العلمية في اللغة يوم كانت قرية جداً من النقاء ولادخل

للسنن المذكورة فيها . ومن أمثلة ذلك تعليله لفرق في المعنى بين إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله ، وتنصبه له ، فهو يقول إن الإضافة تفيد معنى المضى في المحدث ، والتنسب يفيد معنى الموابي . وذلك عند شرحه لقوله تعالى : د هل هن كاشفات ضروره ،<sup>(١)</sup>

ولقد تنبه إلى هذا الأسلوب أيضاً بعض من تبعى لدراسة اللغة وآثارها من غير النحاة : ليلاس ، وسمفون ، وماركة لهم كتبها وأثارها على المبرد الذي لم يكن شديد الثقة بالنحاة ، ولم يكتبه بتحرر من تحيطهم ، والتصريح بعدم مقدرتهم على فهم بعض أسرار الرأكية . إذ أنهم كانوا شبيهـي المخرجـين على ظاهر التركيب ، وحرفيـة القواعـد .

من ذلك قوله : من الآيات التي ربـا يغـلطـ في بـهـازـها التـخـريـون قول الله تعالى : فـنـ شـهـدـ ذـكـمـ الشـهـرـ فـلـيـصـمـهـ ، وـالـشـهـرـ لـاـيـغـيـبـ عـنـهـ . وـبـهـانـ الآـيـةـ : فـنـ كـانـ ذـكـمـ شـاهـدـاـ بـالـدـةـ فـيـ الشـهـرـ فـلـيـصـمـهـ ، وـالـقـذـيرـ : فـنـ كـانـ شـاهـدـاـ فـيـ شـهـرـ رـمـضـانـ فـلـيـصـمـهـ ، وـلـيـصـبـ الشـهـرـ لـاـظـرـفـ لـاـتـجـبـ المـفـعـولـ .<sup>(٢)</sup> . وبـنـافـ إلى ذلك أـيـضاـ ما نـوـاهـ مـنـ وـقـفـ الـأـلوـسـيـ فـيـ تـفـسـيـرـهـ .<sup>(٣)</sup>

وفي المغرب المطريـ ، أن النـحـاةـ زـعـمـواـ أـنـ الـعـربـ أـمـاتـ مـاضـيـ (ـيدـعـ)

(١) - انظر ص ١٦ من المخطوط سطر ١٢

(٢) فـقـهـ اللـهـ لـلـتـعـالـيـ جـ٢ = ٥٤٦ طـبـعةـ مـصـطـفىـ مـحـمـدـ ١٩٣٣

(٣) ١٥٦ / ٣٠ / رـوـحـ الـمعـانـيـ حـزـوـنـهـ صـ ١٤٤

والنبي صلى الله عليه وسلم أفصحهم وقد قال عليه الصلاة والسلام ، لينتهي  
أقوام عن وذعهم الجعاب ، . وقرأ صلی الله علیه وسلم ما ودعك ،  
بالخفيف .

وقال أبو الأسود الدؤلي :

لبت شعرى من خليلي ما الذئ ، غاله في الحب حتى ودعا  
روح دليل ، على امتعال ودع بمعنى نراها .

وفي الحديث ، اتركوا الترك ما تركوكم ودعوا الجبطة ما ودعكم ،<sup>(١)</sup>  
ولعل أوضح ما يستشهد به على ذلك هو تأويلاتهم الغريبة في بابي  
الاشتغال والتنازع ، فإنهم هذا كثيراً ، ما يضربون صفحاتاً عن سر التراكيب  
اللغوية لكن يقوموا بقواعد عدم التي ومحضوها ، ويتشروا مع مبادئهم التي  
افتضحتها ، من وجوب وجود العامل لشكل معنوي يبدو ظاهراً في الكلام  
وامتناع أن يعمل العامل الظاهر في ذلك المعنوي بحججة أنه شغل عنه بالعمل

<sup>(١)</sup> ثم يمضي الاستاذ حوده في سرد شواهد أخرى وأدلة أخرى على مغالاة  
النحو وتقديسهم لقواعدهم مع عدم بصرهم بالحقيقة كما يجب مع ١٤٤ - ١٤٩ :  
وقد يجدون في كثير من المواقف أن المؤلف متحامل على النحو ولكن تحامله  
لا يثبت إلا أن يكون تعبيراً عن الواقع حينما نرى آراء النحو بالنسبة لقراءات  
القرآن وتخطيتم للقراء كل ما لمسوا فيه مجازاً لقواعد النحو التي هي من صنيعهم  
دون أن ينظروا إلى كل اللهجات العربية نظرة دقيقة شاملة .

في.. الضمير ، وكان.. المسألة.. في نظرهم عملية حسابية ، أو نظرية قياسية منطقية ، دون أن يكون المعنى الذي في نفس المتكلم أثر في التعبير . وكتب النحو في عذين البابين تذكر أمثلة عددة عن هذه التأويلات : منها ما هو مأخوذ من الشواهد الأدبية : وبعها ما هو مأخوذ من التصوّر الديني ؛ وليس لنا أن نتناول جميع ماذكره من شواهد لمناقشتهم فيما ونبين وجهة نظرنا بالنسبة لآرائهم ، وأسكننا ذكرنا بأية.. قرآنية واحدة أسمعن حز .. فيها وجة نظرهم .. ثم نشرح وجهة نظرنا لكي يتبين للقراء مدى تصور النحاة لأساليب اللغة .. ومبلغ تمسكهم بحرفية مقاييسهم ولو كان ذلك على حساب المعنى وبلاهة التركيب .. هذه الآية هي قوله تعالى .. و بالنعam خلقنا لكم فيها دفء و منافع .. ورأى النحاة فيها واضح معروف .. فهم يقررون أن الانعام مفعول لفعل مخوف يفسره المذكور .. وهو خلق .. ولا يصح أن يعمل هذا الفعل المذكور في الانعام لأن .. شيئاً بالعمل في ضمير الانعام .. وإنـ فلابد من تقدير عامل آخر لكي يبرر العمل في لفظ الانعام .. وهذا العامل في تقديرهم هو من لفظ .. خلق .. المذكور ..

هذه هي وجهة نظرهم ، ونحن لو سايرناهم في هذا لكان تركيب الآية .. هو .. وخلق الانعام خلقها لكم ... ، ونحن نترك الركة اللغوية .. مؤقتاً .. ولا نعرض بها عليهم لأنهم يستتابعون الدفاع عنها بأن .. الفعل واجب الاستثار فلا يمكن أن ينطهر ، وبالتالي لا تتميز الركة اللغوية ونحاول أن نناقش الآية من ناحية المعنى بالنسبة لتقديرهم : إن الآية في اعتبارهم تؤدي إلى تأكيد الخلق فيكون اهتمامها الأول موجهاً إلى هذه العملية .. وهي خلق الانعام .. بينما الانعام نفسها وهي نتيجة عملية الخلق تصبح .. في المدرجة ..

الثانية من الدعاء والاهتمام . ونخون لا نظن أن القرآن في هذا التركيب قد  
قصد إلى ذلك ، ونستبعد أن يكون اهتمامه دوبيها إلى الخلق لا إلى الانعام .  
ثم كيف يمكن أن يفهم التأكيد لعملية الخلق والمنظ لم يذكر صراحة :  
في صدر التركيب ؟ وكيف يمكن أن يفهم ذلك أيضاً والأية كلاماً تذكره  
وتلعن في التأكيد بالنسبة للأنعام ؟ وهذا التأكيد يبدو راضحاً في تصدريها  
وفي عود ضيائير أربعة عليها : الأول في « خلقها » ، والثاني في « فيها » ،  
والثالث في « منها » ، والرابع في « ولهم فيها جمال » ، وفي شبح الآية  
بعضفات من نواصها : « دفعه ومنافع ومنها تأكلون ولهم فيها جمال حين  
ترىحون وحين تسرعون » . وتحمل آنفالكم إلى بلد لم تكونوا بال فيه إلا  
بشق الأنفس .

من كل ذلك يظهر جلياً أن الآية شديدة الاهتمام بالأنعام لا بعملية خلق  
الخلق فيها : ولكن النعمة ... إنهم الله ... قد سبحانه المنى وبالآية التركيبة  
وتهكموا بعرفية قواعدهم ، وبتطبيق مقاييسهم فهم نائم يلاتهم كما نرى  
في هذه الآية .

وعلى ضوء هذا نقدر أننا لا نمّانع ولا نجد غضاضة في أن يكون لفظ  
الأنعام مفعولاً متديماً للفظ خلق المذكور ، وأن تقديمه على الفول قد جاء  
لغير من يلغي كما يتقدم ، ولا يجد غبناً أيضاً في أن يكون الضمير  
المتصل بخلق ، والذى أوجد الإشكال في نظر النعمة فمعنىهم منشأ نصيحة

الإِنْعَامُ بِلِفْظِ خَاتِي الْمُشْغُولُ بِالضَّمِيرِ ، ثُمَّ تَوَلُّ إِنَّا لَا نَجِدُ غَذَاةً أَيْضًا فِي أَنْ يَكُونَ هَذَا الْعَضْبُ تَأكِيدًا لِلْفَظِ الإِنْعَامِ ؛ إِذَ الْمَأْلَةُ لَا تَخْرُجُ هَذَا عَرْبَةً بِعِصْنِ التَّعْبِيرَاتِ الْعَرَبِيَّةِ مَثَلُ : بِعَا ، ذَرِيدَ حَوْ . وَهَذَا التَّرْكِيبُ نَظَارَ فِي الْلِّفَاظَاتِ الْأَسْنَرِيَّةِ كَالْلَّاتِينِيَّةِ وَالْفَرَنْسِيَّةِ ؛ فِي الْلَّاتِينِيَّةِ نَجِدُ الضَّمِيرَيْنَ : *Ipsa* - *Idem* يَذَكُرُانِ فِي الْجَمِيلَةِ أَوْ يَذَكُرُ أَحْدَاهُمَا ، وَيَقْتَدِدُ مِنْهُمَا التَّأكِيدُ إِنْ كَانَ المَؤْكَدُ مَذَكُورًا فِي السَّكَلَمِ ، وَيَتَبَعَّهُ فِي حَالَةِ الْأَعْرَابِ ، وَالْعَوْنَى فِي السَّكَلِ وَاسْعَدُ ؛ وَيَحْلَانُ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَذَكُورًا فِي السَّكَلَمِ .  
وَنَمُوذِّعُ بَعْدَ هَذَا إِلَى مَا نَحْنُ بِصَدِّهِ فَنَقُولُ : إِنَّهُ مَا يَكُنْ الْأَسْتَهْدَادُ بِهِ أَيْضًا  
عَلَى حَذْفِ النُّونِ مِنَ الْمَنْتَهِيِّ وَالْإِبْقَادِ عَلَى الْأَلْفِ فَفَقْطُ قَوْلُ الْأَخْطَلِ عَنْ  
قَصِيدَةِ يَفْتَحُرُ فِيهَا بِتَوْرَهِ وَيَهْجُرُ جَرِيرًا .<sup>(٢)</sup>

أَبْنِي كَلِيبَ إِنْ عَمِيَ اللَّذَا ءَ تَلَّا الْمَلُوكُ وَفَسَكَكَ الْأَغْلَالُ  
وَقَدْ حَذَفَ النُّونُ مِنْ « اللَّذَانِ » ، وَأَبْقَى عَلَى الْأَلْفِ فَفَقْطُ . . .  
وَقَوْلُهُ أَيْضًا :

هَا اللَّـا لَوْ وَلَدَتْ تَمِيمٌ ءَ لَقِيلَ فَنَـسَرَ لَهُمْ صَمِيمٌ  
فَقَدْ حَذَفَ النُّونُ كَذَلِكَ مِنْ « اللَّـانِ » وَأَقْصَرَ عَلَى الْأَلْفِ .

١ - شَرْحُ هَنْعَمَ الْمَوْأَمَعِ جَ ١ ص ٢٣ . يَقْصُدُ الْأَخْطَلُ بِعِصْبِهِ عَمِرًا وَمَرَةً أَبْنِي كَلِيلُومَ ؛ فَإِنْ عَمِرَ عَمِرَ وَبْنَ هَنْدَ مَلِكَ الْغَربِ وَمَرَةً قَتْلَ الْمَنْذُورِ بْنَ النَّهَانِ لِبْنِ الْمَنْذُورِ . . . . .

وَهَا هِيَ ذَى أَيْضًا بَعْضُ الْأَمْثَلَةِ لِلْجَمْعِ الَّذِي حُذِفَ مِنْهُ النُّونُ وَالْكَتْبَةُ  
بِالْحُرْفِ الْأَبْيَنِ هُنَّا : ..وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْحُرْفُ وَارِدًا أَمْ يَاءً :  
ثَتَالُ الْوَيْانُ مَا دَحْتَرَهُ كَبِيرُ بْنُ امْرَى . التَّبَسُّ الْمُزَرَّبِيُّ ، وَهُوَ جَدُّ  
عَدِ اللَّهِ بْنِ رِوَايَةٍ . وَقَدْ مَاتَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ :

وَالْمَاهِنُوا عُورَةُ الْمُشِيرَةِ لَا . « يَا تِهْمَ من وَرَانَا وَسَكَفَ »  
فقد روى بشتغ عوردة على أنها مقول لاسم الفاعل قبلما ، ومحذفت  
النون من « المهاهنةون » ، وهذا البيت وإن كان قد روى بكسر « عورة » ،  
أحياناً لتجويز حذف النون للإضافة . إلا أنه يسكنينا للدلالة على ما  
نحن بصدده أن يكون قد روى أيضاً بنصب « عورة » دون أن  
تخطاً هذه الرواية .

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا :

ومن ذلك أيضاً حذف النون في الاسم الموصول للجمع في بيت للأشہب  
بن رمیله<sup>(2)</sup>:

لأن الذي حانته بغلق دمائهم . . . . ثم القوم كلّ القوم يا أم خالدة . .

(١)- الوكيل: العيب والاشم.

<sup>(٢)</sup> هم الہام للسوطی ص ٤٩ - شرح هم الہام للشنتیطی ج ١ = ٤٤

"المصدر الابق ج ١ ص ٢٤ الفلج = اسم موضع

في وربما فربدا يندو ثالث سارق هنا أيضاً فـنا أطلانا في ذهستان الامنة  
والشواهد . وفي تحليها والتعليق عليها . واستبكتنا قصتنا إلى ذلك قصداً لـنـى  
حضررة واحدة عن ظهر الإعراب بالحروف عند العرب . وبمبلغ ما كان  
هـنـاكـ من اشتراـبـ فيـ هـذـهـ المـظـهـرـ ، ولـكـ ثـبـتـ منـ وـرـاءـ ذـلـكـ مـاـذـعـنـاـ  
إـلـيـهـ مـنـ مـلـاحـظـاتـ .

. وـنـقـلـ أـنـ نـرـكـ هـذـاـ المـيدـانـ نـجـبـ كـذـلـكـ أـنـ نـرـضـ مـوقـفـ النـحـاةـ مـنـ  
هـذـهـ الشـواـهـدـ رـأـيـاـهـاـ حـتـىـ تـبـيـنـ روـحـهمـ فـقـمـ الـأـسـالـيـبـ الـعـرـبـيـةـ الـقـدـيمـةـ  
وـكـيـفـ كـانـهـ خـاصـعـينـ أـفـوـاغـدـهـمـ بـالـتـبـيـنـ لـهـلـكـ الشـواـهـدـ .

وـإـلـيـكـ مـثـلاـ مـنـ أـمـثلـةـ تـعـالـيـاتـ النـحـاةـ يـوـضـعـ مـوـقـنـاـ مـنـهـمـ ، وـزـيـدـنـاـ ثـقـةـ مـنـ  
أـنـهـ لـمـ يـنـلـيـرـيـاـ إـلـىـ اللـنـةـ الـعـرـبـيـةـ مـكـانـ جـيـ يـنـشـأـ صـغـيرـاـ شـيـرـ وـاضـحـ  
الـعـيـالـمـ ، وـلـاـ يـنـقـصـ الـأـعـضـاءـ ، ثـمـ يـنـمـوـ وـقـيـانـ أـجـزـائـهـ ، وـأـخـيـرـاـ يـكـبرـ  
مـعـ الزـمـنـ : وـيـصـلـ إـلـىـ دـرـجـةـ الـكـالـ :

لـاحـظـ النـحـاةـ أـنـ الـبـهـرـيـنـ وـالـكـوـفـيـنـ مـتـفـقـونـ عـلـىـ بـوـازـ حـذـفـ الـنـونـ  
مـنـ الـأـسـمـاءـ الـمـوـصـولـةـ ، سـوـاءـ أـكـانـ ذـلـكـ فـيـ حـالـةـ التـبـيـنـ أـمـ فـيـ حـالـةـ الـجـمـعـ ،  
وـقـدـ اـخـيـلـفـوـاـ يـعـدـ ذـلـكـ فـيـ تـبـيـلـ هـذـاـ حـذـفـ فـدـهـ الـبـهـرـيـوـنـ إـلـىـ أـنـهـاـ  
تـحـذـفـ لـاسـتـمـالـةـ الـأـسـمـاءـ الـمـوـصـولـةـ بـالـصـلـةـ بـعـيـدـهـاـ . وـيـرأـيـ الـكـوـفـيـوـنـ أـنـهـاـ  
تـحـذـفـ مـطـلـقاـ سـوـاءـ أـطـالـتـ الصـلـةـ أـمـ قـصـرـتـ ، إـذـ أـنـ حـذـفـهـمـ بـنـيـانـهـ عنـ

لغة فيها ، وهذا صحيح . فإن بني المسارث بن كعب وبعض بني ربيعة كانوا يمحفون النون من الأسماء الموصولة في حالى الثنوية والجمع (١) . وحينما جاء هذا على ابن بعض الشعراء في غير الأسماء الموصولة من الأمثلة التي تقدم ذكرها حاول التحجة أن يعلوا هذا الحذف الذى خرج عن قواعدهم النحوية : فقالوا إن النون قد حذفت في الأمثلة المتقدمة تشبيهاً لها بالآمثلة الموصولة . إذ أنها صفات وصلت « بـالـ » الموصولة . ومن قال بذلك صراحة ابن جنى (٢) . ولكن حينما وجندوا هذا الحذف وارداً أيضاً في ألفاظ لاصلة لها البتة بالآسماء الموصولة مثل :

أقول لصاحبي لما بـدـالـي    « معالم منها وـهـما نـجـيـانـ »  
بدل « نـجـيـانـ » ومثل :

لو كـنـتـمـ منـجـيـانـ حـينـ اـسـتـعـتـكـ « لم تـعـدـمـوا سـاعـدـاـ مـنـيـ ولا عـضـداـ »  
نـقـولـ لـنـهـمـ حـينـاـ وـجـنـدـواـ حـذـفـ هـنـاـ لـمـ يـعـدـواـ مـخـلـصـاـ لـهـمـ سـوـىـ أنـ  
بـلـجـئـواـ لـأـلـ ضـرـورـاتـ الشـعـرـ .ـ وـمـعـ ذـلـكـ فـإـذـاـ عـسـاـهـمـ يـقـولـونـ حـينـاـ نـوـردـ  
لـهـمـ هـذـاـ المـشـاـلـ الـعـرـبـيـ الـقـدـيمـ فـيـهـ حـكـاهـ الـعـرـبـ عنـ لـسـانـ الـمـجـلـةـ  
نـخـاطـبـ الـقـرـاءـةـ :

يـضـكـ ثـنـتـاـ وـبـيـضـيـ مـائـتـاـ  
أـيـ بـيـضـكـ ثـنـتـانـ وـبـيـضـيـ مـائـتـانـ (٣)

(١) (٢) شرح همع المرامع للشـقـيقـيـ جـ ١ صـ ٢٢-٢٣

(٣) نفس المرجع جـ ١ صـ ٢٢

فلم يكن ذلك من الأسماء الموصولة . ولم يكن كذلك نما يشبه الأسماء .  
الموصولة . ولم يكن أيضاً في الشعر حتى يمكن التعال بالضرورة .  
ومن ذلك الضرب أيضاً مأثر عن العرب من حذف نون التثنية في حالة  
النفي مثل :

لاغلامى لك ، ولا يدى لزيد ، وقيص لا كمى له (١) .  
ومن ذلك أيضاً مانجده في بعض نصوص القرآن والحديث ، فن القرآن  
قوله تعالى : (ظاهرًا) |

بتخفيف اللام ، وهي فراءة فيما

وكذلك الحديث الذى خرجه مسلم فى قتلى بدر حين قام عليهم الرسول  
صلى الله عليه وسلم فناداهما ، فسمع عمر قوله . فقال : يا رسول الله ، كيف  
يسمعوا وأنى يجربوا . وإذا كنا بقصد التدليل على أن هذه الامثلة ، التي  
أوردناها ، لها صلة بالقديم وأنها استمرار لاستعمال اللغة منذ كانت غير  
ناضجة ، ولا مستقرة على نظام واحد ، نقول إذا كنا بقصد  
الدليل على هذا ، وبقصد نقد النحاة فى موقفهم من اللغة ومن فهم  
أساليبها فأنا نجد أيضا دليلا لنا فيما اعترفوا به ، ذلك أنهم أثروا مبدأ  
الترخيم فى المذايى ، واعترفوا بوجود طبقة من لهجات القبائل : العربية  
تحذف آخر الكلمة مثل « يا أبا الحك » بدلا من « يا أبا الحكم »<sup>(2)</sup> . ونحن  
ننان أن الترخيم ليس إلا ذكرى من ماضى اللغة . وأثراً من آثارها

(١) فقه اللغة للشاعري ج ٢ . ص ٥٠٧

(٢) هذه الألوجة عزفت بها قبيلة طيء وقد اصطلح العلماء على تسمية تلك الألوجة  
قطعة طيء - بضم القاف؛ وكان ذلك عاماً عندم في كل الكلمات.

تميية ولم يكن الامر فيه كما فهمه النحاة من أنه استثناء عن المحرف  
الأخير في الاسم مادامت الحروف الساقية تدل عليه .

وكذلك الشأن فيما يختص بامثلة طيء ، التي لازالت تجد آثارها في بعض  
لهجات مصر <sup>(١)</sup> . ولنا بعد هذا أن نقول :

الواقع أن النحاة لم يكن من شأنهم أن يعنوا النثير في اللغة ، ولا في تكوينها ،  
أن النحاة في سائر اللغات الأخرى ؛ ولم ينظروا إلى النحو نظرة فاحصة مدققة ،  
دركوا أن هذه الطارق في الأداء ، والأنظمة المتبعة في التراكيب لم تنشأ كامنة من  
بل الامر وإنما مرت بأدوار من الترقى حتى وصلت إلى المرحلة النهاية التي بني النحاة  
فيها قواعدهم . ومن أجل ذلك وقووا فيها وقاموا فيه من تدليلات وإشكالات .

وصوروا اللغة من جاوزا بهدم تصويراً يبعدها عن طبيعتها ، ويجعل  
نها وبين ماضيها بفورة واسعة يجد الدارس كثيراً من العذاء إذا محاول  
، علاؤها . وقد أحسنا نحن بهذه التجوّة وبذالك العذاء حينما بدأنا دراسة  
ه اللغة العربية ، لا كما كان يعاليه الفداء ، بل وفقاً المنهج الحديث بعد  
نبيلين في دراسة هذا العلم . فقد كنا في سبيل البحث عن تاريخ بعض  
فردات ، وتاريخ استعمالها الم Shi والمعنوي في مختلف العصور ، ومعبرة  
غير الذي طرأ على بيتهما ومؤداها في مراحلها الثويلة ، تقول أننا كنا في  
بيل ذلك لكن يتحسن الطريق بغير مرشد . كنا لأنجذب أمامنا سوى معاجم  
منه ، وهي خليط هائل من المعانى ، وكتب الأدب والنحو وهي غير

---

<sup>(١)</sup> في بعض جهات من مديرية بنى سويف يمحذف الناس القاطع الأخير من  
كلمة فيقولون مثلاً : محمد ، حبيبة ، نحو ، بدلاً من محمد ، حبيبة ، محمود .

محددة الأهداف بالنسبة لما نريد التعرف عليه ، فنخوض هنا ومناكم ، ونعمل الفكر في الافتراضات حتى نهتدى إلى خيط بسيط نستمسك به ونبجمع حوله من المحيط الآخر ؟ ومع هذا فكنا ننجح طوراً في عمل نسيج متامس من تلك الخيوط ، ونفشل طوراً آخر فنهمل ما يعنينا ، ونتركه نهياً للنسىان كأن هذا ، ولا يزال دأبنا في دراسة فقه اللغة ؟ وهذا نحن أولاً نقيني نحواً من أربع سنوات في دراسة سورة المطففين دراسة تتفق مع منهج فقه اللغة الحديث ؛ وبالرغم من ذلك كاه ، وبالرغم من النتائج المهمة التي اهتدينا إليها في قسم آياتها وإدراك بعض أسرارها البلاغية من ناحية الألفاظ ، والمعانى ، والأسلوب ، فإنه لا نزال غير مطمئن لوضع الأسس العامة لهذا العلم بالنسبة للغة العرب ، ولا نخرج بحثنا ناضج فيه .

والأرنى بعد مناقشة هاتين النظريتين الخاصتين بظاهر النحو الفنى ؛ ومناقشة النحاة فى فهمهم ؛ وتعليلهم لوجود تلك المظاهر ؛ ثم الاستدلال على صحة ما ذهبنا إليه خاصاً بتلك النظريتين ؛ نستطيع أن ثبت باختصار النتائج العملية من وراء ذلك ؛ وهى تتحقق فى هذه الملاحظات :

أولاً : - أكيد من أن كل ماسماه النحاة شاداً أو خارجاً على القواعد النحوية أو ساعياً يعتبر أثراً قد يداها قد بقى في اللغة بعثابة . الرواسب ؛ التي تبقى في بعثاب فروع النهر بعد أن تجف ؛ وتتحول جيئاً إلى مجرى واحد ثانياً : - ينبغي أن نسقط كل هذه الأمثلة من حسابنا إذا أردنا أن نضع النحو

وضعاً جديداً ، فلما ندع قوله تمثّل بسببيها وذلك كمُشيئ النحاة في سائر اللغات العربية ، حيث تركوا جانبها بقایا المهجات التقديمة ووجهوا هممهم إلى المترجمة القوية المحسدة .

ثالثاً : - هذا يهدّلنا السبيل لمعرفة تاريخ اللغة أوفرة من تاريخها على الأقل . ثم إنه يرينا نوعاً من أنواع التطور الغرقي ، وبهذا نستطيع أن نضع الأساس لدراسة فقه اللغة على المنهج الغربي الحديث ، الذي اشرنا إليه وإلى بعض رسائله واتجاهاته منذ قليل .

. رابعاً : - إن هذه العلامات التي ساهموا النجاة علامات أعراب لم تكن أولاً بالاتفاق الظيع ، ولم توضع في أول الأمر بناءً عن فكرنة مبعدة عن معنى كل علامة من هذه العلامات ، ولم يكن الحكم في وضعها معنى الجمل والتركيب وإنما هو اتفاق الناطقين باللغة على هذه الطريقة أو تلك من الأداء ، فالمسألة انفافية لا منطقية أو قباسية ، وبمعنى أوضح أنهم لم يذكروا في رفع الفاعل قبل أن ينطقووا به مردعاً ولا في نصب المفعول قبل أن ينطقووا به منصوباً ولا في جر المضاف إليه قبل أن ينطقووا به بمحضه وأذلك عكس طريقة النحاة في فهمهم لهذه العلامات الاعرابية . وتجلي لهم ما ، ولو كان الأمر كما ذهب النحاة لاستلزم أن يكون النضوج العقلي عند العرب قد سبق النضوج الغرقي بمرحل طويلاً وهذا ما لا يمكن أن تتصوره بحال من الحالات والمسألة في نظرنا لا تعدو أن يكون الناطقون باللغة قد اتفقوا ، بأى طريق كان ، على رفع فصيلة من الأسماء لها اعتبار خاص في تركيب الجملة ، ونصب فصيلة أخرى

منها لاعتبار آخر وجر فضيلة لاعتبار يغاير الاعتبارين السابقين حتى يمكن بذلك التفرقة أو التمييز بين هذه الاعتبارات المختلفة.

و بما يدل بوضوح على أن المسألة في علامات الاعراب هي كما صورناها أنتا تجد في بعض الآحيان . قبيلتين عربيتين قد اختلفتا في علامة الاعراب بالنسبة للاسم الواحد ، ومكانته من الجملة هي هي ، واعتباره في نفس الجملة هو هو ، مثل المسألة « الزنبورية »<sup>(١)</sup> ، التي اختلف فيها سيبويه ، عالم البصرة ، والكسائي ، عالم الكوفة ، وهذه :

(١) يمكن تلخيص هذه المسألة وظروفها فيما يأتي : يقال أن سيبويه . وهو عالم البصرة إذ ذاك ، قدم إلى بغداد ، وكان فيها الكسائي يعلم الأمين وفديه على بحثي بن خالد البرمكي ولديه جعفر والفضل ، وأبدى لهم رغبته في مناظرة الكسائي ، وهو أعلم أهل الكوفة إذ ذاك فعمل يحيى ولدها على توصيله إلى الرشيد وإقامة المناظرة وكان مما ووجهه الكسائي من استلهة إلى سيبويه قوله : كيف تقول : ظننت أن العقرب أشد لسعة من الزبور ، فإذا هو هي ، أو : ياها ... ؟

وقال سيبويه : فإذا هو هي ، وخالفه الكسائي فأجاز القولين ، الرفع والنصب في الخبر وذلك لأن نصب الخبر المعرفة بعد « إذا » يجزء الكوفيون ويعنه البصريون ثم قال الكسائي : كيف تقول يا بصرى : خرجت فإذا زيد قائم أو قاما ؟ فقال سيبويه أقول : قائم ولا يجوز النصب . فقال الكسائي أقول : قائم وقاما .

... فقال الرشيد : قد اختلفتا وأنتا رئيسي بالديكما ، فمن يحكم بينكما ؟ فقال له الكسائي : هذه العرب ببابك ، قد سمع منهم أهل البلدين ، فيحضرون ويسألون . ولما جاءوا بالأعراب الذين كانوا يومئذ بالباب . وهم أبو فقعن ، وأبو دثار ، وأبو الجراح ، وأبو ثروان ، وعرضوا عليهم مسائل الخلاف بين سيبويه والكسائي ، وطلبوا حكمهم في هذا ، وافقوا الكسائي فيما ذكر ..

المسألة مشهورة عند النحويين ، ورواها كثيرون من المؤلفين : وكانت مثار خلاف بين الرواد ، فمنهم من ينسبها إلى سيبويه والكسانى ، ومنهم من ينسبها إلى سيبويه والفراء و منهم من يقرر أنها كانت بحضور الخليفة هارون الرشيد و منهم من ينفي ذلك ، ويدعى أنها كانت بحضور يحيى بن خالد البرمكي . ونحن لا يعنيتنا الخلاف بين أسماء النحوة ، ولا بين من كان في حضرته هذا الخلاف ، بقدر ما تعنينا المسألة في ذاتها ، فسواء لمدينا أكان الخلاف بين سيبويه والكسانى أم ينفعه وبين الفراء ، والمهم أن نقرر أن الخبر المعرفة بعد - إذا - يمكن أن يكون مرفوعاً كما يمكن أن يكون منصوباً .

ومن هذا القبيل أيضاً مسألة المستنى في الكلام النافض بين التمييذين والمحاذين .

ومثالها : ليس الطيب إلا الملك<sup>(١)</sup>.

<sup>(١)</sup> - يذكر أبو علي القالي في كتابه الأمالى ٣: ٣٩ حدثنا أبو حاتم قال سمعت الأصمى يقول : جاء عيسى بن عمر التقى ونحن عند أبي عمرو بن العلاء فقال يا أبو عمرو « ما شيء بلغت عنك تجيزه ؟ » قال وما هو ؟ قال « بلغت عنك أنك تجيز : ليس الطيب إلا الملك » ، بالرفع ، فقال أبو عمرو « نعمت يا أبو عمرو وأدخل الناس : ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب وليس في الأرض تميي لا وهو يرفع ، » ، ثم قال أبو عمرو : « قم يا يحيى يعني الإيزيدى - وأنت يا خلف - يعني الآخر - فاذهبا إلى أبي المدى فإنه لا يرفع ؛ راذهبا إلى المجتمع ولقاء النصب فإنه لا ينصب ، » .

فالحجازيون ينسبون والتميميون يرثمون . وعلى هذا الخلاف في الرفع والنصب بين الحجازيين والتميميين جاءت القراءة في قوله تعالى : « ولا يلتفت منكم أحد إلا أمرأتك »<sup>(1)</sup> ،

= قال فذهبوا فأتيا أبا المهدى فإذا هو يصلي : وكان به عارض ::..ولإذا: هو يقول : «لقد أخْسَانَاهُ عَنِّي» ، ثم قضى صلاته والتفت علينا وقال : ما خطبكما قلنا : «جئناك نسائلك عن شيء» ، قال : «هاتِيَا» ، فقلنا : «كيف تقول ليس الطيب إلا المسك - بالرفع - ؟ فقال ، أتأنسراني بالكذب على كبرة سني ؟ فماين المجادى وأين كذا ؟ وأين بنة الأبل الصادرة ؟ ، فقال له خلف ليس الشراب إلا العسل - بالرفع - فقال ، فما يصنع سودان هجر ؟ مالهم شراب غير هذا التمر ، قال اليزيدي : فلما رأيت ذلك منه قلت له : ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها ، فقال ، هذا كلام لا دخل فيه ، ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها ، . قال اليزيدي : ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها ، فقل : ليس هذا لحن ولا لحن قومي . فبكتينا ما سمعناه منه . ثم أتينا المشتجمع فأتينا رجلاً يعقل فقال له خلف ليس الطيب إلا المسك ، فلقنه النصب ووجهنا فيه فلم ينصب . وأبي إلا الرفع فأتينا أبا عمرو فأخبرناه وعنه عيسى بن عمر لم يبح ؛ فأخبر عيسى بن عمر خاتمه من يده وقال : ولك الخاتم بهذا والله فلت الناس ، .

٨١ سورۃ هود : (۱)

فالحجازيون ينصبون وعليه أكثر القراء ، والتميميون يرفعون وعليه اثنان من القراء <sup>(١)</sup>.

ومن هذا الوادي أيضاً ما نجده من خلاف بين الحجازيين والتميميين في عمل - ما - وأهمها مثال ذلك قوله تعالى :

، ما هن أهؤهم <sup>(٢)</sup> ،

فالنصب على لغة الحجازيين والرفع على لغة التميميين ، الأولى قرأ بها الجمهور والثانية قرأ بها المفضل عن عاصم . وما ذكرناه من الأمثلة إنما هو بعض ذكره النهاة في باب الاستثناء ؛ وما التي تعمل عمل ايس ؛ ومن ذلك يتضح في جلاء أن الأعراب ؛ أو الضوابط التحوية وضعية ، وأنها لم تكن على أساس منطق واحد بين جميع القبائل العربية .

خامساً :- إن النحو بمعناه الفني ، أي طرق الأداء في اللغات المذهبة الراقية ، يوجد مبكراً في اللغة قبل أن يوجد النحو العلمي ، وأن تطوره ونضوجه يلازم تطور اللغة ونضوجه ، إذ أنه يمتد جزءاً منها ملازماً لها ؛ ولن يقف نموه إلا إذا وقف

---

(١) الاثنان هما : ابن كثير وأبو عمرو (انظر الاتساف ١ : ٢٥٩ ، ابراز المعانى ٢٥١ ، البحر المحيط ٥ : ٢٤٩ - القراءات والتهجيات لعبد الوهاب حمودة ص ٧٩ ، ح ١٢٢)

(٢) المجادلة : ٢

نحو اللغة نفسها ، فهو يكاد يكون خاصعاً لطبيعة اللغة لا لأسباب خارجة عنها أو مؤثرة فيها . وذلك عكس ما نلاحظه في النحو العربي الذي يبدأ حيث ينتهي النحو الفنى ؛ ويأخذ ضريمه نحو التشنج والكمال تبعاً لمعرف اجتماعية طارئة على اللغة ، وتحت مؤثرات عقلية أو علمية وقد لا يكون للغة عهد بها من قبل .

وبعد ، فنحن إذ نصدر هذا الحكم لا يغيب عنا ما قد يحصل في بعض الأحيان من أثر فعال يصدر عن النحاة في تكوين اللغة وتنميتها وتهذيبها بوضع أسماء وضبط قواعدها ؛ ومحذف ما لا ينطبق على القواعد العامة فيها وذلك كما حدث في خلال القرن الثاني قبل الميلاد بالنسبة للغة اللاتينية ، حيث نهض بعض الشعراء والكتاب من اللاتينيين أنفسهم لخدمة اللغة ، والعمل على ضبطها بتسجيل بعض القواعد التحوية ، وتوحيد طريقة النطق والأداء بها ، واستبعاد ما يمكن أن يكون محل شبهة . من هؤلاء الشعراء إينيوس *Hannius* ، وأكسيوس *Aecius* ومن الكتاب *Varron* ، وقىصر *Cæsar* . ولحسن مع هذا ينبغي أن نلاحظ أن اللغة العربية التي نحن بقصد الكلام عنها وعن نحوها لم يتوفر لها ذلك ، أو على الأقل لم يعرف من تاريخها تلك المرحلة التي يمكن أن يكون بعض أصحابها المتمكنين منها قد قاموا بهذا الدور ، وأدوا لها هذه المهمة في عصورها القديمة في الجاهلية . إذ أننا حتى الآن نكاد نجهل تماماً ما كان يعمل في العصور الجاهلية

من ضبط اللغة العربية ، وطرق التحرى والاختيار بالنسبة للتعبير والإداء إذ أن كل ما وصل إلينا عليه خاصاً بحياة اللغة العربية في العصور الجاهلية الأولى لا يعدو أن يكون مبادئ عامة ، ونظريات بمحنة كالمسلم عن الدرجات المختلفة في القبائل العربية ، والمسلم على نهضة قريش وتغلبها على سائر المجموعات بسبب ما توفر لها من أسباب اجتماعية عديدة . أما حقيقة كل طبقة ، ومعرفة عوامل التطور الداخلي فيها وإدراك الشكل العام لأساليبها وضوابطها ، فكل ذلك يكاد يكون خافياً علينا وليس لدينا منه إلا بعض أمثلة مبعثرة في ثنايا الآثار القديمة ، قد جمعت لأغراض أخرى لا نستطيع أن تكون منها وحده ولا أن نبني عليها أساساً علمياً مؤكدة . ولهذا فإننا في محاولتنا هذه نعتمد كثيراً على الافتراض مستعينين بدراستنا لتاريخ بعض اللغات القديمة . هذا هو شأن اللغة الغربية ، وشأن رجال النحو فيها ، أما هؤلاء الذين قاموا بهذا المجهود في اللغة اللاتينية فهم أصحابها المتمكنون منها والقادرون على تصريفها .

ومن هنا يتضح جلياً الفرق بين النحو الفني والنحو العلمي من ناحية ، وبين اللغة العربية واللاتينية من ناحية أخرى . ويتبين كذلك السبب الأساسي الذي من أجله وقع نحاة اللغة العربية في هذه الخلافات التي لا حصر لها ؛ وفي تلك الأشكالات التي أخرجتهم في بعض الأحيان عن طبيعة أحاجيهم ، وجعلتهم يحملون اللغة أكثر مما تتحمل .

فيينا نجد جمهرة النحاة في اللغات الأخرى ، من أصحاب هذه اللغات

المتمكنين فيها ؛ القادرين على تصريفها ، الذين لا يجدون حرجاً في أن يختموا في بعض الأحيان بعض الناطقين بهذه اللغات ؛ إذ بنا نجد العكس في اللغة العربية ، فمثلاً أستاذة النحو فيها دخلاء عليها ، فنهم اليهود مثل هارون بن أخائيل<sup>(١)</sup> ، ومنهم الترس كسيبويه ، والكتاني ، والأخفش ؛ والسيرافي والفراء وفتيا نجد العربي الخالص ، بل أنها رأينا الروح عند العرب تستكشف دراسة النحو ، ثم يضاف إلى هذه أنهم افترضوا صحة كل ما ثبت أنه جاء على لسان العرب الخالص ، ولم يحاولوا مواجهة الفكرة في أن هذه الضوابط المتبعة في الأداء قد سلكت طريقاً طبيعياً في التكوين ؛ كما تسلك اللغة نفسها هذا الطريق . فكانت في أول الأمر بسيطة غير مطردة ؛ ولكنها مع الزمن قد نمت ، وعمت ، والتزمت .

وإذا كنا لا نستطيع الوقوف على طبيعة تطور هذه الضوابط في اللغة العربية ؛ ولا على طريقة ذلك التطور ؛ بجهلنا بتاريخ اللغة نفسها ؛ ولقلة مااكتشف حتى الآن من آثار قديمة تقدم لنا صوراً عن حالة الله يوم أن كانت مضطربة في الفاظها ، وفي معاناتها وفي أساليبها ، وفي ضوابطها ، نقول: إذا كنا نجهل كل ذلك ، وإذا لم يكن لدينا من الأدلة المادية ما يساعدنا على معرفته فإننا نلجأ مرة أخرى إلى اللغة اللاتينية لنرى فيها بعض مظاهر ذلك التطور ، لندرك بعض الشيء مما يمكن أن تكون اللغة العربية قد مرت به .

. . . (١) - الفهرست لابن النديم ص ١١١ - ١١٢ .

أو ما يمكن أن يكون على الأقل صورة لتبنيه هذا التطور في ضوابط اللغة ومناهج الأداء فيها .

والامر في ذلك ميسور بالنسبة للغة اللاتينية . فهي لغة معروفة التاريخ لم يخل بها العهد في أدوار حياتها الأولى حتى يتسلل إلى أوضاعها وأنظمتها النسيان . ولم يمر طور من أطوار حياتها دون أن يترك فيه أثر كتابي يلقى صدوها على حالتها العامة وعلى ما تتميز به أساليبها وطرق الأداء فيها من خواص . ومن حسن الخد لهذه اللغة ، ولن تصدى للبحث فيها أن اكتشف كثير من هذه الآثار ، ما بين قبور وجدر وصحائف وألواح وأدوات ؛ وعليها من النقوش الكتابية الواضحة ما مهد السبيل للعلماء ، وقدم لهم مادة غزيرة للبحث والتحليل .

وسنحاول أن نعرض في عجالة بسيطة أطوار هذه اللغة ذاكرين بعض الأمثلة في عصورها المختلفة لكي يتبين لنا كيف تخضع حركات الإعراب لنظام النشوء والارتفاع وكيف تغير من عصر إلى عصر حتى تعم وتتكامل ثم تثبت على حال واحدة .

في الفترة السابقة للقرن الثالث قبل الميلاد لم تكن اللغة اللاتينية سوى لهجة بسيطة يخاطب بها فريق محدود من سكان إيطاليا وكان هذا الفريق مثلاً في الأسر والخانقان اللاتينية التي تقيم في المنطقة المعروفة قدماً باسم لاتيوم *Latium* ، في وسط إيطاليا تقريباً ، والممتدة حول مصب نهر

النبر شمالاً وجنوباً ، وحتى في هذه المنطقة المحدودة لم تكن اللغة اللاتينية موحدة في اللهجة التي قدر لها أن تصير فيها بعد لغة العلم والفن والقانون والأدب ، ولكن كان هناك عدد من اللهجات يصارع بعضه البعض الآخر في مدن تلك المنطقة ، وأهم تلك اللهجات هي لهجة مدينة روما Rome ؛ وللهجة مدينة برينستو Prinestos ثم طبقة مدينة توسكولوم Tusculum <sup>(1)</sup>

أخذت لهجة مدينة روما تنمو وتنشر على حساب اللهجات الأخرى .

وقد توفر لسكان مدينة روما من الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ما جعلهم يتزعمون سكان المدن الأخرى من تلك المنطقة ، وسادت - تبعاً لهم -  
لهجتهم على سائر اللهجات اللاتينية الأخرى ، ويكاد هذا يشبه تماماً ما حدث في شبه الجزيرة العربية من صراع لغوي بين لهجه قبيلة قريش التي كانت تقطن حرب مكة ولهجات القبائل الأخرى التي كانت تضرب في نواحي شبه الجزيرة .

إن أهم أثر يوضح لنا حالة اللغة اللاتينية في الفترة السابقة على القرن الثالث قبل الميلاد هو مشبك من ذهب ؛ وجد في مدينة برينستو يرجع تاريخ صنعه إلى القرن السادس قبل الميلاد وقد كتبت عليه هذه العبارة *Manios med flæshakod Numasioi* وهذه العبارة لو كتبت بالطريقة التي استقر عليها نظام اللغة اللاتينية

أخيراً أصبحت *Manius me fecit Numenio* ومعنى هذه العبارة هو :  
قد صنعني مانيوس من أجل نوميريوس .

والذى يعنينا أن نلاحظه في هذه العبارة هو التغيير الذى طرأ عليها بالنسبة لعلامات الإعراب ، فالعلامة « هـ » في الاسم « *Manios* » ، كانت علامة للرفع قد يعنى بعض الأسماء في حالة الإفراد ، وقد أصبحت في اللاتينية أخيراً علامة للنصب لطائفة من الأسماء في حالة الجمع ، أما علامة الرفع لهذه الطائفة من الأسماء في حالة الإفراد فقد أصبحت « هـ » .

وكذلك ضميراً المتكلم المفرد في حالة النصب كان قد يعنى « *med* » ، ولكنها صارت أخيراً « هـ » . وعلامة الفعل الماضي في حالة الإفراد للشخص الغائب التي كانت قد يعنى « هـ » ، قد أصبحت « هـ » ، وأخيراً فإن علامة الإعراب في الاسم من نفس الطائفة من الأسماء التي أشرنا إليها آنفاً؛ في حالة المفعول غير المباشر كانت قد يعنى « هـ » ، ولكنها أصبحت كما نراها « هـ » .

ومن هنا يتضح مبلغ التطور الذى تعرضت له اللغة اللاتينية بالنسبة لعلامات الإعراب .

وفي خلال القرن الثالث قبل الميلاد يدخل الصراع بين لهجتي روما . وغيرها من لهجات المدن الأخرى في دور حاسم؛ ولا يأنى آنجر هذا القرن حتى يكتب للهجة رومه التغلب . التام ، ولا تقف سعادتها على منطقة « لاتيوم *Latinum* » ، فتطول وإنما تتسرب إلى الجمادات الأخرى ، وتأخذ

في صراع أوسع مع ما كان في شبه الجزيرة الإيطالية من لغات كاللغة الإيتروسكية *Italoroman* ، التي كان يخاطب بها في البلاد الواقعه شمال رومه والمحصورة بين نهر التiber شرقاً وسواحل إيطاليا غرباً ، وكاللغة الأوبرية *Ombrian* ، التي كانت لغه التخاطب في البلاد الواقعه شرق نهر التiber والممتدة حتى سواحل بحر الأدریاتيک ، وكاللغه الاوسكية *Osci* التي . كانت لغه البلاد الواقعه في الجنوب وفي الشرق من منطقه لاتيوم .

ومع أن هذا الصراع اللغوي قد استمر أثناء القرن الثالث والثاني وفترة طويلة من القرن الأول قبل الميلاد فإن اللغة اللاتينيه نفسها لم تكن قد فرغت نهائياً من تنظيم أساليبها والتزام حالات الإعراب في تراكيبها ، فقد بقىت في خلال هذه الفترة الطويلة في شبه اضطراب من هذه الناحيه حيث لم تهارد فيها قواعد الإعراب بعد ، ولم توحد فيها أشكال الصيغ ، ولذا فإننا نستطيع أن نسمى هذه الفترة من حياة اللغة اللاتينيه بالمرحلة الثانية . ومن أمثلة هذا الاضطراب في الصيغ وفي حالات الإعراب ما يأتي :

المصدر من « قال » في اللاتينيه هو « *dicere* » ، « إذا جيء » بصيغة المبني للمجهول من هذا المصدر يقال « *dici* » ، وهذه هن الصيغه التي بقىت في اللغة بعد أن استقر نظامها واطردت قواعدها ، ولكننا نجد بجانب هذه الصيغه صيغه أخرى كانت تستعمل في أثناء فترة الاضطراب التي نحن بعدهد الكلام عنها هي « *dicere* » .

مثال آخر : الكلمة *Dominus* ، بمعنى السيد ، قد بقيت بهذه الصيغة حالية الرفع ، ولكنها في نفس الحالة من الإعراب كانت تكتب بتاء *Dominos* .

مثال ثالث : يتجلّى فيه بوضوح ظاهر الاضطراب كلية *facie* ، منها *، الوجه* ، هي إحدى الكلمات التي تخضع لنظام التصريف الخامس للاسماء ؛ ومن خواص هذا التصريف أن تكون نهاية هذه الاسماء حالة المفعول لاجله أو المفعول غير المباشر هي *-ne* ، ولكن هذه لمة في نفس الحالة من الإعراب كانت تكتب وتنطق بهذه الصيغ : *faciéi, facili, faciōl, fac*

هذا جانب من ظاهر الاضطراب في تكوين قواعد النحو ، وخصوصاً نوعية لقوانين عامة ونهاية أثناء هذه الفترات التي سببناها فيها مهني بالمرحلة نية من تطور اللغة اللاتينية . وقد بقى هذا الاضطراب ماثلاً حتى القرن ول قبل الميلاد ، ولكنه كان آخذاً في النقص ، وذالك بفضل المجهود نليم الذي كان يبذله رجال النحو والأدب في تصفية اللغة من الغريب ، بيت قواعدها ، وطرق الأداء فيها .

أما المرحلة الثالثة فتبدأ من حوالي منتصف القرن الأول قبل الميلاد ، ثم وصلت اللغة إلى القمة من ناحية النقاء والاستقرار ؛ وكان ذلك عصر شيشرون وقيصر . ولكنها مع ذلك قد احتفظت بكثير من الآثار

القديمة التي تبدو خلافة لما استقر به أئمها من قواعد الإعراب ، ولم يستطع  
أدباء اللاتينية ولا نحاتها أن يتخلسوا من تلك الآثار ؛ فبقيت مائة حنو  
انقراض اللغة اللاتينية . وإن كان بعضها قد توارى وهجره الاستهال .

وهذه الرواسب القديمة التي بقيت في تركيب اللغة وأساليبها ، واعترف  
 بها النحاة ، وبلغوا إليها الشعراء والكتاب في بعض الأحيان ، هي التي تعنى  
 بالذات ، إذ أنها توضح إلى حد ما ، ما نجده في اللغة العربية  
 وفي شواهدنا الأدبية من خروج على الفراغ العادة التي وضعها النحاة ؛  
 وذهبوا في تطبيقاتها كل مذهب .

ولقد حاول نحاة العرب جهودهم أن يخضعوا هذه الشواهد لقواعدهم ،  
 ولما استعصى عليهم الأمر حكموا عليها بالشذوذ مرّة ؛ أو خرجوها تخرجاً  
 نابياً أفسد على اللغة طبيعتها مرّة أخرى . وقد رأينا صورة من  
 تخريجاتهم منذ قليل .

لم يذكر واحد منهم أن هذه الشواهد يمكن أن تكون رواسب قديمة ،  
 وتراناً للغة العربية يوم أن كانت مهملة وفي شبه فرضي ، لم توحد  
 لهجاتها ولم تستقرار وتطرد ضوابطها . ولما كنّهم فهموا أو اعتبروا على الأقل  
 أن اللغة العربية وجدت كاملة ناضجة ، وأن العربي معصوم لا يخطئه .

وها نحن أولاه نذكر بعض الأئمّة من اللغة اللاتينية لتلك الرواسب  
 التي بقيت فيها بعد أن توحدت وتمكّلت :

لقد عرفنا ما درسناه أن علامة الإعراب في صيغة الفعل الماضي التام  
هذا أسد لضمير النائين هي « Crunt » ولكننا نجد عرضاً عنها هذه  
علامة « ore »

فيقال مثلاً : « amaverunt » بدل « amavero » يعني أحبوا ،  
« laudaverunt » بدل « laudavero » يعني مدحوا أو تغروا ،  
وكذلك نجد في دائرة الأفعال أيضاً هذه الصيغ :  
« amavisti » بدل « amasti » يعني أحببتم .  
« audioram » بدل « audieram » يعني كنت سمعت .

ولو تركنا دائرة الأفعال وانتقلنا إلى ميدان الأسماء لوجدنا فيها ما يأنى :  
المعروف أن علامة النصب في حالة الجمع للتصريف الثالث من الأسماء  
هي « ee »، ولكننا نجدها في بعض الأحيان « e »، وعلى هذا فبدل أن يقال :  
« cives awo »، أحب المدنين ، يمكن أن يقال « cicis amo » .  
وكذلك في صيغة المضاف إليه في حالة الجميع للتصريف الثاني من الأسماء  
بعد علامة الإعراب « orum »، ولكنها قد تستبدل أحياناً بالصيغة القديمة  
هذه الطائفة من الأسماء وهي « om »، فيقال مثلاً : « terra a deorum est »  
بدل « terra n deorum est » = إن الأرض من صنع الآلهة .

بل إن بعض الصيغ القديمة قد احتفظت بكينانها في بعض الأسماء ، ولم  
تستبدل بالصيغة العامة الجديدة . ومن هذه الأسماء « Parvates » ومنها

الاَفْرِيَاء ، *sorores* : وَمِنْهَا الْكَبِيرُ . هَذَا الْإِسْمَان يَتَّبَعُهُ طَائِفَةٌ  
مِنَ الْأَسْمَاء عَلَمَة إِعْرَابُهَا فِي حَالَةِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ الْجُمْحُ هِيَ *um* ، وَلَكِنْهَا  
أَخْذَتْهَا بِصِيَّةٍ أُخْرَى هِيَ *uu* ، فَيَقُولُ مثلاً :

*filios parentum tuorum amas*

بِسْدِلٍ

*filios parentium tuorum amas*

أَيْ ( تَحْبُّ أَبَاهُ أَفْرِيَاتُكَ )

وَكَذَلِكَ يَقُولُ :

*Gonsilia senium saepo est bona*

وَلَا يَقُولُ :

*Gonsilia senium saepo est bona*

أَيْ ( إِنْ نَصِيحةَ الشَّيْوخَ غَالِبًاً مَا تَكُونُ طَيِّبَةً )  
كَلْمَةٌ *manus* ، وَمِنْهَا ، الْيَدُ ، تُعَتَّبُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي تَخْضُمُ لِقَاعِدَةِ  
التصْرِيفِ الْأَرْبَعَ : وَعَلَمَةُ الْإِعْرَابِ لِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ فِي حَالَةِ الْإِفْرَادِ وَفِي حَالَةِ  
الْمَفْعُولِ غَيْرِ الْمُبَاشِرِ هِيَ *ui* ، فَيَقُولُ مثلاً :

*rosam manui portabat*

وَمِنْهَا ( كَانَ يَحْمِلُ الْوَرْدَةَ عَلَى يَدِهِ )

وَلَكِنْنَا قَدْ نَجَدْتُ هَذِهِ الْكَلْمَةَ فِي مُثَلِّ هَذَا التَّرْكِيبِ بِحُرْكَةٍ أُخْرَى

لِلْإِعْرَابِ هِيَ *u* ، فَقَطْ ، فَيَقُولُ *Rosam manu portabat*

وَمِنْهَا ( كَانَ يَحْمِلُ الْوَرْدَةَ عَلَى يَدِهِ )

وَكَذَلِكَ كُلْهَةُ رُوْزٍ، وَرْدَةٍ، تَعْتَبُ مِنَ الْمُتَّفَقَةِ الَّتِي تَخْضُعُ لِعِدَّةِ التَّصْرِيفِ الْأُولَى. وَعِلَامَةُ الْإِعْرَابِ لِهَذِهِ الْأَئْمَاءِ فِي حَالَةِ الْإِفْرَادِ، الْمَضَافُ إِلَيْهِ هِيَ دَوْرٌ، فِيهَا مَثَلًا:

*Color rosae bona est*

أَىٰ، لَوْنُ الْوَرْدَةِ جَمِيلٌ،

وَقَدْ تَسْكُنُ فِي مَثَلٍ هَذَا التَّرْكِيبُ بِصِيغَةِ إِعْرَابِهِ الْقَدِيمِ. وَهِيَ دَوْرٌ، فِي قَالَ

*Color rasci bonus est*

وَأَوْضَحُ مِنْ هَذَا كُلْهَةُ دَوْرٌ، دَوْرٌ، اَللّٰهُ،

وَكُلْهَةُ دَوْرٌ، دَوْرٌ، الْبَيْتُ،

أَمَّا الْفَظُ الْأُولُ فَوْ مِنَ الْأَئْمَاءِ الَّتِي تَخْضُعُ لِقَاعِدَةِ التَّصْرِيفِ الثَّانِي،

أَنَّهُ فِي حَالَةِ الرُّفْعِ بِصِيغَةِ الْجَمِيعِ دَوْرٌ، دَوْرٌ، وَكَتَنَا بِجَانِبِ هَذِهِ

صِيغَةِ نَجْدَهُ مَكْتُوبًا بِصِيغَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ هَمَاءٌ دَوْرٌ، أَوْ دَوْرٌ، فِي قَالَ مَثَلًا:

الْآلْمَهُ عَادُونَ = *dōi justi sunt*

وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ كَذَلِكَ:

دَوْرٌ جَسْتِي سُونْتُ  
أَوْ دَوْرٌ جَسْتِي سُونْتُ

وَكَذَلِكَ فِي حَالَةِ الْمَفْعُولِ غَيْرِ الْمُبَشِّرِ، أَوْ الْمُجْرُورِ بِحُرْفِ الْجَمِيرِ فِي صِيغَةِ

دَعْ، نَجْدَهُ دَعْ، بِجَانِبِ دَعِيَّ، فِي قَالَ مَثَلًا:

الْآلْمَهُ بَرَوْدَهُ مَخْلُوقَهُ بِوَاسِطَهِ الْآلْمَهُ = *Rosae factae a dīs sunt*

يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ أَيْضًا:

وأما اللفظ الثاني وهو *domus* ، فهو من الأسماء المخاضعة للتصريف الرابع . وها هي ذى حركات الإعراب في الأحوال المختلفة بالنسبة لما هو من قبيل *domus* ، في الأسماء .

ولنأخذ لذلك كلمة *manus* ، == بـ ، التي تقدمت منذ قليل :  
في حالة الإسناد أو الرفع وكذلك في حالة النداء يقال : *manūs*  
وفي حالة النصب يقال : *manūs*  
وفي حالة المضاف إليه يقال : *manūs*  
وفي حالة المفعول غير المباشر أو لاجله يقال : *manui*  
وفي حالة الجر بحرف الجر يقال : *manu*  
كل ذلك في الأفراد . وفي الجم على حسب ترتيب الحالات السابقة يقال :  
في الرفع والنداء والنصب *manūs*  
وفي المضاف إليه *manuum*  
وفي المفعول غير المباشر أو لاجله وفي حالة المجرور بحرف الجر *manibus* .

ولو كانت كلمة *domus* ، خاضعة للقاعدة العامة التي اطردت في هذه الطائفة من الأسماء لتصرف بالضبط كما تصرف كلمة *manus* ، ولكنها قد احتفظت بشيء من التراث القديم بالنسبة لحركات الإعراب ، فأصبحنا نراها في حالة المجرور بحرف الجر مفردة ، *domo* ، بدل *domu* ، *domis* .

وفي حالة النصب جمعاً *domus* ، بجانب الصيغة العامة *dominus* ،

وفي حالة المضاف إليه جمعاً *domum* ، بجانب الصيغة العامة *domuum* ،

ونستطيع أن نمضي إلى أبعد من هذا في ذكر أمثلة من هذه الألفاظ  
ك التراكيب ، التي استمرت معاوقة على بعض التراث القديم وشاهدت  
ير اللغة اللاتينية من ناحية الضوابط وحركات الإعراب ؛ ولكن  
ينا هذا القدر ؛ إذ العبرة في ذلك بالكيف لا بالكم . ومع أن هذه  
إسب قد بقىت في اللاتينية بعد استقرارها ، ومع أن الأدباء والشعراء  
استخدموها في أساليبهم وفي إنتاجم الأدبي لأغراض بلاغية كما سبقت  
شارقة إلى ذلك ؛ فإنه لما يعيينا جداً ملاحظته هو أن هذه الأشياء  
تُكَنْ غيبة أمام النحاة حينما بدأوا يضعون قواعد اللغة ، فإنهم  
وا في طريقهم متبعين الظواهر العامة والضوابط الغالبة ؛ ضاربين صفحـاً  
هذه البقايا دون أن يدخلوا لها حساباً في قواعدهم .

من هذه المقارنة نستطيع أن نسجل هذه الملاحظات كنتيجة لها :

١ - معرفة بعض الحقائق التي نشأت ونمّت وكلت تحت تأثير عوامل  
مادية وربما كان يظن في بعض الأحيان أن وجودها لم يكن إلا عن  
ق المصادفات ، أو أن هناك أسراراً خفية تعاونت على خلقـها :  
نت تفسر هذه الأسرار تارة بالوحى والتوقيف ، وتارة  
ى بالعجزات .

٢— ملائكته وجه الشبه البهيد المدى بين ما حدث في اللغة اللاتينية في رومه ، واللغة العربية في يثة المجاز من ناحية الصراع بين اللهجات المختلفة ، وتوفر الأسباب السياسية والاقتصادية والدينية لغزو واحدة منها على اللهجات الأخرى . ولو أن الفرصة أتيحت وامتد بنا ميدان المقارنة باللغة اليونانية لوجدنا نفس الظروف نفسها انتهاج بالنسبة للهجات اللغة اليونانية أيضاً ؛ ولم كان للدور الذي لعبته أثينا في ذلك الصراع المفروض من أثر ملحوظ .

٣— إننا نلس في وضوح مبلغ المجهود العنيف الذي بذله علماء التحريف العربي في تدوين قواعدهم ، ووضع مقاييسهم وتنقيتها . فقد عرف لهم الشرق هذا المجهود في تلك المؤلفات العديدة العنخمة التي أتت بها في التحريف وعلى رأس هذه المؤلفات جيماً ~~كتاب~~ سيبويه ، الذي كان يقول عنه المبرد . حينما يجد إنساناً يريد أن يقرأ معه ركب البحر <sup>(١)</sup> تعظيمياً له واستظهاماً لما فيه . ولقد اعترف العرب بهذا المجهود أيضاً لنحاة الشرق ، بل أن علماء قد استكثروه عليهم فأخذوا يتلمسون الأسباب لعمق أحاجيه ، وشمولها ، ولسرعه نضوجه . غير أننا نظن أن هذا المجهود إنما كان في كثير من الأحيان على غير أساس صحيح . ومصدر ذلك أنهم افترضوا أن كل ما سمعوه عن العرب الخلص إنما يمثل مرحلة النضوج والكمال

---

<sup>(١)</sup> انظر الفهرست ص ٧٧

في اللهجة العربية ، وفاثم أن اللهجة لا بد أن تتحسن قد صرت بمرأحل أخرى من الاضطراب وعدم الاستقرار . وفاثم كذلك أن بجانب لهجة قريش التي تتبعها ، ووضعوا قواعدهم على أساسها ؛ وآثرواها بالفضيل في كل موقف تعارض فيه مع لهجة عربية أخرى ؛ نقول : إنه فاثم كذلك أنه بجانب لهجة قريش كانت هناك لهجات عربية أخرى لها من القوة والذيع ما يجعلها جديرة بالنظر ، وذلك مثل لهجة تميم . وكل من درس النحو العربي قد أحس من غير شك بقوة هذه اللهجة أو يبلغ ما بينها وبين لهجة قريش من خلاف ، ثم بالدرجة التي كان يذهب إليها النحاة في تفضيل لهجة قريش على غيرها من اللهجات (١) .

ونحن لا نلوم النحاة لفضيلهم لهجه على لهجه أخرى ؛ ولكن الذي يؤخذ عليهم هو إثارةهم لهجة واحدة لوضع قواعدهم النحوية ، في حين أنهم أهلوا ، سواء أكان هذا الإهمال عن قصد أم عن غير قصد ، سائر اللهجات الأخرى ، ولهذا فإنهم عند ما يصح في نظرهم نص أدبي أو بيت من الشعر العربي القديم دون أن يوافق قواعدهم المؤسسة على لهجه قريش نراهم يتصرفون في فمه ، وفي تأريله ؛ وفي تخريجه . ومن العجيب أن صدى اللهجات العرب الأخرى نجده مثلاً في القرآن ؛ وفي الحديث ؛ وفي كلام

(١) انظر على المخصوص بباب الاستثناء ، والحرروف التي تعمل عمل ليس .

الصحابه من القرشين بالنيبه للفظ والأسلوب <sup>(١)</sup>

وعلى هذا الأساس فتند تبادى النحاة كثيراً في صحة كل ما ورد عن العرب من ناحيه ، وفي وجوب تطبيق مقاييسهم من ناحيه أخرى .

ونتيجه وجهه النظر الأولى أنهم وقعوا في كثير من الخلافات والمناقشات في سبيل تصحيح كل ما ثبتت عربته من شواهد them .

أما نتيجه وجهه النظر الثانية فإنهن تجرموا على تخليشه بعض القراء الذين يخالفون قواعدهم ، وهؤلاء القراء – كما نعتقد – أولى بالصحه منهم . إذ أنهم يعتمدون في قراءاتهم على الساع ، وهم فيه ثقة ، ويسيرون فيها المعنى أكثر من مسايرتهم للضوابط الفقليه كما كان النحاة .

ولو أنهم افترضوا مراحل اللهه الأولى ، ثم وجود رواسب من هذه المراحل فيما يروى عن العرب في عصر الجاهليه أو عصر الإسلام لأنحرأ أنفسهم ، وأنحرأ نحو نفسه ، وأناحرنا معهم من كل هذا العناء ، وتلك الخلافات . بل ولما فتحوا أمام بعض المستشرقين هذه الثغرة الخطيرة التي

---

<sup>(١)</sup> تقدم الكلام على ذلك في شيء من التفصيل ص ٩٧، ٩٨ ونذكر منها الآن قوله تعالى – وأسروا النجوى ، إن هذان لساحران : وقول الرسول صل الله عليه وسلم – يتغايرون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار – أو قول عمر رضي الله عنه – يا رسول الله أني يسمعوا وكيف يغيروا – وقول عمرو بن العاصي – مكره أباك لا بطل .

نفدوها منها ورجدوها مجالاً لمناقشة النصوص القرآنية مناقشة فاسية تخرجها عن دائرة التزيل وتصورها بصورة كلام البشر الذي صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن استقى أخباره عن أساطير الأولين ؛ أو عن الكتاب السماوية الأخرى .

ولقد كان هذا فيما نعتقد، الخافز الأول الذي جعل الأستاذ عبد الوهاب  
خوده يذكر من جزءاً من جهده فيما كتبه عن اللهجات والفراءات في القرآن  
إذ أنه جمع ما أمكنه جمعه من آراء المستشرقين وحججهم، ثم عرض النهاية  
في. كثير من موافقهم وأيد القراء إلى خواص بعيد. (١)

أما نحاة العرب فلم يكن لهم مثل هذا الموقف ولو أنهم صنعوا مثل ما  
صنع نحاة اللغة اللاتينية لرارحوا أنفسهم من ذلك الجهد الفكري  
العظيم الذي بذلوه في خلافاتهم وفي تحريرياتهم : ولرارحوا التحسو كذلك من  
هذا الاضطراب ، ومن ذلك التشتيت . ولعل من الإنصاف أن نلامس لنحاة  
العرب بعض العذر ، فإن مكانهم من اللغة ومقدورتهم على فهمها وتصريف  
أساليبها ليست كمكانة النحاة اللاتينيين ، فهم في أغلب الأحيان دخلاء عليها  
وكأنوا يتضيدون بعض شواهدهم من أفواه الأعراب ، وما وجدهم مروياً  
من الآثار الأدبية قد منها وحدتها ، بل إن العرب أنفسهم كانوا

(١) انظر كتاب - القراءات والهجيات - للأستاذ عبد الوهاب حمودة

يستهغرون شأن هذه الابحاث التدبرية ، ولا يعيرونها شيئاً من اهتمامهم .  
ويقررون أنها من شأن المولى ومن علمهم . وقد أشار إلى ذلك المبرد في  
كتابه الكامل ، وروى الأستاذ مصطفى عادق الرافعي في كتابه هذا الخبر<sup>(٢)</sup>  
دون أن يندهد وهو أن الشاعر سعيد الخيلاني عبد الملك بن مروان ، من بقوم  
من المولى يتذكرون النحو فيها بينهم . فقال :

، ان أصلحتموه إنكم لأول من أفسدو ،

ويضاف إلى ذلك جلهم بتاريخ اللغة ومراحل تطورها ، ولم تكن  
لديهم آثار كتانية يستطيعون بواسطتها التمييز بين حالة اللغة في عصر  
دون غيره ، ثم يربطون هذه العصور بعضها ببعض ليدركوا منها مظاهر  
التطور في الضوابط الإعرابية ، كما كان ذلك مهدأً سهلاً للتجاهلاتين .

ولقد سار النحو العربي في نفس الطريق الذي رسّمه له أوائل النجاة من  
اعتبار كل ما أثر عن العرب صحيحـاً ، وبالتالي فكل ما صح لديهم  
من كلام العرب ينبغي أن يكون مطابقاً لهذه القواعد العامة التي  
لم تكن في الواقع سوى ظواهر وضوابط لهجة قبيلة عربية واحدة ، هي  
لهجة قريش بعد أن توفر لها من عوامل الرق ما يجعلها تتغلب وتسود  
لهجات القبائل الأخرى .

---

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعي ج ١ ص ٢٤٥ .

ولم يتتبه هؤلاء النحاة إلى ما يمكن أن يكون هناك من أثر المهجات الأخرى ، ولا إلى ما يمكن كذلك أن يكون هناك من أثر بالنسبة لتطور تلك المهجات : ومنها لجنة قريش نفسها ، حتى استقرت رثا على طريقة واحدة في النطق والأداء . بل ذهبوا في اعتبارهم هذه اللغة إلى درجة أنهم منحوها صفة المقداسة وأعادوها معنى إلهياً لغزالة القرآن منها . ولم يجد من بين أولئك النحاة ، بازغم من هذه العمور الطويلة التي مرت بها دراسة النحو ، من حاول أن يضع نصب عينيه هذه الاعتبارات . ففيهم اللغة على حقيقتها ، وينخلصها من ذلك الجمود الذي منيت به ، ومن تلك الشبه التي علقت بها .

وأول من تتبه لذلك قدما هو ابن النديم صاحب الفهرست (١) حينما تحدث عن اللغة العربية وتأثيرها ولكن حدثه عن ذلك لم يمكن واضحاً ولا مستوفياً . وحديثاً : هو الاستاذ معطفى صادق الرافعى ، إذ أدرك بحسه أن اللغة العربية كسائر اللغات الأخرى من حيث التطور من حالة البساطة إلى حالات الرق والكمال . يقول الاستاذ ما نصه : ( وعلى ذلك يتبع أن تكون لغتهم أيضاً « يتعد العرب » ، قد ملكت التاريخ ولم يملكتها ) ; وهي لا بد أن تكون قد تغلبت معهم على وجوه من

(١) الفهرست ص ٧

الإصلاح ، وجرت على مناخ من التهديب )<sup>(١)</sup>

ولكن يعارض تصرّحه هذا ما نجده له من مواقف أخرى في نفس الكتاب يرقى باللغة العربية فيها إلى درجة من التقدير يجعلها سيدة اللذات على الإطلاق ، وتكسيها من صفات اللداة ما يوحى إلى القارئ بأنها توقيفية إلى حد ما .<sup>(٢)</sup>

. ومع ذلك فإننا نلخص هنا ما ذكره بالنسبة لحياة اللغة العربية وما طرأ عليها من تطور أثناء عمرها الطويل . ونحن وإن كنا لا نجد من الآثار المادية ما تستند عليه في إثبات ذلك ، إلا أننا نطمئن إلى هذا الافتراض ونرى فيه موافقة لما تستلزم طبيعة اللغة أيا كانت الشعب الذي ينطق بها . وعلى هذا الافتراض فإن اللغة العربية قد مررت بأطوار ثلاثة .<sup>(٣)</sup>

التطور الأول : هو ما كانت عليه هذه اللغة أيام إسماعيل ، الذي يعتبره العلماء أصل العربية المصرية ، من البساطة ؛ ثم أخذت فيه من توسيع بواسطة ما كانت تستمد من لغة جرم من مفردات وتعبيرات . وبكان ذلك في أرض الحجاز فقط ، حينما كان الأصل العربي محصوراً في إسماعيل وفي أولاده ، على حسب ما يصوّره العلماء والمؤرخون . وذلك حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد .

---

<sup>(١)</sup> تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٧٩

<sup>(٢)</sup> تاريخ آداب العرب للراوفي ج ١ ص ٨٣، ٩١، ١٧٨، ٢٢٢

<sup>(٣)</sup> نفس المرجع ج ١ ص ٩٧ إلى ٩٠

التطور الثاني : يبدأ عندما يزداد عدد العرب ، وتضيق بهم بيئة الحجاز فيتكونونها ليستقرن في جهات مختلفة من الجزيرة العربية . وهناك تتكون القبائل ، وتأخذ كل قبيلة في إصلاح هجتها حسباً لظروفها الطبيعية والاجتماعية .

التطور الثالث : وهو طور الكمال ، فهو عبارة عن الدور العظيم الذي قامت به قريش من الإصلاح ، حيث كانت تنتفع بلغات الأمم الأخرى ، التي تتصل بها عن طريق التجارة ، وتأخذ عن لهجات القبائل العربية ما تستحسن ويزيد في ثروة هجتها الخاصة .

والذى يدهشنا أكثر هو أن الأستاذ الرافعى يرى ويعتقد أن اللغة العربية تحتوى على بقايا أثرية من المفردات قد هجرها الاستعمال ، لأنها كانت تلائم بيئات خاصة ، وأزماناً خاصة ، وعقبليات خاصة . ولكن بعد أن تغير كل ذلك أصبح هذا هجوراً . كما حدث في اللغة اللاتينية . بالنسبة للغات الأوربية الحديثة التي تابعاً أحياناً إلى اشتراق جديد من تلك الكلمات القديمة . يوضح الرافعى ذلك توضيحاً كافياً ، ويعقد المقارنة في هذا بين العربية واللاتينية . وهذا صحيح . ولكن الغريب إنه لم يتتبه ولم يشر مطلقاً إلى جواز حدوث مثل هذا أيضاً في علامات الإعراب وأثر الزمن والتطور فيها . بل إنه سار في بحثه كله على افتراض أن علامات الإعراب كما هي بالوضع الحالى قديمة في اللغة ، وإن العرب كانوا ينطقون بها كما نراها .

وهو حين يتناول مرحلة الإصلاح في اللغة يتذكر عن الإصلاح الذي يشمل النحو والمعنى والإسلوب ، ولا يشير إلى علامات الإعراب . وكذلك حين يتذكر عن البقايا الأثرية في اللغة يتناول المفردات المهجورة بواسطة الاستعمال ، ولا يشير إلى بقایا علامات الإعراب قدّمها . وبالرغم من موقفه هذا فإنّ بحثه في كاتا الناحيتين يقدم لنا دليلاً آخر على أن علامات الإعراب بدورها لا بد وأن تكون عرضة للإهمال كالنحو والزاكيب سواء اعترافه كذلك بوجود بقایا أثرية في اللغة مهجورة الاستعمال يشير من ناحية أخرى إلى ضرورة وجود بقایا أثرية في علامات الإعراب سواء سواء <sup>(١)</sup> .

ولعل المثال الذي ذكره الرافعي في آخر هذا البحث من تاريخ استعمال هذا الإصلاح . نحن فعلنا ، يشير من بعد إلى التطور في الاستعمال . ودعا في الواقع بحث طويل يستحق منا تجاهلاً خاصة ، ويستلزم إحصاء شاملاً لناريخ الاستعمالات العربية ، لقد كان هذا النوع من الدراسة هو موضوع بحث الأستاذ المستشرق يوهان فوك *Johann Fock* في كتابه - الدرية ، ومع اعترافنا بقيمة بحث هذا الأستاذ ومبلغ ما بذله من جهد في الاستقصاء والتحقيق ؛ فإننا نقرر أنه في حاجة إلى أن يتمتد حتى يصل إلى استقصاء الكثير من الجمل والزاكيب ثم يلاحظ تطور الاستعمال فيها على اختلاف

(١) - انظر البقایا الأثرية في اللغة ج ١ ص ٦٢ - ٦٤ .

عصر كما كان ذلك صنيعه بالنسبة لبعض الالفاظ . ولا شك في أن بحثاً ن هذا النوع سيكون أجدى على اللغة وعلى النحو من تلك الأبحاث التقليدية ملة التي تسير على نفس النهج الذي رسمه القديماء لدراسة اللغة والنحو ؛ أو فوق ذلك يلق ضوئاً على تاريخ اللغة والنحو ففهم ما فيها من حيوية استعداد لمسيرة الزمان والمكان . ومن هذا تتضح قيمة ذلك البحث الذي رنا إليه ، ويتبين مبلغ المجهود الذي ينبغي أن يوجه من أجله . وإذا كان ا النوع من الدرس من شأنه أن يبعدنا إلى حد ما عن بحثنا في اللغة نحو ، إلا أنها لا نود أن تتجاوزه ونكتفي بمجرد الإشارة إليه دون أن نذكر من الأمثلة باختصار لنرى نوع الاستفهام في الأساليب ، ومبلغ ما يطرأ بها من تغير في العصور ثم ترك للقارئ بعد ذلك تقدير القيمة العلمية عملية من وراء ذلك :

المثال الأول : يفهم من كلام سيبويه أن خبر - كاد - ، والغالب فيه يكون فعلا مضارعاً ، يطرد اقترانه بأن ، وإن كان بمعنى التحاة وقد هذا الأطراط بأنه لا يعني الندرة ولا الشذوذ .<sup>(١)</sup>

وليس من شك في أن سيبويه قد بنى حكمه على الاستعمال العربي القديم ،

<sup>(١)</sup> - انظر شرح الأشموني مع حاشية الصبان على الفية بن مالك - ج ١ . ص ٢٠٩؛ در اللوامع على همع المرامع شرح جمجمة ج ١ ص ٦٤، ٦٣، ٦٢.

إذ أن موقفه من الخدثين ومن النصوص الدينية معروف<sup>(١)</sup> ونما يدل على وجهة نظر سيبويه أنه حينما أورد في أسلته على سكاد - بيتا من الشعر والخبر فيه عبارة عن فعل مضارع بدون - أن - تأوه بتقدير أن ؟ وهو : فلم أر مثلها خباستة واحد . فنهنت نفسي بعد ما كدت أفعله

وإذا استعرضنا أساليب القرآن فيما يختص بكل نجودها تستعمل الفعل المضارع خبراً بدون - أن - مثال ذلك : وإن كدت لردين ، ... فذبحوها

<sup>(١)</sup> - كان سيبويه يعتمد اعتماداً أولاً على الشعر العربي القديم فله من هذا الشعر في كتابه نحو من ألف وخمسين بيتاً ( ١٠٥٠ ) ثم يأتي بعد الشعر العربي القديم الآيات القرآنية حيث يورد منها نحواً من ثلاثة آية ( ٣٠ ) وهو لا يستشهد من الأحاديث النبوية إلا بحدث واحد . أما الشعر الإسلامي فقد ضرب عنه صفحات بالرغم مما نجده عند بعض الرواة من أن سيبويه قد خيلأ بشاراً في جمعه زون على زنان وأن بشار بن برد قد هجا سيبويه بسبب ذلك فقال :

سيبويه يا ابن الفارسية ما الذي تحدثت من شتمي وما كنت تقدّم  
أظللت تغنى سادراً في مسامتي وأملك بالمصرين تعصي وتأخذ  
وأن سيبويه قد أخذ بعد ذلك يشهد بشعر بشار خلافة هيجانه ، تقول بالرغم  
من ذلك فإننا لا نجد أثراً لشعر بشار في كتابه ، وقد حقق هذه المسألة بعد  
مناقشة المستشرق يوهان فوك في كتابه - العربية - ص ٥٢

وَمَا كَادُ يَفْعَلُونَ : وَأَن يَكُدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلَفُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ” .

(١) - وهذا هي ذى إحصائية بالأيات القرآنية التي استعملت فيها كاد : ومنها يتبيّن اطّراد الأسلوب القرآني في هذا الاستعمال دون أن يشذ في آية واحدة من هذه الآيات البالغة أربعة وعشرين آية :

من بَدَدْ مَا كَادَ يَرِيْغَ قُلُوبَ فَوْيِقَ مِنْهُمْ	سورة التوبه آية ١١٧	
إِنْ كَادَ لِيَضْلُّنَا عَنْ آخْتَنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا	سورة الفرقان د ٤٢	
إِنْ كَادَتْ لَتَبْرِيْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا	سورة الفصل د ١٠	
فَالْأُولَاءِ الَّذِينَ جَسَّتْ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ سورة البقرة د ٧١	سورة البقرة د ٧١	
فَالْأَلْيَامُ أَمْ إِنَّ النَّحْرَمَ اسْتَضْعَفُونَ وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي سورة الأعراف ه ١٥٠	سورة الأعراف ه ١٥٠	
وَإِنْ كَادُوا لِيَفْتَنُوكَ عَنِ الدِّينِ أَوْ حَيَّنَا إِلَيْكَ	سورة الأسراء ه ٧٣	
وَإِنْ كَادُوا لِيَسْتَفِرُوكَ عَنِ الْأَرْضِ لِيَخْرُجُوكَ مِنْهَا	سورة الأسراء ه ٧٦	
وَأَنْهُمْ لَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُودُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدَا سورة الجن ه ١٩	سورة الجن ه ١٩	
لَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كَدَتْ تَرْكَنَ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا سورة الأسراء ه ٧٤	سورة الأسراء ه ٧٤	
نَالَ تَاهَهُ إِنْ كَدَتْ لَتَرْدِينَ	سورة الصافات ه ٥٦	
نَ السَّاعَةَ آيَةً أَكَادُ أَخْفِيَهَا	سورة طه ه ١٥	
كَادَ السَّمَاوَاتِ يَتَفَطَّرُنَّ مِنْهُ وَتَنْشَقُ الْأَرْضُ	سورة مرثيم ه ٩٠	
كَادَ السَّمَاوَاتِ يَتَنَظَّرُنَّ مِنْ فَوْقَهُمْ	سورة الشورى ه ٥	
كَادَ تَبَّزَّ مِنْ الغَيْظِ	سورة الملك ه ٨	
كَادَ الْبَرْقَ يَخْيَلُ أَبْصَارِهِمْ	سورة البقرة ه ٢٠	
تَجْرِيْعَهُ وَلَا يَكُادُ يُسْيِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ سورة إبراهيم ه ١٧	سورة إبراهيم ه ١٧	

ولقد صارت الأسلوبات العربية في المصور الإسلامية على أساس الاستعان النرآني ، وأنغلب ما أعلمنا عليه من الشعر العربي والنصوص الأدبية يوين هذا الاستعمال ، وحين يوجد الاستعمال الآخر فإنما يوجد قليلاً نادراً .

وإذا ما وصلنا إلى المصادر الحديث واستعرضنا أساليب اللغة فيه وجدنا البيئات العربية تختلف في استعمال - كاد - ، ففي العراق مثلاً يحرص الكتاب على أن يقترب الفعل المضارع بأن حين يقع خبراً لـ كاد .<sup>(١)</sup> أما في مصر

٣٥	سورة النور ،	يكاد زيتها ينفيه ولو لم تمسسه ذار .
٤٣	سورة النور ،	يكاد سنا برقه يذهب بلا بصار
٥٢	سورة الزخرف ،	أم أنا خير من هذا الذي هو مدين ولا يكاد يبين
٥١	سورة الفلم ،	وإن يكاد الذين كفروا يلزموك بأوصارهم لما سعوا الذكر
٧٨	سورة النساء ،	فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفهمون حديثنا
٩٣	سورة الكهف ،	وجد من دونها قوماً لا يكادون يفهرون قوله
٧٢	سورة الحج ،	يكادون يسطون بالذين يتلوون عليهم آياتنا
٤٠	سورة النور ،	ظنانات بعضها فوق بعض فإذا أخرج يده لم يكدر يراها
(المعجم المفهرس لأنفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقى .)		
<sup>(١)</sup> - اقرأ مثلاً ترجمة الأستاذ أحمد عبد الباقى لكتاب - وادى الرأوفين - مهد الحضارة . دراسة اجتماعية لسكان العراق في فجر التاريخ تأليف الأستاذ ليونارد وولى ، فإنك تجدر في هذه الترجمة مبلغ حرص المترجم على أن يقترب خبراً لـ كاد - وهو الفعل المضارع ، بأن المصدر فيه .		

فتكتيراً ما يستعمل الأدباء والكتاب هذا الفعل بدون - إن .

المثال الثاني :- ولعله أوضح من الأول في بيان ما أشرنا إليه هو ما  
نبجه من تطور في استعمال هذه التراكيب : أنا الذي أفعل أو فعلت ، ونحن  
الذين نفعل أو فعلنا ، وأنت الذي تفعل أو فعلت ، وأنتم الذين تفعلون  
أو فعلتم ، وكذلك في أنتا . وفي أنتن ، نجد في هذه التراكيب  
بعد اسم الموصول تارة يسند إلى الضمير السابق على اسم الموصول كما تقدم  
في هذه الأمثلة ، وتارة أخرى يسند إلى اسم الموصول نفسه بدون نظر  
إلى الضمير السابق كأن يقال مثلا في التراكيب المتقدمة : أنا الذي يفعل  
و فعل ، ونحن الذين يفعلون أو فعاؤ ! وأنت الذي يفعل أو فعل ، وأنتم  
الذين يفعلون أو فعلوا ... الخ .

وهنا نجد النحاة يذهبون مذاهب عدّة في فهم هذه التراكيب ويتأولونها أو يلّات ختلفة كدأبهم فيها يدرّسون ، وكلّ منهم يحاول أن يثبت وجهة نظره بأى وسيلة كانت ، ومن يطلع على خلافاتهم وأراءهم ، وتأويلاتهم في هذه الاستعمالات لا يستطيع أن يخرج من ذلك برأى ناضج ولا بفكرة واضحة فإذا قابلنا ترك آرائهم جانباً ، ولا نعرض لاختلافاتهم فإنّها تفسد علينا فكرة التي نهدف إليها ، وهي بيان تطور الأساليب بتطور الزمن . وهذا من أولاه نختتم إلى الاستعمال العربي نفسه لهذه التراكيب لزى كيف كانت طريقة العرب في العصور المختلفة في التعبير عن هذه المعانى ، ومع ذلك فإننا نخجل من يريد من القراء أن يطلع على آراء النحاة وعلى اختلافاتهم

لأخذ صورة من مناقشتهم وتأويلاتهم ، نقول إننا نحيط هذا الفريق من القراء إلى ما كتبه الأستاذ السنقيطي عن هذه التراكيب بالذات <sup>(١)</sup> . كان الاستعمال الغالب عند الجاهليين في هذا التركيب هو أن يعود الضمير في الفعل الحال لاسم الموصول على اسم الموصول نفسه لا على الضمير السابق وشاهد ذلك قول أمرئ القيس :-

. أنا الذي عرفت ذضله . ونشدت عن حجر بن أم قطيم

وكذلك يقول طرفة بن العبد في معلقته :

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه . خشائنا كرأس الحياة المترقب

وكذلك يقول أبو حرب الأعلم وهو جاهلي من بنى عقيل :

نحن اللدون صبحوا الصباحا . يوم التخييل غارة ملاحча

وإذا ما جئنا إلى صدر الإسلام فإننا نجد تطوراً في هذا الاستعمال فرة يحافظون على الاستعمال القديم ، ومرة يأخذون في استعمال جديد ، ذلك بأن يعيدوا الضمير في الفعل على الضمير السابق للاسم الموصول مثال ذلك ما نجده في هذا البيت ، وهو لأحد الأنصار ، كما يفهم من المعنى ، ولم يعرف قائله بالضبط <sup>(٢)</sup> .

نحن الذين بابعوا مدحنا . على الجهاد ما بقينا أبدا

<sup>(١)</sup> الدرر اللوامع على مع البوامع شرح جمع البوامع بـ ٦٤ ، ٦٣ ، ٦٢ بـ ١

<sup>(٢)</sup> السنقيطي الدرر اللوامع بـ ٦٣ بـ ١

وهنا نلاحظ الاستعمالين في نفس البيت ، فال فعل - بايعوا - أنسد إلى اسم الموصول ، وال فعل - بتينا - أنسد إلى الضمير السابق على اسم الموصول وهو - نحن - .

ومن ذلك أيضاً ما ورد في رجز لـأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قاله في مبارزته لمرحب اليهودي يوم خبيث<sup>(١)</sup>:

أنا الذي سنتني أمي حبيرة وضر غلام آجام وليث قسورة

وفي هذا البيت نجد الفعل مسندًا إلى الضمير السابق على اسم الموصول

ومن هذا الاستعمال أيضاً ما يروى لكثير عزه : .

زأنت التي حببت كل قصيرة . . . إلى ولم تعلم مذاك الفصارى

وهناك بيت آخر من الشعر يذكر الشنقيطي أنه لم يعش على قائله (١)،

شہر:

وانت الذى آثاره في عدوه . من المؤمن والنعمى لهن ندوب  
ولكنا حين نستخدم هذا المنهج الذى سلكتناه في تطور الاستعمال لهذا  
تركيب فرجح أن هذا البيت جاهلى حيث اشتمل الفعل المتأخر على ضمير  
لوصول ، ولم يستند إلى الضمير انتقدم على الاسم الموصول .  
أما القرآن فاننا لم نتهى فيه إلى استعمال لهذا التركيب بالرغم من قرامتنا

<sup>(11)</sup> الشفيعي الدرر اللوامع ج ١ ص ٦٢

(٢) الشفطى الدرر اللوامع ج ١ ص ٦٣

المترادفة لنصوصه ، ومن اطلاعنا السكثير على فهارس الفاظه .

وفي العصر الحديث نجد أن الاستعمال الغالب لدى الكتاب والأدباء إنما هو استعمال صدر الإسلام ، أي أسناد الفعل الثاني لـ *أبي الموصول* إلى الضمير السابق كان يقال : هل أنت الذي فعلت هذا ؟ وهل أنت الذين فعلتم ذلك ؟ ... الخ

وكانا نستطيع أن نمضي في ذكر أمثلة مختلفة للأساليب المختلفة في اللغة العربية ولكننا نكتفى بهذه المثالين فقط ، ونظرة فاحصة في هذين المثالين وما تعرض فيها الأسلوب لتغيير واضح تهدينا إلى أن تغير هذا الأسلوب في التعبير يدل على ما كانت تخضع له اللغة العربية من تغير في دائرة أوسع ويشبه هذا ما حدث في اللغة الفرنسية بالنسبة لهذا التعبير نفسه . فلقد كانت هذه اللغة قد باتت تستعمل :

*C'est moi qui a fait* : أنا الذي فعل

*C'est nous qui avons fait* : نحن الذين فعلوا

*C'est vous qui avez fait* : أنتم الذين فعلوا

ملاحظين في كل ذلك أن الفاعل لل فعل الأخير هو اسم الموصول بصرف النظر عما يشير إليه من الضمائر السابقة . ولكن هذه اللغة قد خطت في هذا الاستعمال خطوة أخرى فجعلت الفعل الثاني خاصعاً للضمير السابق على اسم الموصول ، واستقرت على هذا الاستعمال حتى الآن ، وقد هجر الاستعمال

الأول هجراً تماماً : فأعجبوا يقولون :

*C'est moi qui ai fait* : أنا الذي فعّلت

*C'est nous qui avons fait* : نحن الذين فعلنا

*C'est vous qui avez fait* : أنتم الذين فعلتم

ومن المقارنة البسيطة بين هذين الأسلوبين في العربية والفرنسية نجد أن مظاهر التطور واحد فيها ، فبعد أن كان الفعل يسند أولاً إلى اسم الموصول أصبح في كلها يسند إلى الضمير السابق ، وليس من شك في أن آثر عمل العقل واضح في هذه الخطوة من انتقال الأسلوب إلى مرحلة جديدة ، إذ أن هذا التركيب في حالته الأولى كان بسيطاً وربما أمكن أن نسميه ساذجاً لانفكير فيه ، فليس أسهل من أن يسند الفعل إلى أقرب مذكور . أما في حالته الثانية فإننا نحس بأن المعنى قد بدأ يتحكم في اللفظ ، وأن العقل قد بدأ تبعاً لذلك يساير المعنى ولا يتأثر بظاهر التركيب وقد يبدو أن هذه التطورات وما شابهها قد تمت في اللغة دون أن نحس يتأثر لعمل العقل فيها وهذا صحيح لو قصدنا من ذلك عمل العقل الفردي ؛ ولكننا نريد عمل العقل الجماعي ، فإن لكل مجتمع عقله ومنطقه ، وميدان عمله إنما هو المظاهر العام لحياة ذلك المجتمع بما في ذلك اللغة ، والعلم ، والأدب ، والفن ، ولهذا فإن أكبر الشعراء وأعظم الكتاب ، وأرق الفنانين إنما هم في الحقيقة مدينون إلى حد ما بالنسبة لبيئاتهم ومجتمعاتهم .

والآن بعد هذا الاستطراد الذى جرنا إليه ما لاحظه الأستاذ مصطفى صادق الرافعى من تطور بعض أساليب العربية نعود إليه لمناقشته في وجهة نظره من ناحية تهذيب اللغة ، ولكن قبل أن نبدى في ذلك رأينا نحب أن نضيف إليه أن لفظ قريش ، الذى نسبت إليه القبيلة العربية في بلاد الحجاز والذي نسبت إليه لهجتها كذلك ، لم يكن اسمًا لشخص معين وإنما هو لقب أعطى للنضرىن كنانة ، المجد الثانى عشر للرسول صل الله عليه وسلم ، كما يذهب إلى ذلك جهور العلماء ، ويرى فريق آخر أن هذا اللقب أعمى لفهر بن مالك ، حفيد المتقدم . وسواء لدينا أكان هذا اللقب قد أعطى للنضرى أم لفهر فإننا لا نظن أن اللهجة القرشية أخذت في وسائل التهذيب والإصلاح منذ ذلك العهد وإنما بقيت شأن غيرها من اللهجات الأخرى حتى أيام قصى إذ أن القرشيين كانوا في ذلك العهد مختلطين بجرهم ومخزاعه الذين كانت في يدهم ولابة البيت والسيادة على مكة ، ولكن قصيأً هذا هو الذي جمع أشخاص قريش وحارب هاتين القبيلتين . واستخلص منها أمر مكة ولو لابة البيت ، ومن هذا التاريخ تستقر قريش وتسود مكة وتببدأ في تزعم القبائل العربية الأخرى وتبعاً لهذا الاستقرار وتلك الزعامة تأخذ اللهجة القرشية في سبيل التهذيب والإصلاح <sup>(١)</sup> .

والذى نراه بالنسبة لما لاحظه الأستاذ مصطفى صادق الرافعى هو أنه

<sup>(١)</sup> انظر سيرة ابن هشام ج ١: ص ١١٢؛ وأسواق العرب للأفغани ص ٧٥ - ٩٤.

قصد من التهذيب والإصلاح تهذيب اللغة نفسها من حيث اللفظ والمعنى والأسلوب أما من الجهة النحوية أي ضوابط التراكيب وحالات الإعراب فلم يلتفت إليها ولم يدخل لها في مراحل التهذيب. حسأباً؛ ومعنى هذا أن ضوابط النطق ثابتة منذ القدم، أي أن الفاعل منذ الطور الأول من أطوار نمو اللغة سرفع؛ والمفعول منصوب؛ والأسماء الخمسة مرفوعة بالواو ومنصوبة بالالف وبجرورة بالياء؛ وكذلك الشأن بالنسبة للثني؛ وجمع المذكر السالم؛ وما لا يذكر، وجمع المذكر السالم ... و... إلى آخر ما نجده في أقسام الكلام من خضوع لقواعد الإعراب؛ وهذا ما لا يمكن أن نسلم به، إذ أنه يقربنا من الاعتقاد بأن اللغة توقفية وكذلك النحو. وقد ظهر لنا مادياً وعملياً فساد هذا الرأي.

## نتيجة البحث في النحو معناه الفنى

و الآن بعد فراغنا من البحث في النحو بمعناه الفنى ، وبعد الذى أبديناه من ملاحظات عامة على نشأته ، وتطوره ، وبعد الذى بحثناه من تائج جزئية في ثانياً هذا البحث ، نزيد أن نصل بالقارئ إلى الهدف البعيد الذى قصدنا إليه : ذلك هو تخليص العقل من تلك الأفكار القديمة التي كانت تنظر إلى تراثنا العلى نظرة إجلال وتقديس فتطوف حوله درساً وفها ، ولكنها لا تحقق على نقده ولا على إظهار ما فيه من.

أخطاء . ولعل هذا كان أثراً من آثار النزعة الدينية والسلطان الروسي  
الذى أشرنا إليه وعللناه فيها ماضى .

لقد رأينا أن اللغة ظاهرة اجتماعية تتشابه مع المجتمع وتتطور بتطوره  
ورأينا كذلك أن النحو بمعناه الفنى جزء من ماهية تلك اللغة ؛ وإننى  
فلا بد وأن يكون كل منها قد مر بحالات متعددة مختلفة فن السذاجة ،  
والبساطة إلى الثنو والتضوّج . وإذا كان من المسلم به أن اللغة العربية قد  
وصلت إلى درجة الكمال أيام نزول القرآن الكريم ، وإذا كان من  
المسلم به أيضاً أن النحاة ، بصرف النظر عما وقروا فيه من اضطراب نتيجة  
أبحاثهم المحدودة ، وتفكيرهم الضيق ، قد وضعوا قواعد بناء على  
ما وقفوا عليه من النصوص اللغوية ، وما عرفوه من أساليبها ، فإنه ينبغي  
أن يكون من المسلم به أيضاً أن تستمر اللغة متأثرة بحالة المجتمع الذى  
تعيش فيه ، ولا تستقر على الحالة التى كانت عليها أيام نزول القرآن الكريم  
وهذا ما يهدى إليه العقل ويؤيد الواقع : فإن مئات الألفاظ الجديدة قد  
دخلت في اللغة العربية ، وكذلك مئات الأسماء الأعجمية التي لم يكن للعرب  
عهد بها من قبل ، ومئات التراكيب المتغيرة التي لم تعرف في تراكيب  
العربية ولا في أساليبها : بل إن الأمر في هذا الجديد ، وفي تلك الإضافات  
لم يقف عند بيئة عربية واحدة ، وإنما تعدد ذلك إلى كل البيئات الإسلامية  
التي اتخذت اللسان العربي أداة للتقاء بين أفرادها : فعربيّة الحجاز الآن  
غير عربية العراق ، وعربيّة العراق غير عربية سوريا ، وعربيّة هذه الأقطار .

الثلاثة غير عربية مصر؛ وعربية مصر غير عربية بلاد شمال أفريقيا؛  
وما جد في كل قيل من هذه الاقتئارات بخلاف ، إلى حد ما ، ما جد في  
غيره من الأقطار الأخرى . وليس في ذلك شيء من الغرابة ؛ إذ أن  
اللغة مرآة البيئة . وبحسب المجتمع ، وترجمان فلسفته في الحياة ، ودرجته من  
العلم ، والفن ، والأدب . وما دامت الأقطار الناطقة باللغة العربية مختلفة  
في بيئتها ، متفاوتة الدرجة فيها ذكرناه من مظاهر ارتفاع العقل والاجتماعي ،  
فإن اللغة لا بد وأن تختلف ، وتتفاوت أيضاً تبعاً لذلك . وما هو ذلك  
الأستاذ يوهان فوك - Johann Fock يقدم الدليل على ذلك فيما ذكره  
في كتابه - العربية - ؛ فإنه قد تناول الجديد في اللغة العربية غضر  
الإسلام ، فعصر الأمورين ، ثم عصر العباسيين ؛ وهذا الجديد يشتمل على  
ما استحدث من ألفاظ ، ومن عبارات ، وحتى من أخطاء .

وإذن فليس صحيحاً ما ذهب إليه القدماء أمثال ابن التديم <sup>(١)</sup> ؛ من أن  
اللغة العربية قد ثبتت بنزول القرآن الكريم ، وجدت من بعده ؛ بل أن  
صنيع القرآن نفسه يعتبر مرحلة من مراحل تطور اللغة العربية في ألفاظها  
وفي تراكيمها ؛ فقد رأينا مثلاً أسلوب القرآن وطريقته في استعمال  
ـ كاد - <sup>(٢)</sup> ؛ إذ أنه قد ضرب صفحياً عن استعمال العرب وديعاً لهذا الفعل

<sup>(١)</sup> انظر ما تقدم من كلام ابن التديم في كتابنا هذا ، اللغة والنحو ص ٢١، ٢٢، ٢٣.

<sup>(٢)</sup> انظر الإحصائية التي جمعناها في كتابنا هذا ، اللغة والنحو ، لاستعمال القرآن

بالنسبة للفعل - كاد - وما تفرع منه ص ١٣١، ١٣٢.

وتخير له أسلوبًا لم يشذ عنه في آية واحدة من آياته؛ ذلك أنه استعمل الفعل المضارع خبراً لقاد دون أن يكون مقترباً بأن المصدرية.

وَهَا هُوَ ذَا مِثَانٌ آخَرٌ نَفْعِيْهُ هُنَا إِلَى هَذَا الْمِثَانِ لِنَرِي إِلَى أَيْ حَدٍ كَانَ  
الْقُرْآنُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ يُلْتَزِمُ أَسْلُوبًا وَاحِدًا لَا يَجِدُ عِنْهُ فِي اسْتِعْمَالٍ فَوْلَى  
مِنَ الْأَذْمَالِ ، أَوْ تَرْكِيبٍ مِنَ التَّرَكِيبِ بِالرَّغْمِ مِنْ اسْتِعْمَالِ بَعْضِ الْعَرَبِ  
هَذَا التَّرَكِيبُ أَوْ بِذَلِكِ الْفَعْلِ اسْتِعْمَالًا آخَرٌ ؛ ذَلِكَ الْمِثَانُ هُوَ عَسْيٌ وَطَرِيقَةٌ  
اسْتِعْمَالِهِ . فَالنِّحَاةُ يَقْرَرُونَ أَنَّهُ يَغْلِبُ اسْتِعْمَالَ - عَسْيَ - فِي تَرْكِيبٍ يَكُونُ  
آخَرُ بَدْوَنَ أَنْ ، وَيَسْتَشَهِدُونَ عَلَى ذَلِكَ بِأَمْثَالٍ مِنْهَا هَذَا الْبَيْتُ :

وعن المكتب الذي أوصيتُ فيه : - يكون ورآمه فرج قریب . (١) وكذلك يبيت الفرزدق حين توعده الحجاج الثقى :

وَمَاذَا عَنِ الْحَجَاجِ يَلْعَجُ جَمْدَهُ وَإِذَا نَحْنُ جَاؤُنَا حَفِيرٌ زَيَادٌ  
اَمَّا الْقُرْآنُ فَنَدِ استعمالٍ — عَسَى — فِي ثَلَاثَتِينِ مَوْضِعًا لَيْسَ فِيهَا مَثَالٌ

(١) هذا البيت لشاعر من غذره كان يعيش في صدر الإسلام أيام معاویه ، واسمه مدبہ بن خشرم بن کرز ؛ وهذا البيت ضمن آیات قالها فی الحبس . (انتشار اخباره فی الشعرا و الشعرا لابن قتیبه تحقیق و شرح احمد محمد شاکر - طبع القاهرة سنة ١٣٦٤ ج ٢ ص ٦٧١ - ٦٧٦ )

واحد يكون الخبر فيه بحراً من - ان - . " "

" وها هي ذه إيمانية باستعمال القرآن للفعل عى :

البقرة	٢١٦	عسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم
.	٢١٦	وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم
النساء	١٩	فعسى ان تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً
.	٨٤	عسى الله ان يكف يأس الذين كفروا
.	٩٩	فأولئك عسى الله ان يغفو عنهم
المائدہ	٥٢	فعسى الله ان يأتي بالفتح او امر من عنده
الاعراف	١٢٩	قال عسى ربكم ان يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض
.	١٨٥	وان عسى ان يكون قد اقترب اجلهم
التوبۃ	١٨	فعوى اولئك ان يكونوا من المهددين
.	١٠٢	خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله ان يتوب عليهم
يوسف	٢١	اسكرى مشواه عسى ان ينفعنا او نتخدده ولداً
.	٨٣	فصبر جحيل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً
الاسراء	٨	عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدمتم عدنا
.	٥١	ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً
.	٧٩	عسى ان يبعثك ربك مقاماً محراً
الكهف	٢٤	وقل عسى أن يهدين ربى لا أقرب من هذا رشداً
الكهف	٤٠	فعوى ربى أن يؤتيني خيراً من جنتك
صريم	٤٨٠	وادعوا ربى عنى ألا أكون بداعه ربى شيئاً

وَمِنْ يَقْرَئُ أَمْرَ نَسْتَعْذِيَنَ الْقُرْآنَ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ ، بَلْ هَنَاكَ مَا هُوَ أَقْوَى فِي  
الْحِجَةِ وَأَوْفَضَ فِي الدِّلَالَةِ مِنْ هَذَا : ذَلِكَ أَنَّهُ أَثْرَ عَنِ الْعَرَبِ ثَلَاثَةَ طَرُقٍ  
فِي اسْتَعْذَالِ عَسَى ، الْأَوْلُ : هُوَ أَنْ تَلْتَزِمَ - عَسَى - حَالَةَ الْإِلْفَرَادِ وَالْتَّذْكِيرِ  
سَوَاءَ أَسْنَدْتَ إِلَى مَوْنَثٍ أَمْ مَذْكُورٍ ؛ وَسَوَاءَ أَكَانَ ذَلِكَ الْأَمْ الْمُتَقْدِمُ عَلَيْهِا  
مُفْرِداً أَمْ مُشْتَرِطاً أَمْ مَذْكُوراً ، فَيَقُولُ مَثَلاً : زَيْدٌ عَسَى أَنْ يَقْرَأُ ، وَالْزَّيْدَانُ  
عَسَى أَنْ يَقْرُئُ ، وَالْزَّيْدُونُ عَسَى أَنْ يَقْرُئُ ، وَهَنَدٌ عَسَى أَنْ تَقْرُئُ  
وَالْهَنَدَانُ عَسَى أَنْ يَقْرُئُ ، وَالْخَنَدَاتُ عَسَى أَنْ يَقْرُئُ ، وَهَذِهِ هِيَ لُغَةُ أَهْلِ  
الْحِجَازِ .

---

فَلَمْ يَكُنْ رَدْفَ الْكَمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْعَجُلُونَ	الْفَلْ	٧٢
لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعُنَا أَرْ تَخْذِدَهُ وَلَذَا	الْفَصْصُ	٩
وَلَا تُتْرَجِّهِ تَلْقَاهُ مَدِينٌ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِنِي سَوَاءَ السَّبِيلُ	٠	٢٢
فَامَا مِنْ تَابَ وَآتَنَ وَعِيلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ	٠	٦٧
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْتَهِنُوْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ	الْحِجَرَاتُ	١١
وَلَا نَاسٌ مِنْ نَاسٍ عَسَى أَنْ يَكُنْ خَيْرًا مِنْهُنَّ	٠	١١
عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مُوْدَه	الْمُتَّخِذِهِ	٧
عَسَى رَبِّهِ إِنْ طَلَقَكُنْ أَنْ يَبْدَلْهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنْ	الْتَّجْرِيمُ	٥
عَسَى زَبَّاكُمْ أَنْ يَكْفُرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَدْخُلُكُمْ جَنَّاتِ	٠	٨
عَسَى رَبُّنَا أَنْ يَهْدِنَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ	الْقَلْمَ	٣٢٠
قَالَ دَلِ عَيْتَمَ أَنْ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الشَّالَ أَلَا تَقْاتِلُوا	الْبَقَرَهُ	٢٤٦
فَهَلْ عَيْتَمَ إِنْ تَوْلِيتُمْ أَنْ تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ	مُحَمَّدٌ	٢٢٠

الثاني ، هو أن تغير عبئ بتغيير الاسم الواقع قبلها ، فتؤثر إن كان ثنا ، وتشير إن كان مثنى ، وتبجمع إن كان جمعاً ، وتفرد إن كان مفرداً  
ال مثل : زيد عبي أن يقوم ، والزيдан عبياً أن يقوموا ، والزيدون  
موا أن يقوموا ، وهند عبت أن تقوم ، والهندان عتنا أن تقوما ،  
لمندات عسين أن يقمن ، وهذه هي لغة بني تميم .

الثالث ، هو أن تسد - عبي - إلى ضمير مل جنس ضمير الفعل ،  
اقع خبراً لها ! فيقال مثل : عسانى أن أقوم ، وعسانا أن تقوم  
ساك أن تقوم ، وعساكم أن تقوموا ، وعسامم أن يقرموا ؛ وعساه أن  
م ... إلخ .

وقد أشار الزمخشري في كتابه - المفصل - (١) إلى هذه الطرق الثلاثة  
كرها باختصار دون أن يعين أصحاب كل طريق ، إذ يقول : « فصل ،  
رب في عبي ثلاثة مذاهب أحدهما أن يقولوا عسيت أن تفعل كذا ؛  
سيتا إلى عسيت وعيي زيد أن يفعل كذا وعييا إلى عسين وعسيت  
سينا - والثاني إلا يتجاوزوا عبي ان يفعل وعيي ان يفعلا وعيي ان  
وا والثالث أن يقولوا عساك أن تفعل كذا إلى عساكن وعساه ان يفعل

(١) - المفصل للزمخشري - ومعه كتاب الفيصل بشرح المفصل للأستاذ محمد  
الدين عبد الحميد . ج ٢ ص ١٦٣، ١٦٤ .

إلى عاصم وعسانى أن أقبل وتمهناً إن ينحرى .

وأمام هذا نجت أن القرآن قد أفهم في تبیره أسلوب المجازيين على  
حول الطريق لم يشد عنه حتى في الآيات التي يسبق المفعوم فيها - عى -  
وذلك في ثلاثة مواضع : الأولى آية ٩٩ في سورة النساء ، والثانية ، آية ١١  
في سورة الحجرات ، والثالث : نفس الآية أيضاً من سورة الحجرات ، ثم  
أن القرآن ، مع الزامه لأفراد - عى - ، لم يلتجأ إلى الاستعمال الثالث ،  
وهو إسنادها إلى ضمير الفعل الواقع بعدها ، إلا في آيتين اثنتين وهم آية  
البقرة ٢٤٦ ، وآية - محمد - ٢٢ ، وذلك بسبب لغلي و واضح ، وهو أن  
- عى - قد فصل بينها وبين خبرها بجملة طريرة فائمة - عى - إلى الضمير  
حتى لا يؤثر هذا الفصل في السياق ، وكثيراً ما يلاحظ القرآن في تعبيراته  
الناجحة الفظوية ، وموسيقى الآيات . وقد لاحظ الفراء هذه المسألة في كتابه  
معانى القرآن - الذي لا يزال مخطوطاً ، وشرحها شرعاً بيضاً ، وذكر لها  
عشرات الأمثلة في القرآن من ذلك قوله تعالي : والليل إذا يسر ، بدل  
يسرى ، وقوله والذي خلقني فهو يهدين ، والذى يتعلمنى ويسعى وإذا  
مرضت فهو يشفين ،

ولعل هذا يدعونا إلى التفكير مليأً فيها ذكره النحاة رفـرـنـاهـ سـابـقاًـ منـ  
أنـ لـلـعـربـ مـذـاـهـبـ ثـلـاثـةـ فـيـ اـسـتـعـالـ - عـبـىـ - لـذـ أـنـاـ لـمـ نـجـدـ فـيـ اـطـلـعـنـاـ عـلـيـهـ  
مـنـ كـنـبـ النـحـوـ ، وـالـأـدـبـ وـاـتـارـيـخـ ، وـالـقـرـاءـاتـ ، مـاـ يـشـتـرـىـ إـلـىـ . أـنـ هـذـاـ

الاستعمال الثالث كان خاصاً بقوم بعضهم من العرب ، ونحن لا نستطيع أن نتصور ذلك لهجة من لحباب العرب ، أو لغة من لغات إحدى القبائل العربية ، وهذا في نظرنا لا يعدو أن يكون وليداً لفروف الكلام ، والمتكلم ورعاة لحالة السامع أيضاً ، وليس فيه شيء من طبيعة لغة خاصة ، أو قبيلة بعينها ، سكماً نلاحظ ذلك في لغة المحاجزين ؟ أو في لغة التيميين ؟ حيث تهض كل لغة على فروق جوهرية . وإذا فليس هناك سوى لغتين .

لغة الإفراد في عـ، ولغة المماقبة ، وقد التزم القرآن الأولى منها . وما ذكرناه حتى الآن يدل فيوضوح على مدى اختلاف الأساليب في اللغة العربية ، وعلى مبلغ الجهد الذي ينبغي أن نوجهه لدراستها ، ثم على مقدار ما يمكن أن نجنيه من وراء تلك الدراسة ، وذلك ، دون ريب ، على ضوء ما قدمناه من تمييز ، ودرس ، وما ذكرناه من ملاحظات ؛ وسجيناها من نتائج أثناه بحثنا في النحو بعيناه الفنى .

علينا إذن أن نجرد أنفسنا من تلك الأفكار التقديمة وأن ننظر إلى اللغة العربية ونحوها نظرة جديدة أساسها الإحساس الفطري ، والواقع المأمول . وعلينا إذن أن ندرس اللغة والنحو دراسة واقعية فلا نخاول أن نرجع بها إلى العصور الجاهلية الأولى كما يصنع بعض النهرين الآن ، فإن هذه اللغة نفسها قد استطاعت أن تسير الحياة ، وما جد فيها من تقدم في كل نواحي المعرفة الإنسانية ، فيما ترب من أربعة عشر قرناً من الزمان ، وألسنا نشك في أن كل عصر من

هذه المصور قد طبع اللغة بطبع جديـد ، وترك فيها آثاراً عديدة . وقبل أن نختتم كلـتـنا هذه عن نتـيـجةـناـ المـاتـقدـمـ نـحـبـ أنـ نـذـكـرـ القـارـيـهـ بـأـنـ كـلـ ما ذـكـرـناـهـ خـاصـهـ بـالـنـحـوـ إـنـماـ نـقـصـدـ مـنـهـ النـحـوـ بـعـنـاهـ الفـنـ ؟ـ أـىـ طـرـقـ الـادـاءـ وـالـتـعبـيرـ نـفـسـهـ ؟ـ وـإـنـماـ النـحـوـ بـعـنـاهـ الـعـلـىـ فـسيـكـونـ لـنـاـ مـنـهـ مـوـقـفـ آـخـرـ إـنـ شـاءـ اللـهـ .



## النحو بمعناه العلمي (١)

النوع الثاني من النحو ، وهو النحو بمعنىه العلمي ، يقصد منه استنباط واعد النطق الصحيح بناء على دراسة اللغة وفهم أساليبها وإدراك أسرار ملرق الأداء فيها ، ثم تسجيل هذه القواعد لدراستها .

ولشأة هذا العلم بالنسبة للغات العديدة ، مختلفة من حيث الظروف التي يجد فيها ومن حيث طبيعة العلم نفسه ومادته .

والأسباب التي دعت إلى لشأة النحو عند الشرقيين عامة تكاد تكون واحدة ، ولكنها في نفس الوقت تختلف في الأسباب التي دعت إلى لشأة نحو عند الغربيين . فيينا نجد الشرق يحدوه في وضع هذا العلم عاملاً روحيّاً ، فإذا بنا نجد الغرب يحدوه في ذلك عاملاً لغوياً بلاغي اجتماعي : المحدود حينما بدأوا يضعون نحوهم ويفكرون في مسائله كان هدفهم من ذلك المحافظة على لغة كتبهم المقدسة - *Vedas* - وشرح أساليبه .

وكذلك الأمر بالنسبة للنحو السرياني : فعند ما وجد السريان ، سواء منهم النسطوريون أم اليعقوبيون ، أن الفتح العربي قد امتد إلى

(١) انظر ص ٧٨ وما بعدها من هذا الكتاب

ييداتهم وإن اللغة العربية بدأت تتنافس لقفهم ، فزعوا من ذلك وبخافوا على كتابهم المقدس - الإنجيل - من أن تتمتد إليه يد التحرير فأخذوا في وضع قواعد لغبطة اللغة كي تحدد الطريقة التي تقرأ بها نصوص الإنجيل .

وكان المؤسف، على نصوص القرآن أولاً هو الذي دفع العرب إلى التفكير في وضع النحو وقواعدة : ونحن نورد هذا الرأي معتمدين في ذلك على الاتجاه العام عند الشرقيين في وضع أساس هذا العلم ، ومستندين إلى الروايات العديدة التي تؤيد هذا بالرغم من الروايات الأخرى التي تتلس لوضع النحو الغربي أسباباً غير تلك الأسباب ، لأن بعد حلاً لذكرها الآن ، وسنعرض لها بالتفصيل بعد قليل .

أما اليونانيون فلم يكن المحفز لهم على وضع هذا العلم خوفهم من أن يتسرّب اللحن إلى لقفهم ، ولا حرّصهم على نصوص مقدسة لديهم ؛ فقد كانت اللغة اليونانية يوم ذكرها في وضع هذا العلم بـ القرن الخامس قبل الميلاد - في منتهى القوة والكمال . وإن لم يكن لها ما ينافها من اللغات الأخرى ، ولكنهم كانوا مدفوعين إلى ذلك أولاً بسبب رغبتهم في شرح شعر هوميروس وفهم أساليبه ، وثانياً لنشأة جيل يوناني قادر على تصريف أوجه الكلام وإقناع الجماعات في خطبهم السياسية والقضائية .

ولأسباب تكاد تكون مشابهة لذلك نشأ النحو اللاتيني ، فالروم فوق رغبتهم في تقليد اليونانيين بالنسبة لهذا العلم ، أرادوا ثبيت لقفهم

شرح أساليبها وأرجده ابتهال فيها . وأول محاولة لهم في ذلك كانت في  
نرن الثاني قبل الميلاد .

وهذه الظاهرة المعاصرة بنشأة علم النسخو ليست في الواقع سوى جزئية من  
آخرة عامة تسود الشرق بحمله ، وظاهرة عامة أخرى تسود الغرب بحمله ،  
ذ القدم والشرق يحدوه في تفكيره وفي أنظمة الاجتماعية وفي فلسفته وفي  
ومه معنى روحي يتخلع دائمًا إلى أنسنة : إلى الله ، إلى حياة أخرى لا خطر  
مادية فيها ، وكل ما شاهدناه من آثار حضارات الشرق ومن إنتاج عقلي  
له الشرقيين إنما هو ناتج عن هذا المعنى الروحي ، سواءً كان ذلك عن طريق  
أشراف عن طريق غير مباشر . فكان الملوكيون منهم يمثلون الآلة على الأرض وأنظمة  
دول وقوانين المجتمع مستمدة من الآلة أو من عشلهم . وهكذا في  
نور النواسى مما يدل على تغلغل هذا المعنى في البيشبات الشرقية وتمكنه في  
روس الشرقيين ، حتى لقد أصبح في سكير من الأحيان مظهر التقدم  
الشرق والطابع الغالب في الثقافات الشرقية ، ولهذا فليس عن طريق الصدفة  
، كان الشرق مهد الأديان ( سواءً في ذلك الأديان الوثنية أم الأديان  
يهودية ) . وال المجال هنا واسع لدرس هذه النظرية وتحليلها ثم إثباتها  
بأية للتصور التاريخي مدعمة بالأدلة ، ولكن ليس هنا مكان ذلك  
صل العنكبوت والبحث التحليلي الدقيق ، غير أننا نكتفى بالإشارة فقط  
، أن الشرق بوجه عام قد من برهانين واضحتين وهو في كثريها كان متاثرًا

إلى حد بعيد بذلك المعنى الروحي ولا تكاد نحس بأثر السُّلْطَان المادي في  
هاتين المرحلتين الطوبيتين :

## المراحلة الأولى

هي مرحلة الديانات الوثنية على اختلافها من عبادة السَّكواكب ،  
والنار ، والملك ، والحيوانات ، والنباتات وغير ذلك من القوى الطبيعية  
مثلة في أوثان . وكانت الزعامة لهذه الديانات تكاد تكون محصورة في  
بلدين اثنين ، إحداهما وادي النيل ، والثانية وادي دجلة والفرات .  
وحضارات هاتين البيئتين قدماً تفيض بذلك المعنى الروحي الذي أشرنا إليه  
ولا ترك مجالاً للشك في تغليب السلطان الروحي ، وفي استلام الروح لوضع  
أنظمة المجتمع .

## المراحلة الثانية

هي مرحلة الأديان السماوية على اختلافها أيضاً من يهودية ومسيحية  
وإسلامية . وكانت الزعامة لهذه الأديان محصورة بدورها أيضاً في بلدين  
اثنين ، إحداهما بيته الشام ، والثانية أرض المجاز في شبه الجزيرة  
العربية ، والتابع الغالب في هذه الأديان أيضاً هو طابع روحي ، إذ أنها  
تجه بنظر الإنسان وتفكيره أولاً إلى القوة الخالقة والمحببة على هذا  
الكون ، ثم أنها تهدف أول ما تهدف إلى إصلاح الروح عند الإنسان ،

مقدمة بأن إصلاح المجتمع لا يمكن أن يتحقق إلا على أساس الإصلاح الروحي . وعلى العكس من ذلك كله نجد المعنى المادي الواقعى سائداً عند الغربيين وأساساً لحضارتهم ولإنتاجهم التكنولوجى حتى فيما من شأنه أن يكون خاصاً بالمعنى الروحى كالآديان ، فإنهم صوروها في كثير من الأحيان تصويراً مادياً وجعلوا منها أداة لرق المجتمع المادى قبل أن تكون أداة للإصلاح الروحى .

• \* \* \* \*

نعود الآن إلى موضوعنا الأصلى وهو نشأة النحو العربى ، ومن هذا العرض الذى بسطناه آنفأ عن ظاهرة الروحية العامة عند الشرقيين يتضح لنا أن المخافر الأولى الذى دفع العرب إلى التفكير فى وضع علم النحو هو الخوف على نصوص القرآن من أن تتمتد إليها يد التحرif . وهذا هو الرأى الذى نطمئن إليه ونؤيده الواقع ، وسنحاول إنما به توفر لنا من اطلاع وبما استطعنا أن نهتدى إليه من استنتاج ، وفي توضيح هذه المسألة والاهتداء إلى رأى فيها توضيح لمسألة أخرى شائكة ، قد كثر فيها الكلام ، وطال الجدل ، ولم ينته العلماء فيها إلى رأى قاطع . تلك هي مسألة تاريخ نشأة النحو العربى .

وهنا قبل أن نبدأ الكلام على سبب نشأة النحو العربى ، وتاريخ تلك النشأة نحب أن نقضى على روح التشاوف التى تسيطر على أفكار بعض

العلماء بالمحدثين . تلك الروح التي لا يقرها العالم في مختلف صوره ، ولا تعرف بها مناهج البحث الحديث ؛ وأنه نبع من حسابنا تلك الفكرة القائلة باستحالة الافتراض إلى تاريخ وضع النحو العربي ؛ وتعذر معرفة واضعه . فها هو ذا الأستاذ مصطفى صادق الرافعي يذكر في جرأة وصراحة هذا النص : « أما تاريخ وضع النحو فلا سبيل إلى تحقيقه أبداً »<sup>(١)</sup>

ثم يذكر الأستاذ إبراهيم مصطفى نصاً آخر في هذا المعنى مستنداً فيه على نفس المؤلف المتقدم « إن معرفة ووضع النحو في العربية يكاد يكون معضلة »<sup>(٢)</sup>

هذه الأفكار وأمثالها ، عندنا بعشر الشرقيين ، مشبطة للهم مدعاة إلى التواكيل والاسلام . وليس أخطر على الشرق من أن تنشر فيه هذه الروح ، وأن تعرف عنه تلك العقبة ، لأنها تجعل الشرقيين يفقدون الثقة في أنفسهم ، وحيث لا مناص لهم من الاعتماد على الغير يأخذون ، ويذرون بأبحاثه ، ثم لا يكون لهم من الجرأة الفكرية ما يستطيعون

<sup>(١)</sup> انظر الجزء الأول من تاريخ آداب العرب. ٢٦٦-

<sup>(٢)</sup> انظر بحث الأستاذ إبراهيم مصطفى عن - أول من وضع النحو - في مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد في المجلد العاشر ، الجزء الثاني ديسمبر

بواسطتها تحليل هذه الأبحاث ولا تغدوها كما صنعت ، ويصنع الغرب حتى الآن ؛ وليس أدل على ذلك من تلهف الشرقيين على أبحاث المستشرقين وعلى آرائهم يأخذونها في كثير من الأحيان حجوة مسلمة دون مناقشة ؛ بل ربما تدحروا بذكرها والاطلاع عليها .

بعد هذه الملاحظة الخاصة بالروح العامة عند الشرقيين ، وبعد الدراسات الطويلة لتأريخ العلوم عند العرب ، وإدراكنا مبلغ حرصهم على الآثار الدينية ؛ نستطيع أن نؤكد بأن السبب المباشر في وضع النحو هو فزع العرب وخوفهم من أن يتسرّب الخطأ والمعنى إلى نصوص القرآن .

وإذا كان هناك ما يفهم منه حرصهم على اللغة نفسها ، فليس ذلك إلا لأن اللغة أداة لقراءة النصوص القرآنية

ولو نظرنا نظرة إجمالية إلى العلوم العربية في العصور الإسلامية الأولى ، وجدنا أنها نشأت خدمة للقرآن أو تفرعت عن نصوصه ، إذ أن القرآن كان بثابة المركز الرئيسي : كل المعارف العربية مجندة له ، وكل العلوم العربية الخالصة محيطة به . ولم يكن النحو في الواقع سوى حلقة هامة نسيلة تلك العلوم التي تخدم القرآن ، وتحافظ على نصوصه .

والذين يقولون غير ذلك تهوزهم الفكرة العامة ؛ والنظرة الشاملة لنسبة للعلوم الإسلامية كلاما . ثم لازم -- في اعتقادنا -- لا يستندون ما يقولون على رأى ناضج ، ولا على منطق سليم . ولعل أعلم وأكثر

الأخفاء التي نقع فيها إنما مصدره النشرة الجزئية التي تنصب على ناحية  
ساحمة دون اعتبار المكتبات .

ولو كان مجرد اللحن في الملة مدحًّا لوضع التحرر لوجدنا عسل الأقل  
محاولات فيه أيام الرسول صلى الله عليه وسلم أو أيام الخلفاء الراشدين  
من بعده ؛ إذ أن اللحن موجود في البيئة العربية منذ ذلك التاريخ  
بل نعتقد أنه أقدم من ذلك عمداً ، فالبيئة العربية منذ مئات السنين قبل  
الإسلام كانت تعتبر مأوى للهاجرين وطلاب الكتب من الأمم الأخرى  
مثل اليهود والفرس والأجفاس والروم .

ولازيد أن نذهب بعيداً فنذكر هجرة الآشوريين والبابليين منذ ألفي  
سنة تقريباً قبل ميلاد المسيح . ولم يكن عزلاء ولا أوائل يتكلمون  
العربية حتى يتزهرون عن المكنته الأجنبية ويسلم منطقهم من اللحن  
والأنطاء . ومن يدرس الحالة الاجتماعية للقبائل العربية قبل الإسلام ،  
ويبحث على الخصوص في الحالة التجارية التي تسيطر على كل نشاط آخر  
في شبه الجزيرة العربية ، أو يلاحظ حركة الأسواق السنوية «)» إن تمام

---

(«) اختلف العلماء في عدد أسواق العرب ، فيعدها القلقشندي في صبح  
الأشعرى ٨ ، ويعدها البيهقي في تاريخه والبغدادي في خزانته ١٠ ، ويعدها  
المزوقي في الأزمنة والأمكنة ١٧ ، ويعدها الأنوسى في بلوغ الأرب ١٤ ،

في أكثر من عشرين مدينة تجوب بشبه، الجزرية من كل نواحيها — من شواطئ البحر الأآخر إلى شوابلي، الشحيل المندلي، إلى شواطئ الخليج الفارسي إلى الباذية الشمالية الواقعة المسندة من ريف العراق إلى بلاد الشام — ويعرف مبلغ ما كان يحدث في هذه الأسواق من اختلاط العرب بغيرهم من اليهود والغرس والروم، وما يتبع ذلك من استيطان بعض هؤلاء

— ويعدها الهدانى فى صفة جزيرة العرب ٥٠ ، ويعدها الأستاذ الإفغاني  
فى أسواق العرب ٢٠ .

وستذكر بعضاً من هذه الأسواق تاركين الخلافات الكثيرة بين المؤلفين

## القدمة :

١ دومة الجندل : وهي في منتصف الطريق بين البصرة والعقبة ، وكانت تقام في أول ربيع الأول حتى متعدده وأحياناً حتى آخره .

٢ المشقر : بالبحرين قريباً من هجر على شواطئ الخليج الفارسي ، وتبعد  
السوق من أول جمادى الآخرة وتستمر حتى نهايةه .

٣ هجر : وهي بالبحرين أىضاً على شاطئ الخليج الفارسي ، وتبعد حيث تنتهي سوق دومة الجندي ، فكانوا ينتقلون إليها مباشرة في أول ربيع الثاني

٤ عمان : في جنوب الخليج التارسي وتقع على ساحل بحر العين ، وتبدأ حيث تنتهي سوق شيبه ، وتمتد حتى آخر جمادى الأولى ورزاوها فرس وهنود وأحباش وينيون وجحازيون وشاميون

الأجانب في المدن التي تقام فيها الأرواق قياماً بالتجارة أو طلباً للكسب عن أي طريق آخر ، نقول أن من يدرس هذه الحياة الاجتماعية ويلاحظ ما كان فيها من ذلك لا يخسره أذن شك في أن المجتمع العربي القديم كان يجري فيه اللعن على السنة دولاً، الأجانب ، وربما على السنة بعض العرب أنفسهم الذين يسكنون من ممالكه دولاء الأجانب ، والذين لم يكونوا من السادة ، ولا من المطوفين في المحافظة على المسان العربي ، وفي استقامة

|

- 
- ٦ جاشه : في نهاية فيها بين الحجاز وأبين وكانت تقام في رجب
- ٦ صحار : في أرض عمان وهي واقعة على شاطئ خليج عمان ، وتقوم السوق من ١٠ رجب إلى ١٥ منه أي بعد انفلاض سوق جاشه .
- ٧ دباً أودبي : في أرض عمان أيضاً وتقوم سوقها بعد انفلاض سوق صحار وتسمر حتى منتصف شعبان ، وهي تقع أيضاً على الساحل شمال صحار .
- ٨ الشحر : على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية بين عدن وعمان وتقوم سوقها في منتصف شعبان .
- ٩ عدن أبين : تقع على بحر الهند جنوبي مضيق باب المندب نحو الشرق وتقوم سوقها بعد الشحر في مدة العشر الأول من رمضان .
- ١٠ صنعاء : في بلاد اليمن ، وهي العاصمة وسوقها تقام من رمضان حتى آخره .

التركيب الصحيح . وينبغي أن نطمئن تماماً إلى أن ما وصل إلينا من النصوص الأدبية القدمة لا يمثل اللغة العربية تثبيلاً صحيحاً كاملاً . فإن لغة الشعر غير لغة الخطاب ; والعبارات التي تروي وتؤثر غير العبرة . أرات أنني يتم بها التفاصيل وأحاديث السادة غير أحاديث السرقة ، وينبغي أن نعزم أيضاً إلى أن بعض العرب كان يستكمل وجود اللحن في اللغة ويترنم من سماعه ، فلم تكن غيرة الرسول ﷺ ، والخلفاء الراشدين من بعده على سلامة النطق ولهم أيامهم

---

١١ حضر موت : وهي منتفقة واسعة في جنوب شبه الجزيرة بين عدن وعمان ، وسرقه تقام على راية بها ، فتعرف أيضاً بسوق الراية من ١٥ ذى القعدة حتى آخره . ورماها الواسحة تعرف بالاحتفاف .

١٢ عكاظ : بين مكة والطائف وهي السوق العامة للعرب في الجاهلية وهي تقام في ذى القعدة ، ويرى أكثر الرواة أنها تبدأ أول العدة إلى منه ٢٠

١٣ بجنة : شمال عكاظ قرب مكة وتنوم السوق في العشر الأخير من ذى القعدة بعد انتهاء سوق عكاظ .

١٤ ذي الحجاز : شمال غرب بجنة وتنوم سوقها في أول ذى الحجة بعد انتهاء سوق بجنة مباشرة .

١٥ نطة خبيب : وتحتبر قرية شمال المدينة ؛ يذهبون بين تبوك . ونطة اسم حصن بها ، واسم عين أيضاً . وفي القرية حصون كثيرة لليهود ، وأهلها يهود جاءوا إلى الحجاز قديماً واستغلوا بالزراعة والتجارة .

كُنْ لَمْ يَكُنْ التَّحْرِيفُ فِي عَدْمِهِ بُذْرَةٌ جَنِيدَةٌ لَمْ يَسْبِقْ خَاتَمَشِيلٍ ، وَيَلْبَغُ أَيْضًا  
أَلَا نَسَلَّمُ الْفَاقَاتَيْنِ بِعَصْمَةِ الْأَرْبَيِّ مِنْ الْتَّلْحُنِ ؟ وَيَبْعَدُ الْمَلْغَةُ فِي الدَّوْصَرِ الْجَاهِلِيِّ عَنْ  
أَى تَحْرِيفٍ : فَهَذَاكُمْ مِنْ أَسْرَارِ اللِّغَةِ وَدَفَّاتِقِ التَّعبِيرِ مَا لَا يَمْكُنُ أَنْ يَدْرِكَ  
بِتَأْمُلٍ ، وَبِنَفَّاعَةٍ ، وَمِنْ إِنْ . وَإِمَانَةٌ مِنْ ذَلِكَ صُورَ حَيَّةٍ فِي الْلُّغَاتِ الْمُدْيَةِ  
الَّتِي يَعْرُفُ أَهْلُهَا بِلَا اسْتِدَاهَ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَسْلِمُ لِسَانُهُمْ مِنْ  
الْخَطَا ، وَلَا يَتَفَعَّلُونَ جَمِيعًا عَلَى النُّطُقِ الْمُسْجِعِ ، فَإِنَّ الْعَرَبَ إِذْنَ رَهْمِ قَوْمٍ  
أَغْلَبُهُمْ أَمْيَوْنٌ ؟ وَكَانُوا يَمْيِيشُونَ قَبَائِلَ مُتَفَرِّقةً ؟

وَلَكِي نُرِى إِلَى أَى حدَ كَانَتْ بِلَادُ الْعَرَبِ مَعْرُوضَةً بِنْجِيَّهِ الْأَجَانِبِ يَسْكُنُونَ  
أَنْ نَعْرُفُ مَا كَانَ يَوْجِدُ فِي مَكَّةَ نَفْسُهُمْ مِنْ بَيْوتِ تِجَارِيَّةٍ لِلرُّومِ الَّذِينَ كَانُوا  
يَسْتَخْدِمُونَهَا فِي أَغْرَافِ أُخْرَى كَالْتِجَسْسُ عَلَى الْعَرَبِ ، وَكَذَلِكَ مَا كَانَ فِيهَا  
مِنْ أَجْيَاشِ أَيْضًا يَقْوِمُنَ مقَامَ السُّفَراَءِ فِي الشَّشَنِ التِّجَارِيَّةِ بَيْنَ الْعَرَبِ وَأَهْلِ

---

وَكَانَتْ مِنْ أَغْنَى بِلَادِ الْعَرَبِ ، بِلْ هِيَ مَصْرُوفُ الْجَزِيرَةِ الْمَالِيِّ . وَنَسْوَقُهَا  
تَقَامُ بَعْدَ ذِي الْحِجَازِ أَى بَعْدَ أَشْهُرِ الْحِجَاجِ .

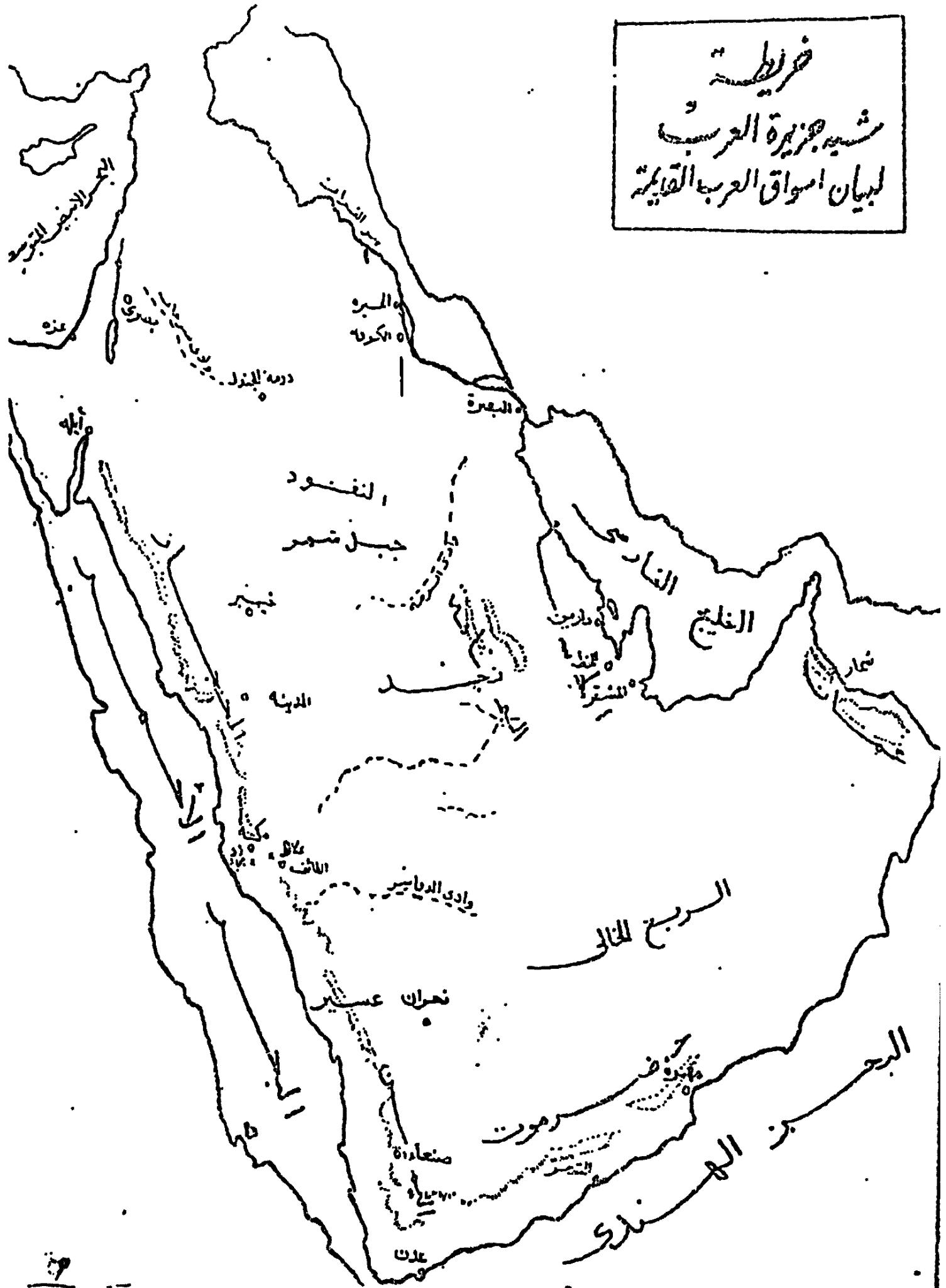
١٦ حَجَرٌ : فِي بِلَادِ الْيَامَةِ وَهِيَ غَربُ الْبَحْرَيْنِ وَجنُوبُ الْعَرَاقِ ،  
وَكَانَتْ تَقَوْمُ بَيْنِ عَاشُورَاهِ وَآخِرِ الْمُحْرَمِ ،  
١٧ بَصْرَى : فِي مَشَارِفِ الشَّامِ ، وَهِيَ عَاصِمَةُ صُورَانِ .

•

•

•

فخر لبلدة  
شيفه جمهورية العرب  
لبيان اسوق العرب القديمة





إن من يلاحظ كل هذه الاعتبارات ، ويدرك مداها ، يستطيع في سهولة أن يتصور مبلغ ما كان فاشياً من اللحن في البيئة العربية قبل الإسلام . فهو بلا شك أكثر ما تحدث عنه الرواية ، ووصل الينا صدراه .

وهناك ظاهرة اجتماعية أخرى عند العرب جديرة بالاعتبار فيما نحن بصدد الحديث عنه ، إذ أنها تربينا بصورة واضحة مقدار تعرض المدن لعربية إلى استيطان الأجانب ، وبلغ ما يمكن لهؤلاء الأجانب من أثر على اللغة ، تلك هي ظاهرة الفتيات الأجنبية ، من روميات إلى فارسيات إلى جيشيات ، اللائق كن يقمن في البيئات العربية ، إما في صورة إماء ، إما لاحتراف منه البغاء . وكان ذلك فاشياً عند العرب في الجاهلية أكثر مما نستطيع أن نتصوره . ونعتقد أن سادة العرب ، ورؤسائهم التبائل كانت نر لا ولن تكون الفتیات هذه المهمة ، إذ إننا نجد البغایات يقمن في أسواق العرب ، على الخصوص في سوق دومة الجندي ، أخبية خاصة لمباشرة هذا العمل .

(١) انظر في الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص ١٥

وقد عرف كذلك أن أول غزوة لبلاد العرب قام بها الروم في عهدمبراطور أغسطس كانت قائمة على صلاتهم ببلاد العرب وأغاراهم فيينا ولد تحدثت كتب التاريخ اللاتينية عن هذه الحلة الحربية ، وعزت سبب لها إلى عدم أخلاص أعواهم وجواسيسهم في بلاد العرب .

ونعرف أن بعض العرب كان يتنصل من هذه الأمانة مورداً للنكتة : ولم يكن ذلك قليلاً أو نادراً ، بل لين اختيام الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه المسألة وهي القرآن عنها « ولا تکرروا فتیانکم على البغاء إن أردنا تحصناً لنبتغوا عرض الحياة الدنيا : ومن يبتکرون فإن الله من بعد إکراههن

غفور رحيم <sup>(١)</sup>

وحسبنا في هذا أن نعلم أن أم عترة بن شداد كانت جبشية اسمها زبيدة ، وأن أباها لم يلحقه بذنبه إلا بعد أن ظهرت موالعه في ميدان الرجولة؛ وفي ميدان الأدب ، وقد توفي عترة هذا في سنة ١١٥ هـ . ثم في أيام ظهور الإسلام نجد صحيفاً رومي ، وبلاط الجبشي ، وسلمان الفارمي : وغير هؤلاء وأولئك كثير من أبلوا في المحن الإسلامية الأولى بلاء حسناً ، وكان السادة من قريش يسمونهم أراذل الناس . وإنما يُلغي عننا كذلك ما كان في شمال بلاد الحجاز من جالية يهودية كبيرة ، وما كان لها من صلات تجارية وثقافية متبادلة مع من جاورها من العرب .

لكل هذه الاعتبارات لا نستطيع أن ننفي وجود اللحن في البيئات العربية قبل الإسلام ، ولا في عهد الرسول ؛ وعهد الخلفاء الراشدين من بعده . ولا نستطيع كذلك أن نقلل من كمية ما كان موجوداً في تلك العبود من لحن في اللغة العربية . وإذا كان الرواة قد حدثونا عن حوادث فردية . وقع

---

<sup>(١)</sup> انظر أسواق العرب للأفغاني ص ٤٥ : ص ١٩٩ - ٢٠٠

اً لحن أمام الرسول وأمام الخلفاء الراشدين من بعده ؛ فثاروا له ونبهوا ، إصلاحه فلنشق بأنّ أمثل هذا اللحن كان كثيراً . غير أنّ هذا اللحن كثرته لم يكن ذا خطر ، ولم يكن هناك ما يخشى عليه من هذا اللحن . لقرآن كان محفوظاً في ذاكرة الصحابة من العرب الخاص . ولم ينتشر ظهه بين الكبير من التلبيقات إلا بعد أن اتسعت الفتوح الإسلامية ، متقد نفوذ الإسلام . وحينئذ يأتي دور اللحن الخطير ، ويُخشى منه على صوص القرآنية فيزع العرب كما فزع الهنود والسريان من قبلهم ؛ ويجهرون بمسوئ الوسائل لوضع ضوابط تحفظ القرآن من هذه الأخطار .

والنتيجة التي نريد أن ننتهي إليها من وراء هذا العرض هو أن السبب اشر في وضع النحو العربي ليس اللحن نفسه ، وإنما هو الخوف على يات القرآنية من أن تتمدد إليها يد التحريف ، أن ذلك لم يكن بطبيعة الحال كان العرب مستقرين في بيئتهم الأولى ، ودولتهم تكاد تكون محصورة بيضة الحجاز ؛ بل كان ذلك حينما انتقل سلطان الدولة الإسلامية إلى لات غير عربية ، وخضع لهذه الدولة أفواج عديدة من الأجانب فرس ، وسريان ، وعبرانيين .

### زينة اللحن في العربية :

ليس من السهل أن تورخ اظهارة اللحن متى وجدت ، كما أنه ليس من سهل أن تورخ لأفراده ، أي ، أية لحنة وجدت أولاً ، ولكن من اليسير

أن تورخ لأنواعه ، بمعنى أن نوع من أنواع اللحن يمكن أن يكون قد وجد أولاً - وقبل أن نعرف اللحن ون TORX معرفتنا به نحب أن نهد لذلك بالكلام عن أنواع اللحن : وهذه الأنواع يمكن أن توضع في أربع طرائف :

**الطائفة الأولى** : لحن يخص علامات الإعراب مثل : متعلمين <sup>(١)</sup> ،

ومنترين <sup>(٢)</sup>

**الطائفة الثانية** : لحن يخص طريقة النطق كأن ينطلق بالحاء هاء ، أو بالقاف كافاً كنطق صهيب وبلال .

**الطائفة الثالثة** : لحن يخص بذية الكلمة مثل توضيت بدل توضأت <sup>(٣)</sup> .  
ومعايش بدل معايش .

---

(١) إشارة إلى ما روى من أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه من قوم يرمون ، فاستتبع رميم ، فقال : ما أسوأ ربيكم ! فقالوا : نحن قوم متعلمين (بدل متعلمون) فقال عمر : لعنكم أشد على من فساد رميكم .

(٢) إشارة إلى لحن وقع من أبي حنيفة في هذه الكلمة ، حيث يذكر أبو هلال العسكري في كتابه - المعجم في بقية الأشياء - ص ٢٨ ، ٢٩ ، خبراً مسندآ يتهى فيه السند إلى أبي عثمان المازني وسنعرض لهذا الخبر بالتفصيل بعد قليل .

(٣) هذه لخنة منسوبة إلى الحسن البصري : ونبياني الكلام عليها بعد قليل .

الطاقة الرابعة : لحن يخصر وزن الكلمة مثل : رعد وبرق بدل أرعد وأبرق . . وما شاكل ذلك .

وسيتبين لنا بعد قليل أن هذه الأنواع الأربع من اللحن يمكن أن تؤول إلى نوعين اثنين : إذ أن نوع اللحن الخاص بنطق الأجانب ، والذى هو ولد التكوين资料ى للقنوات الصوتية ولخارج المروف فيها يمكن أن يصرف عنه النظر ، ولا يعد لحنًا مستقلًا بذاته ، وهذا ذكر أهله رجال اللغة ، ولم يلقو إليه بالاً ; وكذلك لم يكن له من المطر على اللغة ما يخشى منه ، فلم يقابل من العرب الخلص قبل الإسلام وبعده بمثل ما كان يقابل به أي نوع آخر من أنواع اللحن .

وأما الطاقة الثالثة والرابعة فيمكى اعتبارها نوعاً واحداً من اللحن إذ أن اللحن في بنية الكلمة لا يكاد يفترق عن اللحن في وزنها ، وسيظهر بعد قليل أن خطرهما واحد ، وأنه في درجة أقل من اللحن في الإعراب ، ولذلك فنحن أمام نوعين من اللحن هما : اللحن في علامات الإعراب ، والحن في بنية الكلمة أو في صياغتها ؛ ومع ذلك فأننا نستطيع أن نقول ، على ضوء ما تقدم ، إن لكتة النطق هي التي يمكن أن تكون قد سبقت كل الأنواع الأخرى . ولم تكن فيها نظر عظيمة الخطر ، بل كان لا بد للعرب الخلص أن يتجاوزوا عن ساعتها ما داموا قد أجازوا للأجانب أن يقيموا فيها بينهم .

.. ثم يأتي اللحن في علامات الإعراب بنوعيها : حروف وحركات وكان هذا النوع أشد الأنواع على أذن العربي الحالى وأخطرها على اللغة الفصحى . وأخيراً يجيء النوعان الآخران ، ويعتبر خطرهما في المرتبة الثانية .

والذى أفسع العرب وجعلهم يفكرون في وضع ضوابط هو النوع الثانى من الأنواع الأربع . وذلك لأن نصوص القرآن كانت مدونة ، ولا سبيل للخوف عليها من ناحية بنية الكلمات . وإنما الخوف كان من ناحية الشكل الذى لم يكن قد ثبت بعد . وبعد ضوابط الشكل فكرروا في ضوابط البنية . وليس من شك في أن طبيعة صنيع العرب في الضبط تدل على آخر الأنواع ، فالاهتمام الأول كان منصباً على الشكل أى على علامات الإعراب . ثم يجيء الاهتمام ببنية الكلمة فيوضع نقط الإعجام . وليس من شك كذلك في أن الخلط في علامات الإعراب أسرع على اللسان . وأسهل في الارتكاب من الخلط في بنية الكلمة . فليس من السهل على العربي المقلد أن يخلط بين ما أحسن وما أحبب مثلاً ; ولكن من السهل عليه أن يخلط بين ما أحسن بفتح النون وما أحسن بضمها .

ويدخل تحت النوع الرابع من صور اللحن ما تستعمل فيه الكلمة أو التركيب في غير ما وضع له . مثال ذلك استعمال كلمة (محبته) التي معناها المتتفتح البطن ، في معنى من تورمت أنه غضباً . والذى يتركيب

اللحن وعيوب عليه هو شبيب بن ثبة التوفي سنة ١٦٤ هـ<sup>(١)</sup>

وقد نسب إليه اللحن أيضاً حينها استعمال هذا التركيب (ما بين لايتها)<sup>(٢)</sup> دأ بذلك البصرة . بينما هذا التركيب كان يستعمل خاصة في المدينة<sup>(٣)</sup> ولعل هذه الصورة وأمثالها أبسط أنواع اللحن ، ويمكن أن يتتسا بها سهل التجوز ، ولا ضير في هذا ، ولكن ذلك لم يمنع نسبة اللحن قائلها ، مما يدل على مبلغ تشدد القدماء في الاستعمال المأثور ، وهو ما يسمى عند الفرنسيين بالمعنى الخاطئ . *sans sens*

والآن بعد الكلام عن أنواع اللحن ، وذكر بعض الأمثلة لكل نوع بل يبحثنا موضوع اللحن نفسه : ما هو ؟ ما مظاهره ؟ ما تاريخه في اللغة العربية ؟ وأخيراً ما هو خطره ؟

يعرف اللغويون اللحن بجملة معانٍ ويدهبون في فهمه إلى مذاهب شتى رون من معانيه التجريد في القول والغناء فيه كما يذكرون أيضاً بأن الخطأ في القراءة ، ثم ينتقلون إلى واد آخر فيقولون إن معناه الله ، كما يقولون كذلك إن معناه الفطنة والفهم ، وحول هذه المعانٍ أكثر آراء اللغويين في القاموس ولسان العرب عند شرح هذه المادة .

<sup>(١)</sup> انظر ياقوت : إرشاد ح ٢ ص ٣٧٢ ، ومعجم البلدان له ح ٤ : ٣٣٥

<sup>(٢)</sup> انظر البخاري : فضائل المدينة ، وانظر كنز العمال ح ٧ ص ١٥٣

ويظهر أن الأصل فيها هو الميل بمعناه العام وعن هذا الأصل تفرع  
المعانى الأخرى سفين يلحن المغني يكون قد مال عن الطريقة المتبعة في الكلام  
إلى طريقة أخرى يقارب بها السامعين ، وحين يخاطب المتحدث في حديثه  
يكون قد مال عن طريق الصواب في قوله ، وحين يتحدث المرء بلغة  
قوم آخرين أو بلغة قبيلة أخرى يكون قد مال عن لغته هو إلى لغة هؤلاء  
أو . أولئك ليشرح بها أفكاره ومعانيه ، وحين يحاول المتكلم أن يشرح  
معنى عنده ويفهمه الآخرين يكون قد مال إلى هذا النحو من القول :  
وبذلك حين يريد أن يعرض بمعنى في نفسه بحيث لا يفهمه كل السامعين  
وإنما يدركه بعضهم فقط يكون كذلك قد مال عن طريقة القول الواضح  
للجميع إلى طريقة أخرى فيها تعمية وغموض مقصودان .

ويُنقل صاحب اللسان عن ابن بري كما يُنقل عن غيره أن اللحن يشتمل على المعانى الستة الآتية وهى : أولاً - الخطأ فى الإعراب ، ثانياً : اللغة ، ثالثاً : الفناء ، رابعاً : الفطنة ، خامساً : التعریض ، سادساً : المعنى .

ثم يذكر لكل واحد من هذه المعانى مثلاً أو أكثر كشاهد على ما يقول . فن المعنى الأول وهو الخطأ فى الإعراب قول مالك بن أنساء بن خارجة الفزارى :

· منطق حاصل ونلحن أحيا · نأ وخير الحديث ما كان لـنا  
ومن المعنى الثاني ، وهو اللغة ، قول عمر : ( تعلموا الفرائض والمسنة  
والدحن . ) بالتحريك أي اللغة .

ومن المعنى الثالث ، وهو الغناء والتجريد وترجيع الصوت ، قوله يزيد  
ابن النعيم :

لقد تركت فرازك مستجنا ه مطروقة على فتن تغنى  
يحيى بها وتركه بلحن ه إذا ما عن المحزون أنا  
فلا يحزنك أيام تول ه تذكرها ولا طير أرنا

ومن المعنى الرابع وهو اللحن بمعنى الفعلة قوله الرسول صلى الله عليه  
 وسلم ه إنكم تختصرون إلى ولعل بعضكم أن يكون لحن بمحاجته من بعض -  
أى أقطانه لها وأجلد - فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فائماً أقطع له  
قطعة من النار .

ومن المعنى الخامس وهو اللحن بمعنى التغريض والإيماء ، قوله القتال  
الكلابي :

ولقد ساخت لكم لكيما تفهموا ه ورجحت وحياً ليس بالمرتاب  
ومن المعنى السادس وهو المعنى ، قوله تعالى ه ولنعرفهم في لحن  
القول . ، أى خواه ومعناه .

والذى يهمنا من كل هذه التفاصيل هو اللحن بمعنى الخطأ ؛ واللغويون  
بالرغم من هذا البيان وذلك الشرح لا يقدمون لنا مثلاً نستطيع أن نفهم  
 منه معنى الخطأ المقصود ؛ وكل ما نعثر عليه من توضيح في هذا عندهم هو  
 قوله ه الخطأ في الإعراب ، غير أن ذلك أيضاً لا يزال في شيء من

الغموض ، وفي حاجة إلى البيان ، لأننا سرى بعد قليل أن الرواية في الأدب  
ورجال النحو كانوا يعتمدون معنى اللحن فلا يخسرونه فتقصد بلحن الإعراب .

ومنها هي ذي أمثلة من رواياتهم توضح لنا وجهة نظرهم ونبلغ فهم  
معنى اللحن : يروى ابن الأباري في كتابه ، *الأضداد* ، أن عمر ابن  
الخطاب رضي الله عنه سر بقوم يمارسون الرماية فباء منهم سوء رميهم  
فقال : ما أسوأ رميكم . فقالوا : نحن قوم متعلمين . فقال عمر : لخلكم  
أشد على من فسد رميكم .

وروى أيضاً أن كاتباً لابن موسي الأشعري كتب إلى عمر بن الخطاب  
عن لسان أبي موسى يقول : من أبو موسى ..... ، وحينما وقف عمر  
على هذا الخطاب ساءه ما رأه فيه من لحن ، فكتب إلى أبي موسى يطلب  
 منه أن يضرب كاتبه سوطاً على هذا اللحن .

وزيروى لنا أبو هلال العسكري في مقدمة كتابه *المعجم في بقية الأشياء* ،<sup>(١)</sup>  
ما يأتي : سمعت سعيداً بن أوّس يقول : لقيت أبا حنيفة خذلني بحديث  
فيه : يدخل الجنة قوم حفاة عراة متثنين قد محشتم النار ، فقلت له :  
قوم متثنون قد محشتم النار ؟ قال لي : من أنت ؟ قلت : من أهل  
البصرة ؟ قال : كل أصحابك مثلك ؟ قلت : فاني من أدونهم ؟ قال :

---

. (١) انظر . ص ٢٩ .

طوبى لقوم أنت أدونهم ١<sup>(١)</sup>

ويروى أيضاً أن أبو عمرو بن العلاء المقرىء النحوي كان يتبع لحن أبي حنيفة ، صاحب المذهب الفقهي المشهور ، ويستقبعه ثم لا يخرج من إبداء نصيحة إلى هذا الإمام بأن يتعلم العربية ويجيد النحو<sup>(٢)</sup>

من ذلك ما يروى أنه سأله أبو حنيفة مرة عن القتل بالثقل وهو القتل بغير آلة حادة - هل يوجب القود أم لا ؟ فقال أبو حنيفة : لا ؛ فقال له أبو عمرو : ولو قتله بحجر المنجنيق ؟ فقال : ولو قتله بأبا قبيس - أى الجبل المطل على مكة .

ويروى أبو هلال العسكري أيضاً<sup>(٣)</sup> : وحدثنا عن الصوالي عن أبي حنيفة محمد بن الحباب قال : دخل أبو عمرو بن العلاء دار الوزير ، وهي دار الدقيق بالبصرة ، فقرأ على أعدال الدقيق - أى غراراته : ، كتاباً

---

(١) يلاحظ أن أبو هلال قد تحرّك على أبي حنيفة بسبب ضعفه في العربية ، ولكن العجيب أنه نفسه في نفس الكتاب يستشهد برأي أبي حنيفة في اللغة حيث يقول ص ٣٧ : د (الخصاصه) ما يبقى في الكرم بعد قطافه : العنيقىد الصغير ها هنا وآخر ها هنا ، والجمع الخصاص بضم الخام . وقال أبو حنيفة : هي الخصاصه ، والجمع خصاص ، وكلامها بالفتح ،

(٢) انظر : المعجم في بقية الأشياء لأبي هلال العسكري ص ٣٩ - ٤٠

، البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ٢ س ١٧

لأنه فلان . ، فقال : الله بسب ، يلحنون فيبحون .

وَمَا نحن بسبيله أيضًا ما روى عن الوليد بن عبد الملك بن مروان ،  
وكان معروفاً بكثرة الميم ، من أنه خاتم الناس في يوم عيد فقرأ في خطبته  
هذه الآية القرآنية ، يا ليتها كانت الثانية ، بضم الشاء في ليتها بدلت ففتحها ؛  
وكان عمر بن عبد العزيز حاضرًا فقال : عليك وأراحتنا منك .<sup>(٢)</sup>

ويرى كذلك أن الفرزدق كان ينأى بفتحه ويتجنب طريقة المعروف  
في لحن ؛ وكان عبد الله بن يزيد الحضرمي البصري مهتماً باعترافه ونسبته  
إلى اللحن ؛ ولما عرف ذلك الفرزدق عنه هجاه بهذا البيت :

فلو كان عبد الله مولى هجوجته . . ولكن عبد الله مولى مواليا  
قال له الحضرمي : لحنت . . . ينبغي أن تقول : بولى موال .

وقد نسب أيضًا هذا البيت إلى الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع . . من المال إلا سختنا أو بحلف

الشاهد في رفع بحلف

وبهذه المناسبة يقول ابن قتيبة : وأتب أهل الإعراب في طلب العلة ،  
قالوا وأكثروا ولم يأتوا بشيء يرتضى ، ومن ذا يخفي عليه من أهل النظر  
أن كل ما أتوا به احتيال وتمويه ، وقد سأله بعضهم الفرزدق عن رفعه

---

<sup>(٢)</sup> انظر : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٤٦ للأستاذ مصطفى  
صادق الرافعي .

هذا البيت فشتمه وقال : على أن أقول وعليكم أن تختجروا ... !<sup>(١)</sup>

وها هو ذا نص كتاب ينكله لنا ابن رشيق عن بعض كتاب الفسروان وقد بعث به إلى صاحبه . ومن هذا الكتاب يتبين لهذا نوع التمجن ، وهو الذي يهمنا بصفة أساسية فيه : « يا أخي ومن ذا عدت فقدك ... أعلمك أبو سعيد كلاماً أنك كنت ذكرت أنك تكون مع الذين تأق ... وعاقنا اليوم فلم يتبرأ لنا الخروج . وأما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين فقد كذبوا عذراً باطلًا ليس من هذا حرفاً واحداً وكتابي إليك وأنا مشتاق إليك إن شاء الله . »

ويعنينا ملحوظة الفعل ، تأق ، بعد ، الدين ، ، ، حرفاً واحداً ، بعد  
، ليس من هذا ،<sup>(٢)</sup>

(١) إن هذه الصورة التي ينقلها إلينا ابن قتيبة عن موقف النحاة من بيت الفرزدق . ومحاولتهم إيجاد علة لهذا الرفع في كلمة « بخلف » ، والتحاس حيلة لتسويته يذكرنا تماماً بالصورة التي تأخذها عنهم حينما يجدون نصاً عربياً قد يملاه بمخالف قواعد التحويه فيتبسوون له التعليل غير مقدرين أن يكون ذلك لحناً أو أنه من آثار اللغة قد يملاه أو متمنشياً مع لهجة قبيلة من قبائل العرب التي لم تتفق مع قريش في لهجتها . وقد رأينا موقف المبرد منهم فيها مضى ، ص ٩٠ من هذا الكتاب

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعي ج ١ ص ٢٧٠

ويذكر الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف التفجيري في كتابه «أنباء الرواية على أنباء النهاية» أشارة عددة من المعنون نقلياً هنا بعضها.

يقول الله تعالى (( ثم إن زيداً -- وكان وليناً على العراق -- سمع  
شيء ما عند أبي الأسود -- يريد بذلك ما وضعته من النحو -- ورأى  
الحن قد فشا ، فقال لأبي الأسود : أظهر ما عندك ليكون للناس إماماً :  
فامتنع من ذلك ، وسأله الإعنة ، حتى سمع أبو الأسود فارتأى يقرأ :  
« إن الله بريء من المشركين ورسوله . » بكسر اللام ، فقال :  
ما ظنت أُمر الناس آن إلى هذا .

ثم يقول التذهلي بعد ذالك (٢) : وقد قيل : « إن الذى رأه أبوالأسود  
ونكره ، أنه من به سعد - وكان رجلاً فارسياً من أهل نوبنوجان -  
كان قدم البصرة مع جماعة من أهله فادعوا لقدامة بن مظعون أنهم أسلموا  
على يديه ، فأمنهم بذلك من دواليه . »

وَلَا مَرْ سَعْدُ بْنُ الْأَسْوَدَ - وَكَانَ يَتَوَدَّ فَرْسًا لَهُ - قَالَ لَهُ أَبُو الْأَسْوَدِ :  
مَالِكٌ لَا تَرْكَبْهُ يَا سَعْدٌ ؟ قَالَ : دَإِنْ فَرْسِيْ ظَالِمٌ ، وَأَرَادَ أَنْ  
يَقُولَ ، ظَالِمٌ ،

<sup>٦١</sup> إثبات الرواية على أبناء النحواء المقتولين ج ١ ص ٦

(٢) أبناء الرؤاة على أبناء النحاة للفقطي ج ١ ص ١٥٠ .

ويروى اتفقني كذلك أن قوماً جاموا إلى زياد ، فقالوا : أصلح الله الأمير ، توفى أبيانا وترك بنون . فقال زياد : توفى أبيانا وترك بنون ادع إلى أبيا الأسود . فتلقى : ضع للناس العربية .<sup>(١)</sup> ونضيف إلى ما تقدم هذه الأمثلة الأخرى من اللحن ، وسيتبين لنا منها أنها من نوع آخر منه .

من ذلك ما وجد في بعض رقاع مكتوبة قد وجدت في عدد من قرى مصر منها ما يرجع تاريخ كتابتها إلى سنة ١٢٧هـ . ومنها ما يرجع تاريخها إلى سنة ١٨٢هـ ، سنة ٢٥٠هـ ، سنة ٢٧٩هـ و ٢٩٥هـ وقد تكلم الاستاذ مصطفى صادق الرافعى عن هذه الرسائل ، وحاول أن يبين ما تشتمل عليه من لحن ، ثم نقل نص رسالة منها .<sup>(٢)</sup> ويتبيننا من كل ما كتبه الاستاذ خاصاً بهذه الرقاع هو نوع اللحن الذى استخرجها من بعضاً ، وأشار إليه ، وهو استعمال كلمة (دنير) بدل (دناير) . ومن هذا النوع أيضاً ما ذكره الجاحظ من أن أول لحن سمع بالبادية هو « هذه عصانى » بدل « هذه عصائى » .

ومن ذلك أيضاً ما يروى من أن الحسن البصري قال لبعض جلسائه يوماً توضيت ، فقيل له أتلحن يا أبو سعيد فقال إنها لغة هذيل . ويراد من هذا أنه قال (توضيت) بدل (توضأت) . ويهمنا من ذلك اعتباره

(١) - أنباء الرواية على أنباء النحاة المتفقى ج ١ ص ١٥

(٢) - تاريخ آداب العرب للرافعى ج ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٤

(توضيت) لحناً على فرض أن هذيلًا لا تطلق بها كذلك.

وربما يلاحظ القارئ، أننا أطلانا في هذا الموضوع واستطردنا فيه ثم أكثرنا من ذكر الأمثلة، والواقع أنها قصتنا إلى هنا الاستطراد قصراً وأردنا من الإكثار في هذه الأمثلة أن نقدم صورة واضحة عن اللحن في أزمنة مختلفة وعن وجهة نظر الرواة ورجال النحو بالنسبة لهذا اللحن وكيف كانوا يفهمونه في الكلام.

واستعراضنا لهذه الأمثلة يهدينا إلى ملاحظة نوعين مهمين من اللحن<sup>(١)</sup> النوع الأول : هو ما كان خاصاً بعلامات الاعراب ، وهو ما يشمل القسم الأكبر من هذه الأمثلة «كتعلين» بدل «متعلون» ، «منتين» بدل «مندون» ، و «أبو موسى» بدل «أبي موسى» ... الخ.

النوع الثاني : هو ما كان خاصاً ببنية الكلمة ولا يمس علامة الاعراب في شيء : وهو القسم الآخر من هذه الأمثلة ، وذلك مثل «دنير» بدل «دانير» ، و «توضيت» بدل «توظات» ، و «عصانى بدل «عصاى» .. أما اللكنة الطبيعية في النطق فلا نرى وجهاً لاعتبارها لحناً يخشى منه على اللغة حتى تكون نتراجتها الفكير في وضع ضوابط تحفظ اللغة ، وتقى الناطقين بها من الواقع في أمثالها ؛ فاما اللحن الخاص ببنية الكلمة ،

---

(١) - انظر صفحة ١٩٥ من هذا الكتاب

ذلك اللحن الخاص بوزنها فتند رأينا جميعها في نوع واحد ، وذلك من  
بـث المخالفة في كل منها .

أخطر أنواع اللحن : إن في املاعنا على كتب الرواية المختلفة وفي بحثنا  
، هذه الأمثلة لم نجد واحداً من أصحاب هذه الكتب ولا واحداً من  
صحاب هذه الروايات قد حاول إن يناس فرقاً بين ذرين التوعين من  
عن أو يبين خطاورة أحدهما على الآخر ، وكان اللحن كام في نظرهم  
بعاً سواء .

فالمبرد حين يورد أمثلة من اللحن لا يحاول التفرقة فيما بينها سواء  
كان اللحن خاصاً بعلامات الإعراب ، أم ببنية الكلمة وإنما يكتفى  
بنية الكل لحناً في اللغة ، وكذلك أبو هلال العسكري ، الذي ذكرنا له  
س الأمثلة من اللحن ، لا يفرق بين نوع ونوع آخر منه ، ولذلك  
ننتقل إلى ميدان آخر من ميادين اللماء ، وذئبي به ميدان القراء الذين  
صون على قراءة القرآن ووضع ضوابط لها ، ودراسة هذه القواعد ثم  
آه القرآن للآخرين ، نقول إننا لو انتقلنا إلى ميدان هذه الطائفة من  
آه لوجدنا معنى اللحن يتضح قليلاً ؛ إذ أنه يتوجه أولاً إلى التغيير الذي  
يبت علامات الإعراب ، كما أن كلية خطأ أو غلطها تأخذ لها وجية أخرى  
لقد على تغيير كلية بكلمة أخرى أو تقديم كلية من الجملة كان محلها التأخير  
تأخير كلية كان محلها التقديم ، فشلاً لو قرئت الآية «إن الله يرى ما من

من المشركين ورسوله ، بالجملة في الرسول بدل الرفع ، لا تعتبر ذلك لحناً :  
و كذلك لو قرئ ، أحب ، في قوله تعالى ، قل إن **ك**ان آباؤكم وأبناؤكم  
وأزواجكم وعشيرتكم وأحوال افترقوها وتجارة تجرون كصادها ومساكن  
ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله . ، بازفف بدل النصب لكان ذلك لحناً .  
و كذلك لو قرئت الآية ، إنما يخنى الله من عباده العلماء ، برفع الله ونصب  
العلماء لكان ذلك لحناً عند من لا يجيز هذه القراءة ، وكذلك التغيير الذي  
يحدث في حركات الإعراب في قوله تعالى ، وكذلك زين لكتير من المشركين  
قتل أولادهم شركائهم ، .

أما الخطأ أو الذلة فهو ما يمكن أن نلاحظ إذا قرأ قارئ ( يلبسون الباطل  
بالحق ) بدل يلبسون الحق بالباطل ، أو ، فخر عليهم السقف من سقفهم ،  
بدل ، فخر عليهم السنف من فوقهم ، ، وهكذا كل تغيير في الكلمة أو في  
جملة لا يترتب عليه تغيير أو فساد في علامات الإعراب .

وقد ترتب على هذا الاختلاف في النوع عند هؤلاء العلماء اختلاف في  
تقدير المسؤولية فكان اللحن عندهم أشد من الغلط ، ولازلنا حتى اليوم نلس  
هذا الفرق عند من يحفظون القرآن في الكاتيب ، أو يشرفون على تجويده  
في المعاهد الدينية والمساجد ، ويبدو أن هذا النوع من الفهم ومن تقديره  
المخطورة في بعض المعنون دون بعضه الآخر هو ما يتمشى مع طبيعة اللغة  
المصرية ويفق وعقلية أصحاب هذه اللغة حينما يعتريها شيء من التعریف ،

إن اللحن الذي فزع له عمر بن الخطاب رأى شهادته كأن لحنًا في علامات الإعراب ، واللحن الذي نفت نظر الولادة من العرب والمربيين على اللغة العربية وأيقظه أبو الأسود لكي يبدأ في وضع ضوابط تحفظ بها نصوص القرآن كان كذلك لحنًا في علامات الإعراب كما تجمع على ذلك غالبية الروايات . وبالرغم من أن الرواية لم يبينوا لنا نوع اللحن الذي حدث في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم فغضب له وأمر أصحابه بإرشاد صاحبه، قوله بالرغم من أننا لم نتفق على نوع هذا اللحن فإننا نظن بل نرجح أنه لحنًا في علامات الإعراب لا في شيء آخر .

ويشبه هذا تماماً ما لمسناه أثناء دراساتنا للغات الغدية المعربة من اليونانية ، فالمشرفون على تدريس هاتين اللغتين قد فرقوا بين أنواع الخطأ ووضعوا لكل نوع اسمًا خاصًا وقدروا مكاناته من الخبورة ، أشد هذه الأنواع عدده ما كان متناولًا لعلامات الإعراب ، ولذا نجد سمه *contre sens* ، ونستطيع أن نقابلها في العربية بكلمة اللحن ، ففي ما بیناه منذ قليل ، ثم يأتي عندهم في الدرجة النالية من الخطأ ما سماهوا على تسمية *errare sensu* ومنه المعنى الخاطئ ، ويشمل هذا النوع ضعكلة مكان كلة أخرى أو حذف حرف من بنية الكلمة أو زيادة حرف إليها أو ما شاكل ذلك ، مما لا يترب عليه تغيير في علامات الإعراب . ولقد بالغ المشرفون على هاتين اللغتين فأدخلوا المسألة في تقديرات بسيطة فقدروا اللحنة بثلاثة أخطاء . وما لمسناه في دراسة هاتين اللغتين تجلى حيث الأخطاء وتقديرها أعاد إلى ذاكرتنا صورة ما رأينا يوم *سكننا*

نحفظ القرآن عند تلفيقه أو د. التريف ، فإذا كان يناسبنا على الغلط فهو  
رعن المعرفة بثلاث .

ما تقدم يتضح أن الرأة وعلماء اللغة ورجال النحو لم يكونوا يفرقون  
بين لفظ لحن ، وغلط ، وخطأ . وقد تبين لنا من استعمالاتهم ومن أمثلتهم  
أنهم كانوا يستعملون الواحد من هذه الأسماء مكان الآخرين ، ولم تكن  
لديهم الدقة التي لا نجدها عند القراء في دائرةهم الضيقه ، وحتى النهاية حينما  
كانوا يتحدون القراء ويذاؤشونهم في قراءاتهم وأراءهم كانوا يطلقون عليهم هذه  
اللألفاظ الثلاثة ، وكأنها متراوحة ، دون تمييز في المعنى ، ولا علاوه على ذلك  
الفرقة بين أنواع الأخطاء .

وما علينا إلا أن نطلع على كتاب سيبويه أو على منخطوط القراء - معانى  
القرآن - لزكي تبشير ما ذهبنا إليه ، وفوق ذلك فقد جمع لنا الاستاذ  
عبد الوهاب حبوده في كتابه - القراءات والهجارات - أمثلة عددة من هذه  
الأخطاء التي نسبها النجادة إلى القراء ومع ذلك لم يتمروا فيها الدقة من  
ناحية التسمية أو الفرق بين الخطأ والغلط واللحن . ومع ذلك فقد حاولنا  
أننل هذا العرض أن نفرق بين هذه الأنواع ، ونحدد على وجيه التغريب  
مقدان استعمال هذه الألفاظ ، ثم خاتمة بعضها على البعض الآخر ، معتمدين  
في ذلك أولاً على الاستقراء والفهم ، ثم على الاستنتاج .

ونعود بعد هذا إلى الكلام عن تاريخ العن ، وقد وضح فيه رأينا مما  
ذكرناه قبلًا ، وهو أنه لا سبيل إلى تاريخ هذه النثارة في اللغة بأريخنا  
عليها وإن ذنبليس من السهل أن نقبل ما قاله بعض القدماء في هذا وبتعهم

بعض المحدثين من أن أول لحن ظهر في البداية هو «عصاى»، بدل عصاى، وأول لحن سمع بالعراق هو «حى على الفلاح»، بالكسر بدل «حى»، لفتح .

أن هذا الرأى يحمل فساده في طياته . ونظن أن أبسط العقول لا يطير أن يتصور صحته .

وربما يلاحظ القارئ تناقضاً بين موقفنا هنا و موقفنا عند ما أشرنا إلى آراء النحو العالمي في اللغة العربية ، والواقع أن الموقفين متغايران تماماً ، ارتجح النحو غير تاريخ اللحن . إذ النحو ظاهرة اجتماعية لا تنشأ [لا إذا] فرت لها أسباب وبذل في سبيلها بجهود كثيرة وتعاون عليها في أغلب حيائنا عدد من المفكرين ، وهذا هو ما نلاحظه في نشأة العلوم آياً كان غها وفي أي زمان أو مكان كان يشروعها .

أما اللحن فهو ظاهرة فردية تحدث طواعياً دون يقظة من صاحبها ولا إرادة من المجتمع ؛ وإذن فلا سبيل إلى تاريخ نشأتها ولا إلى معرفة أوليتها في تعميم به عند الشخص نفسه . وهنا نوضح ما أشرنا إليه أكثر من مرة مضى وهو أنه في غير ما يمس عقائدنا ينبغي أن تردد بعض الشيء في الآراء الخاصة التي نطالعها في كتب التزدمة ؛ كما ينبغي أن لازمها أمامها سناً أو نهم عقولنا ؛ فلم تكن العصمة من مستلزماتهم كما لم تكتب علينا بية لهم دائمًا في كل ما رأوه ، وإنما تقدمت الإنسانية ولا رق العقل

اللحن كما ذكرنا ظاهرة فردية في نشأته غير أنه حين يتفضي نسبياً ويجرى على بعض الألسنة في الشبقة المتنعة من الأمة أو أيام هذه الطبقة يمكن أن يستلفت النظر ، وحيثما يلاحظه المجتمع ويستطيع أن يصدى رأيه فيه ، وصدى ذلك في هذه المرحلة فقط هو الذي يمكن أن يصل إلى الأجيال اللاحقة عن طريق الكتابة أو عن طريق الرواية ، وعلى هذا الاعتبار يمكننا أن نتصور حالة اللحن في اللغة العربية وتاريخ معرفتنا به لا تاريخ نشأته في البيئة العربية . وإننى فدستطيع أن نفترض ونخمن بعثتنا إلى هذا الافتراض أن اللحن وجد في اللغة العربية قبل الإسلام ، ليس فقط في مدن التغور أو في القبائل التي كانت تعيش في أطراف شبه الجزيرة وفي جوار الأغلاط من الأمم الأخرى ، ولكن في بيئات الحجاز أيضاً وهي أدق البيئات وأصفها لغة وأسلوباً ، وهناك أدلة عدة تحملنا على صحة هذا الافتراض قد أشرنا إلى بعضها فيما مضى حينما كنا نتكلم على أثر التجارة المتبادلة بين الأجانب والعرب وما استلزم ذلك من إقامة الأسواق لهذا التبادل ، ثم من بقاء بعض الأجانب في جوار العرب إما للكسب وإما لخدمة السادة من العرب الذين اشتروهم بمال واتخذوهم عبيداً وإماء ، وفي الحق أن هؤلاء الأجانب من الفرس ومن الروم ومن الزنوج بوجه خاص ، كانوا يسبكونون بما يشبه الشبقة الدينية في المجتمع العربي ، وهم وإن كانوا

، الفلة بحيث لا يؤثرون في طابع اللغة بوجه عام إلا أنها لا نستطيع أن  
دور وجودهم في هذه البيئة العربية دون أن يصدر عنهم لحن . وإذا  
فيما مضى قد ضررنا لذلك بعض الأمثلة كأم عترة بن شداد ، وسلامان  
ربى وصهيب الروى ، وبلال الحبشي فإن هؤلاء أمثالاً ومثيلات ،  
أحب النقاد (١) بين جرير والفرزدق يحدثنَا عن أفراد في الجاهلية  
لهم من العرب وأمهاتهم من زنوج إفريقية ويطلق عليهم أغربة العرب .

ومن تلك الأساليب أيضاً التي تقوى لدينا صحة هذا الافتراض ما نجده  
من المظاهر من شواهد مبعثرة هنا وهناك في كتب القدماء تصور لنا  
يقة النطق عند هؤلاء الأجانب الدخلاء على العرب .

من ذلك ما يرويه الماجستير في البيان والتبيين (٢) من أن صهيباً الروى  
يستعمل لكتمة واضحة في لسانه ، فكان يقول : « إنك لخائن ،  
و يريد « إنك لخائن » ، وهذا ما يلاحظ في النطق الروى من تعذر  
أقى بالخاء . ومن ذلك أيضاً ما يرويه الماجستير عن شخصية أخرى عاصرت  
بول صلي الله عليه وسلم ، ونعني بذلك الشخصية سحيم المعروف بعد  
الحسناس ، يروى الماجستير أن سحيمًا هذا كان يقول : ( سعرت )

(١) نقاد جرير والفرزدق ص ٣٧٦

(٢) البيان والتبيان للماجستير ج ١ ص ٣٢

## بدلًا من ( شعرت )<sup>(١)</sup>

ويروى صاحب الأغاني<sup>(٢)</sup> أنه كان يستبدل في نطقه الخام بالباء ، فيقول مثلاً : ( أشت ) بدل ( أحسنت ) . ويقول ابن قتيبة عن سعيم أيضًا أنه كان ينطق بالكاف بدل تاء الشاطب . فيقول مثلاً : ( أحسنت ) بدل ( أشت ) . وهذه هي طريقة النطق في اللغة الجاشية بالنسبة للضمير المتصل المفرد كما حتفها الأستاذ يومان فوك<sup>(٣)</sup>

ولذا كان هذا هو بعض ما عرف عن لكتة صهيب وسعيم وشهرتها في المجتمع العربي أيام الإسلام الأولى لم تكن بسيطة ، فما بال إشاعر الذين عاشوا معموظين لا يكاد يحسن بهم ولا يعرف عنهم شيء ؟ إنه من العسير أن تصور ، كما تصور بعض المؤلفين ، سلامة لسان دوّلاء الآباء انت طول حياتهم في البيشات العربية ، وبالتالي أن تصور خلو اللغة من اللحن قبل الإسلام .

ثم إن القرآن نفسه ينقد الينا في أساوره البليغ صورة لما كان بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل مكة من جدل بشأن الرسالة والوحى ومن

(١) البيان والتبيان للجاحظ ج ١ ص ٢٢

(٢) الأغاني ج ٢٠ ص ٣

(٣) العربية — دراسات في اللغة والمبادرات والأساليب — ترجمة الدكتور

عبد الحليم النجار ص ١٣

هذه الصورة يتبين لنا ضعفها أن مكة كانت بها أتعاجم لا يتكلمون العربية  
 بطلاق أو على الأقل كما يتكلم بها أهل مكة من الترب الخلص ، وأن  
 هؤلاء الأتعاجم المثقفين كانوا يتحدثون بها مع الرسول فكان أهل الشرك  
 من المكين يدعون أن الرسول يأخذ عليهم من الأخبار ما يأتيه به الوحي  
 من عند الله ، من ذلك آية النحل <sup>(١)</sup> وقد نزلت في الطور المكي الثالث  
 ... لسان الذي يلحدون إليه أجمعى وهذا لسان عربي مبين ، ولذلك تفهم  
 هذه الآية حقيقة ، ويفهم منها الرد المنجم على هؤلاء المشركين ينبغي أن  
 يقابل اللسان العربي المبين بالضرورة لساناً أجمعياً أو لساناً عربياً غير واضح.  
 وماذا بقى إذن بعد هذا لإثبات اللحن في مكة قبل أن تستقر دعائم الإسلام ؟  
 ألم يجده إذن وجد في اللغة العربية قبل الإسلام وإن لم يكن من طبيعة  
 العرب الخلص أن يرتكبوا فإنه بقى محصوراً فيما بين هذه الطبقة الضعيفة  
 من المجتمع ، ولكن حينما تأخذ المذكرة الإسلامية في الامتداد ، ويصل  
 صداتها إلى غير العرب من الشعوب الأخرى فيدخل في الأسرة العربية أفراد  
 آخرون ويقبل على التحدث بالعربية أصحاب السنة أخرى يدخل اللحن في  
 مرحلة جديدة فيسمع في مجالس الرسول ويقال أمام الخلفاء الراشدين من  
 بعده ، ولكن يصاحبها في هذه المرحلة اهتمام بالغ من الناحية الأخرى  
 بشأن اللغة الفصحى والحرص على صفاتها ونقائصها . فتجد الرسول يغضب

---

<sup>(١)</sup> آية ١٠٣ سورة النحل

ويعبر بن الخطاب ينور حينها يسمعان هذا اللحن : «غير أنـ هذا الغضبـ  
و تلك الشورة لا يمنعـ ظاهرةـ اللـحنـ منـ اـفـشـاـ وـ الـاـنـتـشـارـ ،ـ فـتـسـيـعـ رـقـمـةـ  
الـدـوـلـةـ الإـسـلـامـيـةـ وـ يـنـظـمـ فـيـ سـلـكـ الجـنـديـ شـبـابـ التـبـائـنـ العـرـبـيـةـ عـلـىـ اـخـلـافـ  
لـمـجـاتـهاـ وـ تـنـوـعـ بـيـنـاتـهاـ ،ـ وـ تـقـامـ لـهـمـ المـسـكـراتـ فـيـ مـوـاطـنـ فـارـسـيـةـ وـ رـوـمـيـةـ ،ـ  
وـ يـتـحـذـ هـؤـلـاءـ وـأـوـلـكـ لـأـنـفـسـهـمـ عـبـيدـاـ وـإـمـاـ ،ـ لـاـ يـحـصـيـ لـهـمـ عـدـدـ وـلـاـ يـسـتـقـيمـ  
لـهـمـ قـيـ الـعـرـبـيـةـ لـسانـ .ـ فـلـمـ يـفـ أـمـرـ اللـحنـ عـلـىـ هـؤـلـاءـ الـأـجـانـبـ الـذـينـ .ـ  
اضـطـرـتـهـمـ ظـرـوفـ الـحـيـاةـ وـضـرـورـاتـ الـفـتـحـ أـنـ يـنـدـجـنـواـ فـيـ الـدـوـلـةـ الـعـرـبـيـةـ ،ـ  
وـلـكـنـهـ تـعـادـهـ بـحـكـمـ الـعـدـوـىـ إـلـىـ الـعـرـبـ أـنـفـهـمـ بـلـ وـإـلـىـ مـنـ يـنـبـغـيـ لـهـمـ أـنـ  
يـشـرـفـوـاـ عـلـىـ أـمـرـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ ،ـ فـنـجـدـ عـبـيدـ اللهـ بـنـ زـيـادـ بـنـ أـيـهـ الـذـيـ تـولـ  
الـأـمـرـ فـيـ الـعـرـاقـ يـعـرـفـ بـالـلـحنـ .ـ وـيـصـلـ الـخـبـرـ فـيـ ذـلـكـ إـلـىـ مـعـارـيـةـ فـيـ سـلـكـ إـلـىـ  
إـلـىـ زـيـادـ يـأـمـرـهـ بـأـنـ يـصـلـ لـسانـ اـبـهـ ،ـ وـلـهـنـ عـبـيدـ اللهـ »<sup>(١)</sup>ـ هـذـاـ وـإـنـ لـمـ

---

: »<sup>(١)</sup> يـعـزـىـ لـهـنـ عـبـيدـ اللهـ بـنـ زـيـادـ إـلـىـ أـنـهـ نـشـأـ فـيـ خـبـرـ أـمـهـ الـفـارـسـيـةـ  
وـلـهـذاـ فـقـدـ كـانـ لـهـمـ فـيـ الـعـرـبـيـةـ مـنـ جـنـسـ الـلـهـنـ الـذـيـ عـرـفـ عـنـ الـأـجـانـبـ  
أـمـثـالـ صـهـيبـ ،ـ وـبـلـالـ ؛ـ فـكـانـ يـنـطـقـ بـاـخـاءـ بـدـلـ الـخـاءـ وـبـالـمـزـ بـدـلـ الـعـينـ  
كـاـ يـقـرـرـ ذـلـكـ الـجـاحـظـ فـيـ كـتـابـهـ - الـبـيـانـ وـالـتـبـيـنـ جـاـ ٣٢ـ - ؛ـ وـنـجـدـ  
لـدـيـهـ أـيـضاـ نـوـعاـ مـنـ الـاسـتـعـالـ الـلـغـوـيـ لـاـ يـوـجـدـ إـلـاـ عـنـدـ مـنـ يـلـمـ بـلـغـةـ أـجـنبـيـةـ  
وـمـنـشـأـ ذـلـكـ هـوـ الـتـرـجـةـ لـمـعـنـىـ فـيـ نـفـسـ الـمـتـكـلـمـ لـاـ تـسـعـهـ الـلـغـةـ الـذـيـ يـنـطـقـ بـهـاـ  
عـلـىـ الـتـعـبـيرـ بـهـ ؛ـ وـذـلـكـ مـثـلـ مـاـ رـوـىـ عـنـهـ أـمـرـ الـجـنـودـ فـيـ يـوـمـ مـنـ الـأـيـامـ =

يُكَن عَظِيمُ الْخَطْرِ إِلَّا أَنَّهُ بِدُلْنَا عَلَى مِلْعَنِ تَسْرُبِ هَذِهِ الْأَخْطَاءِ الْفَنِيَّةِ إِلَى  
الْأُوسَاطِ الْعَرَبِيَّةِ الْعُلَيَا .

ونجد الوليد بن عبد الملك<sup>(١)</sup> يرتكب من اللحن أنواعاً عدّة وتروى

نــفــقــالــلــهــمــ : ( افــتــحــراــ ســيــوــفــكــ ) وــهــوــ يــرــيدــ مــنــ ذــلــكــ قــوــلــ الــعــرــبــ ( ســلــواــ ســيــوــفــكــ ) وــقــدــ لــســنــاــ هــذــهــ الــمــســأــلــةــ بــأــنــفــســنــاــ حــيــنــاــ كــنــاــ مــبــدــئــيــنــ فــيــ تــعــلــيمــ الــلــغــاــتــ الــأــجــنــبــيــةــ كــالــفــرــنــســيــةــ وــالــإــنــجــلــيــزــيــةــ ، وــالــلــاتــيــنــيــةــ أــيــضــاــ ؛ فــكــثــيرــاــ مــاــ كــنــاــ نــلــجــأــ إــلــىــ تــرــجــمــةــ مــاــ يــدــوــرــ فــيــ خــوــاــطــرــنــاــ مــنــ الــمــعــانــيــ بــأــلــفــاظــ أــجــنــبــيــةــ لــاــ تــســعــمــلــ فــيــ ذــلــكــ الــمــعــنــيــ وــكــثــيرــاــ مــاــ كــانــ هــذــاــ يــثــيــرــ الضــحــكــ مــنــ يــســمــعــنــاــ . وــلــعــلــ هــذــاــ هــوــ الســبــبــ الــذــيــ مــنــ أــجــلــهــ كــانــ مــعــارــيــةــ بــنــ أــبــيــ ســفــيــانــ يــســتــظــرــفــ لــهــ عــبــدــ أــللــهــ وــيــجــدــ فــيــ تــوــرــيــةــ لــطــيــفــةــ كــاــ يــحــدــثــنــاــ بــذــلــكــ الــقــالــ فــيــ كــتــابــ الــأــمــالــ جــ ١ــ صــ ٥ــ .

(١) وــيــعــزــىــ لــهــ الــوــلــيــدــ بــنــ عــبــدــ الــمــلــكــ إــلــىــ إــهــمــاــ وــالــدــهــ تــرــبــيــةــ عــرــبــيــةــ ؛ فــقــدــ رــوــىــ عــنــ عــبــدــ الــمــلــكــ بــنــ مــرــوــانــ أــنــهــ قــالــ : دــأــضــرــ بــالــوــلــيــدــ حــبــنــاــ لــهــ فــلــمــ نــوــجــهــ إــلــىــ الــبــادــيــةــ ، ؛ وــيــنــقــلــ لــنــاــ الــأــســتــاذــ مــصــطــلــفــ صــادــقــ الرــافــعــيــ فــيــ كــتــابــهــ - تــارــيــخــ آــدــاــبــ الــعــرــبــ جــ ٢٤٦ــ صــ ٢٤٦ــ - أــنــهــ قــيلــ لــلــوــلــيــدــ يــوــمــاــ : إــنــ الــعــرــبــ لــاــ تــحــبــ أــنــ يــتــوــلــ عــلــهــ إــلــاــ مــنــ يــحــســنــ كــلــامــهــ ، فــجــمــعــ أــهــلــ النــحــوــ وــذــخــلــ بــيــنــاــ لــيــتــعــلــمــ فــيــ قــائــمــ ستــةــ أــشــهــرــ ثــمــ خــرــجــ أــجــهــلــ مــنــ يــوــمــ دــخــلــ ، وــقــدــ أــكــثــرــ الرــوــاــةــ مــنــ ذــكــرــ أــخــطــائــهــ فــيــ الــعــرــبــيــةــ : مــنــ ذــلــكــ قــدــامــهــ فــيــ كــتــابــهــ - نــقــدــ النــثــرــ صــ ١٢٣ــ وــالمــبــرــدــ فــيــ كــتــابــهــ - الــكــاملــ صــ ١٩٠ــ - .

عنه في ذلك الروايات، اللاذعة وحتى بعد توليه الخلافة يترك للسنة الحرية  
فيزلك إلى الأخطاء في القرآن على مسمع من جهود المسلمين .

نعم إذا انقلنا إلى ميدان الطبقات المثقفة التي أخذت على نفسها التبرع في  
الابحاث العلمية والتى درسوا في النواحي الثقافية الإسلامية وجدنا نفس هذه  
الأخطاء أو قريباً منها ، وقد رأينا صورة من ذلك عند أبي حنيفة ، ثم  
هاجروا ذا الفقيه العالم الإمام مالك بن أنس لا يخرج من ارتكاب بعض  
الأخطاء العربية حتى إن الأصمعي ليدهش من صدور هذه الأخطاء عنه  
ومكانته في العلم لا تكاد تجارى ، فقد روى عنه أنه قال : « أى مطرأ ،  
بدل ، أى مطر ، وحينما عيب عليه ذلك أخذ ينليس لنفسه الأعذار فظوراً  
يهون من شأن اللحن مقتدياً في ذلك بأستاذه ربيعه بن عبد الرحمن ، فقيه  
أهل المدينة ، المشهور بربيعة الرأى الذي كان يلحن في الإعراب أيضاً ،  
إذ كان يقول : « بخيراً ، بدل ، بخيراً ، وطوراً ينلهم بمظاهر العالم الزاهد  
الذى يرغب عن هذه العلوم الدينية ويولى وجهه شطر الحقيقة التي يبحث  
عنها المتصوف .

وهناك ميدان على آخر هو أولى الميادين الثقافية بالمحافظة على الفصحى ،  
ورعاية سلامة الإعراب ؛ ذلك هو ميدان القراءات . وبمع هذا فلم يسلم أيضاً  
هذا الميدان من اللحن .

وَهَا نَحْنُ أَوْلَاءِ نُورٍ دُونَ بَعْضِ الْأَمْلَأِ مِنْ لِحْنِ الْقِرَاءَةِ بِهِرِيَاً عَلَى طَرِيقَتِنَا  
فِي هَذَا الْمُوْشَرِعِ دُونَ شِنَاقَتَةٍ . إِذَاً أَنْ غَرَّنَا فِي هَذِهِ النِّقْطَةِ فَقَطْ هُوَ تَرِيمُ  
اللِّحْنِ فِي اِنْتَشَارِهِ وَفِي مَوْضِعَاتِ الْبَحْثِ الْعُلَيِّةِ ، سِوَاهُ أَكَانَ ذَلِكَ اللِّحْنُ  
مُعْتَبِراً مِنَ الْأَنْخَطَاهُ الْلُّغُوِيَّةِ فِي نَظَرِ الْعَلَمَاءِ جَمِيعاً ، أَمْ هُوَ خَطَاً فِي نَظَرِ  
البعضِ دُونَ البعضِ الْآخِرِ .

أَمَا مِنْاقِشَتِنَا لِهَذِهِ الْآرَاءِ وَبِخُصُوصَةِ مَا ادْعَاهُ النَّحَاةُ مِنْ لِحْنِ الْقِرَاءَةِ  
فَسَيَكُونُ لَهُ مَكَانٌ آخِرٌ ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا تَكَلَّمُ عَنِ النَّحَاةِ وَمِنْهُمْ فِي  
الْبَحْثِ وَمَوْقِفُهُمْ مِنَ الْقَوْاعِدِ النُّحُويَّةِ الَّتِي وَضَعُوهَا عَنْ طَرِيقِ الْقِيَاسِ  
أَوِ الْإِسْتِبْلَاطِ . وَمِنْ لِحْنِ الْقِرَاءَةِ فِي نَظَرِ النَّحَاةِ مَا صَنَعَهُ حَزَّةُ فِي قِرَاءَتِهِ  
لِلآيَةِ الْأُولَى مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ ، ... وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ  
وَالْأَرْحَامِ ، إِذَا قَرَا بِحُرُجِ الْأَرْحَامِ عَلَى أَنَّهُ مَعْلُوفٌ عَلَى الضَّمِيرِ الْمُجْرُورِ  
قَبْلَهُ ، لَا بِالنِّصْبِ عَنْقَلَةً عَلَى ، اللَّهُ ، .

وَإِلَيْكُمْ مَا يَذَكُرُهُ بِهَذِهِ الْمَنْاسِبَةِ أَبُو شَامَةُ فِي شَرْحِ الْكَاطِبِيَّةِ <sup>(١)</sup> قَرَا  
حَزَّةُ ، وَالْأَرْحَامُ ، بِالْجُرْجُ . قَالَ الزَّجَاجُ : الْقِرَاءَةُ الْجَيْدَةُ نِصْبٌ ، الْأَرْسَامُ ،  
فَأَمَّا الْخَفْضُ خَفْطَاً فِي الْعَرَبِيَّةِ ؟ فَإِنَّ اِجْمَاعَ النُّحُويِّينَ أَنَّهُ يَقْبَحُ أَنْ يَعْطُفَ  
بِالْمِنْظَرِ ظَاهِرًا عَلَى اِسْمٍ مَضْمُرٍ فِي حَانِ الْخَفْضِ إِلَّا بِيَظْهَارِ الْخَافِضِ . وَكَذَلِكَ  
نِجْدُ الزَّجَاجِ فِي وَقْفٍ آخِرٍ يَتَّهِمُ الْقِرَاءَةَ بِاللِّحْنِ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، وَذَلِكَ فِي الآيَةِ

<sup>(١)</sup> دِلْبَازُ الْمَعَانِي ص ٢٨٣ ( حِودَه ص ١٣٠ ) ،

ومن أهل الكتاب من إن تأمه بقطر يؤده إليك . و منهم من إن  
تأمه بدينار لا يؤده إليك » <sup>(١)</sup> .

وهنا نجد القراء قد اختلفوا في النطاق باختلافه من قوله تعالى : « يؤده ،  
فابتهمور يقرؤها بالحکسر مع وصاها بياء : وقالون يقرؤها باختلاس الحركة ،  
وأما أبو عمرو وأبو بكر رجزه والأئم فأنهم يسكنون الماء . فيقول  
أبو إسحق الزجاج في هذا ما نصه <sup>(٢)</sup> « وماذا الإسكان الذي روى عن  
مولاه غلط ، لأن الماء لا ينبغي أن تجزم ؛ وإذا لم تجزم فلا يجوز أن  
تسكن في الوصول » .

وكذلك نجد خلافاً بين القراء في قراءة ( معايش ) في قوله تعالى <sup>(٣)</sup>  
« ولقد هَكَنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايشَ » ، فابتهمور يقرؤها  
( معايش ) بالياء : والأعرج ، وزيد بن علي ، والأئم ، وخارجة  
عن نافع ، وابن عاص في رواية يقرؤونها بالهمزة .  
والنتيجة وفق مقاييسهم النحوية يقررون أن القراءة بالياء قياسية ،  
وبالهمزة غير قياسية . ثم يقول الزجاج <sup>(٤)</sup> ما نصه : ( جميع نحاة البصرة

---

(١) سورة آل عمران : ٧٥

(٢) البحر المحيط ج ٢ ص ٤٩٩

(٣) سورة الأعراف : ١٠

(٤) البحر المحيط ج ٤ ص ٢٧١

نَزَعُمْ أَنْ هُرْزَهَا خَطَأً ، وَلَا أَعْلَمُ لِمَا يُرْجِهَا إِلَّا النَّشِيهِ بِصَحِيفَةِ وَسَحَافَ ،  
وَلَا يَنْبَغِي التَّهْرِيلُ عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ ) . وَصَدِرَتْ هَذَا النَّفَاشُ فِي نَفْسِ الْآيَةِ  
يُوجَدُ فِي حَاشِيَةِ الشَّهَابَ عَلَى الْبَيْضَاوِيِّ . وَاسْكُنَ الَّذِي يَتَولَّ مَهْمَةَ تَخْطِنَةِ  
الْقِرَاءَهُ هُوَ نَحْوِي آخَرٍ : أَبُو عَمَانَ الْمَازْنِيُّ ، وَإِلَيْكُمْ مَا يَقُولُهُ الشَّهَابَ :  
( وَرَوَى عَنْ نَافِعٍ دِيْنَارِيِّ ، بِالْمَهْزُونِ ، فَتَمَالَ النَّحْوِيُّوْنَ : إِنَّهُ غَلْطٌ ، لَأَنَّهُ  
لَا يَهْمِزُ بِعِنْدِهِمْ بَعْدَ أَلْفِ الْجُمُعِ إِلَّا إِلَيْهِ الْزَانَةُ كَصَحِيفَةٍ وَسَحَافَ ، وَأَمَّا  
مَعَاشُهُ : فَيَاوِهُ أَصْلِيَّةٌ ، هِيَ عِنْدَ الْكَلْمَةِ ، لَأَنَّهَا مِنَ الْعِيشِ ؛ حَتَّى قَالَ أَبُو  
عَمَانَ الْمَازْنِيُّ : إِنَّ نَأْوِمًا رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَكُنْ يَدْرِي الْعَرَبِيَّةَ (١) . )  
وَيَرِي سَيِّدُوْيِهِ أَيْضًا أَنَّ قِرَاءَةَ الْهَمْزَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ غَلْطٌ . (٢)

وَنَكْتَبُنَّ بِهَذَا الْفَسْدَرِ مِنَ الْأَمْثَالِ لِتَبْيَانِ وَجْهِ الْلَّهُنَّ فِي وَسْطِ الْقِرَاءَهُ  
سَوَاءَ صَحُّتْ دَعْوَةُ النَّحَاهُ فِي هَذَا أَمْ رَدَتْ .

٠ ٠ ٠ ٠ ٠

بَقَ عَلَيْنَا أَنْ نَنْتَهِرُ فِي وَسْطِ الشَّهَارَهُ وَرِجَالِ الْأَدْبُورِ . وَهَؤُلَاءِ لَمْ  
يَلْمِلُوهُ أَيْضًا مِنْ تَعْرِشِ الْإِلَهَانِ ، وَمِنْ تَعْرِضِهِمْ لِلنَّقْدِ الْلَّاذِعِ بِسَبِبِ الْلَّهُنَّ ،  
سَوَاءَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ عَرَبِيًّا خَالصَّا ، أَمْ مَنْ دَخَلَ فِي الْأَمْرَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ  
الْأَجَانِبِ وَجَارِيِّ أَصْحَابِ الْلَّهُنَّ فِي الشِّعْرِ وَالْأَدْبُورِ .

(١) حَاشِيَةُ الشَّهَابَ عَلَى الْبَيْضَاوِيِّ جِي ١٥٢ ص

(٢) الْقِرَاءَاتُ وَالْمُهْجَاتُ لِلْأَسْتَاذِ عَبْدِ الْوَهَابِ حِمْوَهِ ١٤٣ ص

فن الفريق الأول نجد الفرزدق يقول عبد الله بن أبي إسحق (حضرمي) ،  
وهو من المرواني بهذا البيت .

فلو كان عبد الله مولى شجوره « ولكن عبد الله مولى موالياً »  
وكان هذا الهجاء بسبب تخيّلة ابن أبي اسحاق للفرزدق نفسه في بيت  
آخر هو :

على عذائنا تلقى وأرحلنا « على زواحف تزجي تخما رين »  
حيث يزعم عبد الله أن الفرزدق هنا قد خاف قواعد العربية . ويهمتنا  
بيت الهجاء في ابن أبي إسحاق إذ يقول الفرزدق (موالياً) وصواب اللهم  
أن يقول (موال) <sup>(١)</sup>

ومن الفريق الثاني نجد زياد الأعجم المنوفى سنة ١٠٥، وكان فارسي  
الأصل ولذلك استطاع أن ينبع في اللغة العربية بوعاً يجعله يجذب فيها  
أهل البدو وشعراء العرب الخلص : ولذا فقد أخذته المهاجرة بن أبي صفرة  
شاعرًا في سده . وبأ رغم من تمكّن زياد في اللغة والشعر فقد روى له  
هذا البيت <sup>(٢)</sup>

إذا قلت قد أقبلت أديرت « كن ليس غاد ولا رانع ، وكان يجب أن  
يقول : ( كمن نيس غاديأ ولا رانحأ ) »

(١) طبقات الشعر لابن سلام ص ٧ ، ميدوبيه ٢٥٩ ص ٢٥٩

(٢) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٥٩

لُو استعرضنا ما ذكرناه بقصد الكلام عن اللحن وبلغ انتشاره لرأينا أنه تسرب إلى أغلب الأوضاع العربية . فقد لمسنا آثاره فيها بين الفينة الحاكمة ، وضررنا لذلك مثلاً عبد الله بن زياد ، والوليد بن عبد الملك وفيها بين طبقة الفقماء وضررنا لذلك مثلاً أبو حنيفة وما لك وأستاذه ربيعة الرأى ، وفيها بين طبقة القراء وضررنا لذلك مثلاً حزنة ، وأبا عمر ، وأبا بكر الأشع ، والأعرج ، وزيداً ابن على ، ونافعًا ، وابن عامر ، ثم فيها بين طبقة الشعراء : وضررنا لذلك مثلاً الفرزدق ، وزياد الأعجم . وكنا نستطيع أن نمضى أبعد من ذلك ، ولكننا حرصنا على أن نأخذ نموذجاً في أبسط صورة لهذا اللحن في مختلف البيئات العربية مع البعد عن الاستهلاك . وقد بين لنا أن ظاهرة اللحن خاضعة في انتشاره إلى عوامل اجتماعية أشرنا إليها بما مضى مع شيء من التفصيل .

وعلى حسب هذه العوامل قد افترضنا وجود اللحن في زمن الجاهلية قبل الإسلام ، وإن لم نعثر على أدلة مادية ثبت وجوده في صوره المختلفة فيها . دا هذه اللكنة البسيطة التي أثرت عن صبيب وسحيم ، وهي ليست الواقع سوى نتيجة لضعف طبيعي عند هذين الأئمدين بالنسبة لخارج لغوف ، وعجزهما عن النطق العربي الصحيح .

ولإذا ما جئنا إلى صدر الإسلام وجدنا آثاره المادية ولمسنا صوراً منه : :  
ـ تكمن كل الظروf تدل على أن هذا اللحن كان في دائرة محدودة ؟ ولم

يصل بعد إلى درجة يخشى منها على الآثار العربية . أما في عصر الدولة الأموية فيدخل اللحن في مرحلة جديدة ؛ وتنظر آثاره في أيام الأسراط بل ويتسرب كما رأينا إلى الجهة العليا من العرب .

وليس من السهل أن تتبع اللحن في عمر الدولة العباسية ؛ فصورة عديدة ؛ وأمثلة لا تُحصى . بل إن أمر اللحن في أيام هذه الدولة يطغى مع مرور الزمن حتى يصل إلى تهديد العربية الفصحى ؛ ثم يتمكن في النهاية من خلق اللغة الدارجة التي لا تسم بقواعد النحو ولا تقدير لعلامات الإعراب وزناً .

ومن هذا يتبيّن كيف نشأ اللحن في العربية ، وكيف تعددت صوره والأسباب التي دعت إلى ذلك ؛ والمراحل التي مر بها ؛ والذي يهمنا ملاحظته هو أن ظاهرة اللحن في العربية استبانت ظاهرة أخرى يمكن أن تعتبرها رد فعل للظاهرة الأولى ، ويمكن أن نسمى هذه الظاهرة بحركة تنقية اللغة والمحافظة على سلامتها . وأصحاب هذه الظاهرة العكسية موجودون كذلك منذ وجود اللحن ؛ إذ أن ذلك يكاد يكون طبيعياً عند أصحاب كل لغة يمتنون بها ويحرسون على سلامتها ؛ غير أنها بالنسبة للعمر الماجاهي نلجم إلى طريق الأفراط الذي تؤديه ملابسات كثيرة رأساباب عدّة ، وما ذلك إلا لأن الدليل المأدى يعزّزنا هنا أيضاً كما أعزّزنا بالنسبة لإثبات اللحن . ولكن إذا جئنا إلى صدر الإسلام رأينا الرسول صلى الله عليه

وسلم على رأس أصحاب هذه الحركة : ثم يأتي من بعده عمر صاحب الذوق الرفيع والملكة العظيمة في فهم الله وإدراك دقائقها وأسرارها البلاغية . وقد رأينا له في ذلك موقعين : موقفه مع كاتب أبي موسى الأشعري ، ثم موقفه مع أرلنك الذين كانوا يتعلمون الرمائية . ولقد ورث ابن عمر أبيه هذه النزعة فكان شديد الحرص على سلامة اللغة عند أبنائه وكان أخذهم بالعنف والشدة حينما يجدون له خطأً منهم .

ثم إننا رأينا فيها بعد كيف كان حرص الخلفاء والولاة على أولادهم  
كيف كان ذلك الحرص يدفعهم إلى إرسال أولادهم إلى البادية يعيشون  
مع العرب الخلص حتى تبرت أشرفتهم ، ويستقيم منطقهم فلا يرتكبوا بما  
ركبوا سكان المدن من الأخطاء .

ولذا ما وصلنا إلى عمر الدولة الاموية وجدنا حركة الترقية في اللغة  
لقد يقدر امتداد أثر اللحن فيها ، ولم يكن ذلك سوى جزء من سياستها  
الامية التي نهجتها أيام حكمها ، وتمثل هذه السياسة بوجه عام في التمسك  
لـ ما هو عربي والنفور من كل ما هو غريب عن العرب ، وكانت اللغة  
بيعة الحال أعم دلائله يتناوله ذلك الحرص ، ولهذا فإننا نرى أصحاب  
حركة الترقية في عدد غير يسير ، ويتناول هذا العدد بعض الخلفاء والولاة  
ملفاء ، فمن الخلفاء نجد عبد الملك بن مروان ، وعمر بن عبد العزيز ، ومن الولاة  
الحجاج بن يوسف ، وزياد بن أبيه ، ومن رجال العلم نجد أبا الأنబوذ ،  
فلي الذي خطا في النحو العربي أول خطوة عملية . . .

وفي خلال هذا العصر أيضاً ينشأ جيل أغلبه من غير العرب فيأخذ

نفسه بدراسة اللغة العربية ، ثم يتحمل عبء حركة التنقية فيسير بها إلى غاية بعيدة ؛ وربما دفعه ذلك إلى ارتكاب الشطط من الأمر في بعض الأحيان ونعني بهذا الجيل رجال النحو الذين أسوأوا هذا العمل ونهضوا به ؛ وكان لهم في العناية باللغة العربية والحرص على سلامتها شأن كبير .

وليس لنا أن نفيض الآن في بحث هؤلاء النحاة ، ولا في مدى تمسكهم بقواعدهم النحوية ، فإننا سنفصل ذلك بعد قليل حينما نتكلم عن النحو بمعناه العلمي . وحسبنا أن نعرف فقط أن هؤلاء النحاة قد بدأوا دورهم في حركة التنقية أيام الدولة الأموية . بجانب الخلفاء والولاة ، ثم استمرروا كذلك حتى عهد الدولة العباسية حيث ألقى عليهم وحدهم تقريراً عبئ تلك الحركة فكانوا بمثابة الرقباء الخريصين عليها بالرغم مما كانوا يتسمون به من تزمر وتعسف :

ولقد كان اعتمام هؤلاء النحاة بتلك المهمة التي أخذوا أنفسهم بها يتسع بقدر اتساع دائرة اللحن ونشيئه في الأوساط الإدارية والثقافية ولكنه بالرغم من ذلك ظل سلبياً ، فلم يوقف اللحن عند حد ولم يمنع الفصحى من أن تضاءل وتتلاوى على نفسها في أوساط ضيقة وترك بذلك الميدان للغة دارجة ؛ لا تتحرج ضوابط النحو ولا تقىم لعلامات الاعراب وزناً ، بل تذشاً وتنمو على حسابها .

وبعد فيستطيع القارئ أن يلاحظ مما قدمناه من الكلام عن اللحن

ونشأته ونختره أن هذا الداء الذي أصاب اللغة العربية لم يكن خاصاً بها وإنما هو داء تعرض له كل اللغات على الإطلاق وخصوصاً ما كان منها معرجاً، ويستطيع أن يلاحظ كذلك أن أصحاب هذه اللغات العربية لم يقفوا مكتوفين الأيدي أمام هذا الداء ، بل اتخذوا من العدة ما يكفل سلامة اللغة ويبعد عنها ذلك الخطر الذي يهددها ما بين حين وآخر . وإذا نلم تكن اللغة العربية من هذه الناحية أيضاً إلا خاضعة لنفس القراءين العامة التي تخضع لها كل اللغات العربية .

وقد كان هذا البحث بثابة تبيّد ضروري للكلام عن النحو العربي ونشأته ، وقد استلزم هذا منا أن نعرض لكثير من مسائل اللحن ، وأن نلجأ إلى المقارنة بين الأختيال اللغوية في العربية وفي غيرها من اللغات الأخرى ، وأن نحدد وجهة نظرنا بالضبط فيما يختص باللحن اختيار غير مقين بالأَلْأَراء القدماء وترددهم في مسميات هذه الأختيال اللغوية المختلفة ، ونعلن أننا قد استطعنا الوصول في كل ذلك إلى تائج ملموس ، سيتبين القاريء بعد قليل أثراً و楣اماً .

# نشأة النحو العربي

## والأسباب التي دعت إليه

لا يزال الباحث في حيرة من أمر النحو العربي ، ومن الظروف التي لابت نشأته ، فلا القدماء أماطوا الثام بطريقة معقولة عن هذا الفموض الذي لا نزال نحس به ونتعثر في دياجيه ؛ ولا المحدثون استطاعوا أن يتناولوا هذه المسألة بطريقة جدية فيتعمقوا فيها بعد أن يهدوا لها بالدراسة الواسعة والتفكير الحر والمنطق السليم . وما نحن أولاً إلا نتساءل لماذا لم يصاحب هذا الفموض غير النحو من سائر العلوم الإسلامية الأخرى كعلم القراءة والفقه والتفسير ؟

وربما أجيئ عن هذا السؤال بأن هذه العلوم لا سبيل إلى تطرق الشك في أوليتها ونشأتها بعد الإسلام ، إذ أنها تستمد أساسها من القرآن والسنة ، وهو أم أصلين من الأصول الإسلامية . أما النحو فحمله باللغة وثيقة ، فاللغة قد وجدت وكلت قبل أن يوجد الإسلام . ولكن ينبغي أن نضيف إلى هذا اعتباراً آخر ، ذلك أنه فيها يختص بال نحو قد تدخلت عوامل جديدة أهمها : صفة القداسة التي تمنع اللغة العربية حرفاً من القدماء على الرفع من

لأنها مادامت قد أحببت لغة التنزييل والإسلام . هذه الفداسة قدر جعلتهم  
 فترضون أنها توقيفية ، وأنها أشرف اللغات على الإطلاق ؛ وأنها كانت  
 بحجة الإعراب لا يأتيها اللحن ولا الخطا من بين يديها ولا خلفها بل إن  
 هذه الرغبة نفسها قد دفعتهم إلى تفريح ما هو أشد من ذلك كله ، فلقد قالوا  
 ن اللغة العربية كانت لغة آدم عليه السلام في الجنة ، واستمر يتحدث بها  
 بتفاهم بواسطتها حتى كانت منه الخطيبة التي ارتكبها بعصيان أمر ربه وعلى  
 نز ذلك قد انتزعت منه اللغة العربية انتزاعاً ، وهكذا بين لحظة وأخرى  
 ئى اللغة التي كان يعبر بها عن رغباته ويشرح بها ضرورياته ؛ وبقى كذلك  
 تاب إلى ربه وحينئذ عادت إليه اللغة العربية وتقمصته من جديد فأخذ  
 حدث بها **كأن لم يكن** منه نسيان فيها مضى ، أمر عجيب ، وتصور  
 يجب ١١١ .

وعلى هذا فقد تربى إلى بعض العلماء قديماً أن نحو هذه اللغة لابد وأن  
 يكون كذلك توقيفياً . قيزعم ابن فارس أن علم النحو في اللغة العربية قديم  
 دمها ومنزل كتنزيلها ، وأنه كان معروفاً ومدروساً من أيام جرهم ، ثم  
 رسيت قواعده مع استمرار العمل به حتى جاء أبو الأسود الدؤلي وشعر  
 الحاجة إليه فأجراها ما اندر منه وعمل على تعليم الناس من جديد (١) .

(١) - انظر تاريخ آداب العرب للرافعى ج ١ ص ٢٤١

وأظننا في غير حاجة إلى أن نقف أمام هذه الرواية وأمثالها لنقدّها ، أو لتفنيدها ، وخصوصاً وأن بعض القدّماء أنفسهم قد عز عليهم تصرّفها ، ورفضوا قبولها . وقد كان هذا الرفض في أغلب الأحيان سليماً ، إذ أنهم لم يرجعوا في أولية الوضع في النحو إلى ما قبل الإمام علي بن أبي طالب .

ويضاف إلى هذا عامل آخر وهو إن كان يعتبر في الدرجة الثانية بالنسبة لمعنى القدّاسة إلا أنه جدير باللاحظة ، ذلك هو الرغبة البينة في إسناد هذا العلم إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رأس الشيعة . ولا يبعد أن يكون هذا نوعاً من الدعاية السياسية والدينية في وقت واحد .

هذه الأمور مجتمعة قد كتبت المسألة غرضاً : وزادت الأسر اضطراباً وجعلتنا نقف من نشأة النحو العربي موقف المتردد في قبول هذه الروايات العديدة في نشأة النحو ، ومن أحسن توابعه ، ورسم خواصه الأولى ، بالرغم مما نلاحظه من شبه إجماع للرواية في إسناد هذا العلم إلى على بن أبي طالب : وعنده أخذه أبو الأسود الدؤلي . فإن الإجماع أو شبهه في هذه المسألة ينبغي أن لا يكون له من الأهمية مثل الإجماع في بعض المسائل الدينية ، إذ يجوز أن يكون مصدر هذا الإجماع رواية فردية ، ثم تناقلها الخلف عن السلف حتى وصلت اليانا في شبه إجماع .

كل هذه الاعتبارات ينبغي أن تدخل في حسابنا ، وأن تكون موضع ملاحظتنا حينما نبحث نشأة النحو العربي . وما دام رائداًنا الأول في الدرس

هو العقل ، به تفهم الروايات ، وبه تحكم عليها ولا ندعها تفرض نفسها علينا ، وعليه نعتمد في التحليل والاستنتاج . نقول ما دام رأيَنا الأول هو العقل فقد تكون رواية فردية في زاوية مهجورة من زوايا الكتب أولى بالعناية ؛ وأجدر بالاهتمام من شبه الإجماع الذي يطالعنا في أغلب الكتب ، وفي المكان البارز منها .

إن الأسباب التي يمكن أن تكون قد دعت إلى وضع النحو العربي في جلبتها نفس الأسباب التي دعت إلى نشأة العلوم الإسلامية الأخرى في عصر الدوله الاموية ؛ حافز ديني أولاً ؛ ثم ظروف اجتماعية ثانياً ، وسنفصل الكلام عن هذين السبيلين بعد قليل .

وهكذا لو نظرنا في نشأة علم القراءات أو الفقه أو الرواية أو التفسير لما رأينا واحداً منها يخرج عن هذه الاعتبارات قليلاً مغفلاً إذن أن يشد وضع النحو اللهم إلا في جزئيات لا تتناول جوهر المسألة وإنما تمس العرض كالاستعانة في ذلك ببعض ما عرف عند الأجانب ، وكاتخاذ خطارة عملية فيها قبل أن يخطو العلماء المسلمين الآخرون في ميادين علمهم .

وبكل أن نأتي على ذلك بالتفصيل نحب أن نستعرض في صورة عاجلة نشأة العلوم الإسلامية الأولى ليكون ذلك بمثابة التمهيد لكلماتنا عن النحو الذي لا ينبغي أن ينظر إليه كحلفة مفردة ، الشيء الذي يفسد علينا فهم كثير من مسائله ؛ نتيجة الأفق الضيق الذي نحصر فيه أنفسنا ؛ ولا

علم القراءات :

بعد أن جمع الخليفة عثمان أمر المسلمين على نص واحد من المصحف مدفوعاً في ذلك بما بلغه من اختلاف الصحابة في قراءة القرآن نسخ منه أربع نسخ بواحدة إلى المراق وبآخرى إلى الشام وبثالثة إلى مصر وأبقى الرابعة في المدينة ، ولم يمض زمن طويل على هذا الصنيع حتى أصبح لأهل كل مصر من هذه الأماكن قراءة خاصة يتبعون فيها واحداً من القراء توفرت فيه الثقة ، وهكذا تعدد القراءات بتعدد القراء وأصبحت لكل قارئ طريقة في الأداء ، والتوأتر من هذه القراءات سبع ، تنسّب إلى من اشتهر بروايتها <sup>(١)</sup> والذى يهمنا من ذلك أن هذه القراءات تزولت بالرواية

(١) - هذا هو الرأي المجمع عليه وقد يعدها بعضهم عشراً، ونام القراء السبعة كما يعدهم صاحب الفهرست ص ٤٣ طبعة مصطفى محمد.

وَالَّذِي نُسْتَطِعُ الْآنَ أَنْ نَلَاحِظَهُ بِوِجْهِهِ عَامَ عَلَى هُزُلَاءِ الْقِرَاءَهُ هُوَ أَنْ  
أَغْلِبُهُمْ مِنَ الْمَوَالِيِّ الَّذِينَ وَضَعُوا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَلْفَسُكُونَ مِنْ مَعَارِفٍ ، وَمَا  
يَتَصَفُّونَ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَذِكْرٍ فِي خَدْمَةِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ فَكَانَ لَهُمْ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ  
أَثْرٌ عَظِيمٌ .

أولاً :- أبو عرفة بن العلاء وهو عربي من تميم وقد توفي بالنكبة

ولم تأخذ شكلها على المنظم إلا في القرن الرابع الهجري حيث نجد  
أول كتاب دون في هذا العلم ، وهو كتاب الإيضاح في الوقف والابداء  
لمحمد بن قاسم الأنباري المتوفى سنة ٤٢٨ هـ : ومن هذا الكتاب توجد نسخة

---

سنة ١٥٥ هـ ، ولم تكن شهرته في اللغة العربية بأقل من شهرته في القراءة  
للقرآن ، وقد أخذ عنه يونس بن حبيب كما أخذ عنه كثير من مشايخ البصريين  
في الطبقة الرابعة منهم .

ثانياً :- نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدنى المتوفى سنة ١٦٩ هـ  
بالمدينة ، ويروى الأصمى عن نافع هذا أنه قال : « أصلى من أصفهان » ،  
وكان مولى جعونة بن شعوب الشجاعي ، وقد غرف عنه أنه كان شديداً  
السوداد ، وأشهر من روى عن نافع محمد بن إسحق المسمى .

ثالثاً :- عبد الله بن كثير ويكتفى أبا سعيد ويقال أبا بكر ؟ وهو من  
قراء مكة في الطبقة الثانية ، وهو مولى عمرو بن علقمة الكنافى ، وكان من  
أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى بالسفن إلى اليمن لطرد الأحباش منها ..  
وقد توفي عبد الله بن كثير سنة ١٣٠ هـ بمكة ودفن فيها بعد أن صارت له  
شهرة عظيمة بأرض الحجاز . ويدرك ابن خلكان ج ١ ص ٢٥٠، أن ابن كثير  
كان أسر اللون طويل القامة جسماً أشهى العينين ، أبيض الرأس . واللحية ،  
وكان يغير شيبته بالحناء . وأشهر من روى عنه إسماعيل بن عبد الله ابن  
قططنين مولى ميسرة مولى العاص بن هشام .

رابعاً :- عاصم بن بهدلة ويكتفى أبا بكر بن أبي النجود . توفي بالكوفة  
سنة ١٢٨ هـ ، وهو مولى بني جذيمة ، وقد أخذ القراءة عن أبي عبد الرحمن

خطبة في دار الكتب المصرية وثانية في المتحف البريطاني وثالثة في مكتبة كوبيريللي في الآستانة ، ومعنى هذا أن علم القراءة بدأ في خلافة عثمان واستمر يمارس مشافهة دون تدوين حتى القرن الرابع المجري .

---

السلى : وزَرْ بن حبيش . وقد روى عن عاصم بن بهدله أبو بكر بن عياش مولى واصل بن حيان الأحدب .

خامساً : - عبد الله بن عامر اليحصبي وكنيته أبو عمران ؛ ويقال إنه أخذ القرآن عن عثمان بن عفان وقرأ عليه ، ويعتبر في الدرجة الأولى من التابعين ؛ وهو من أهل دمشق وقد توفي بها سنة ١١٨هـ . وقد روى عن ابن عامر كثير ، منهم يحيى بن الحارث الدمشقي ، وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر وسعيد بن عبد العزيز .

سادساً : - حزه بن حبيب الزيات ، وهو مولى آل عكرمة بن رباعي التيمي ، وكان يشتغل بالتجارة ما بين الكوفة وحلوان العراق ، فكان يحمل الزيت من الكوفة إلى حلوان ، ويحمل من حلوان الجبن والجوز إلى الكوفة وهو في الطبقية الرابعة من الكوفيين . وتوفي بحلوان العراق سنة ١٥٦هـ .

سابعاً : - الكسائي النحوي ، علي بن عبد الله بن بهمن بن فيروز وهو من أصل أعجمي ، قد نشأ بالكوفة وكان كثير الانتقال في البلدان . قرأ علي عبد الرحمن بن أبي ليلي وحزة بن حبيب . وكان يقرئ الناس أولاً بقراءة حزة ؛ وأخيراً في خلافة هارون الرشيد اختار لنفسه قراءة أقرأ بها الناس وقد توفي بقرية من قرى الري سنة ١٧٩هـ .

اما التفسير فقد نشأ كذلك بسيطاً يتعذر على بعض الآيات التي غمض معناها أو تحتمل أوجهاً من التأويل؛ وأول من تجمع الروايات على تفسيره القرآن هو ابن عباس المتوفى سنة 68هـ؛ ولكن هذا العلم أيضاً قد استمر مشافهة حتى أواخر القرن الأول المجري؛ ولم يعرف كتاب دون في التفسير قبل الذي دونه مجاهد المتوفى سنة 104هـ

وحتى ما دونه هذا العالم لم يوقف له على أثر حتى الآن؛ ولكن يظل أن تدوينه في التفسير ليس إلا تفسير ابن عباس قد وصل إليه بطريق الرواية، ويؤيد هذا ما وجد في دار الكتب المصرية من نسخ في التفسير منسوبة إلى ابن عباس بينما مقدمة هذه النسخ تشير إلى أن هذا التفسير لم يدون في أيام صاحبه وإنما نقل بالرواية دون في عهد متاخر، وقد اطلع على هذه النسخ وناقش هذه المسألة الأستاذ جورج زيدان<sup>(١)</sup> وقد انتهى فيها إلى هذا الرأي الذي ذكرناه.

---

<sup>(١)</sup> تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ هـ ٢٠٥ . ولمن يريد التوسع في هذه المسألة، والتأكد منها يرجع كذلك إلى ما كتبه صاحب الفهرست ص ٥٠ طبعة المطبعة الرحمانية بمصر، تحت عنوان ( تسمية الكتب المصنفة في تفسير القرآن ) .

ولقد خلّا بجهود العلماء في خدمة القرآن ودراساته خطوات واسعة ، حتى أصبحنا في عصر ابن النديم نجد أن عدد المكتب التي ألفت في تفسير القرآن فقط قد بلغت خمسة وأربعين كتاباً ؛ وهذا عدا ما ألف في معانٍ القرآن ومولفه وبخوازه ، ثم في غريبه ؛ وقراءاته ، ونقطه وشكه وزروله ، وناسخه ونسخه وأحكامه ، وتنزيله ... الخ (١)

### علم الحديث :

وأما الحديث فكان أول أمره مقصوراً في روايته على الصحابة الذين سمعوا نصه من الرسول ولم يكن هناك مجال لتحريفه أو للإضافة إليه ، ولكن بعد الفتنة الكبرى التي أصابت المسلمين بمقتل عثمان نشط الحديث شاطئاً غير معهود إذ استغلته أحزاب الأمة الاوية لاغراض سياسية ، فبدأ دعاة كل حزب يضعون من الأحاديث ما يبرر مذهبهم ، وتكرر ذلك مع الزمن حتى أصبح من غير البسيط تمييز الصحيح من الباطل وهنا اضطر علماء الإسلام إلى التفكير الجدي في وضع أسس هذا العلم وضوابط الرواية لكي يمكن التمييز بين الأحاديث الصحيحة والضعيفة والمخالفة ، ومع هذا فقد ظل هذا المجهود العلى في هذا الميدان يتناقل مشافهة طول عمر الدولة الاوية ، ولم يعرف من دون فيه قبل الإمام

---

(١) التهرست لابن النديم ص ٥٨ إلى ٥٠ ، حيث يوجد ثبت لكل الكتب المؤلفة في هذه الموضوعات .

مالك بن أنس التميمي الترشى المنوفى سنة ١٧٩ هـ ، وكتاب هذا المحدث  
التفقىء هو الموطأ الذى جمعه ورتب أبوابه على حسب ترتيب أبواب الفقه ،  
ويعتبر الموطأ الثمرة الأولى لجمع هذا العمل وتسويقه عنوابط الرواية ؛ ومن  
بعده نضع هذا العلم نضوجاً سريعاً وجمعت فيه الكتب على أيدي الأئمة  
من المحدثين .

### علم الفقه :

وأما الفقه فكانت أول مسائله تدور حول تعرف بعض الأحكام الدينية  
وتقديرها ، وكان الرسول بطبيعة مركزه أول من يستفتى في ذلك ،  
وحينما انتقل إلى جوار ربه قام الخلفاء الراشدون وغيرهم من الصحابة بهذه  
المهمة ؛ وذلك هي انطلاقة الأولى للفقه في الإسلام ، غير أن طبيعة المجتمع  
الإسلامي في أول الأمر لم تكن في حاجة كبيرة إلى غير ما تصرح به  
نصوص الكتاب والسنة . ولكن حينما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية  
وتشعبت أمور المجتمع وتعقدت المسائل الدينية ابتدأت الحاجة إلى الفقه  
والفقهاء ليرجع إليهم في شؤون التولية ، والعزل ؛ والقتل ، والعقوبة ، وغير  
ذلك مما يمس الدين ويهم المسلمين ؛ ومع هذا فقد استمر الفقه كغيره من  
العلوم الإسلامية يدرس ويُتَّفَهَم عن طريق المشافهة والرواية طول العصر  
الأموي ؛ ولم يُعْرَف فيه نظام التدوين والنَّوَافِل إلا بعد أن تخصص له  
العلماء ونبغ فيه الأئمة الاربعة في عهد الخلفاء العباسيين ؛ الإمام مالك  
ـ ١٧٩ هـ ؛ والإمام أبو حنيفة ـ ١٥٠ هـ ، والإمام الشافعى

ولأنّ من يدرّس مبادئ الفقه الإسلامي ، ويلاحدة ما طرأ عليه من تطور في الأحكام بالنسبة لتطور الدولة والمجتمع لا يخامره شك في أن بجهود الفقهاء في الدولة الإسلامية لا يقل عن بجهود المُشروعين ورجال القانون في الدول الأخرى .

من هذا العرض الريّع تتبّع لنا ظروف نشأة العلوم الإسلامية الأولى وطريقة نموها وتطورها ولم يكن الحافظ لتأسيسها وتدوينها رغبة مجردة للعلم من حيث هو ، وإنما هي ضرورة اجتماعية يحدوها حافظ ديني . وعلى هذا الأساس نستلهم أنّ تصور علم النحو ، غير أنه من المرجح أن تكون الضرورة في التفكير في وضع أسلوبٍ كانت أشد إلحاحاً من الضرورة في وضع العلوم الأخرى ، إذ أنّ موضوع هذه العلوم حكّان إما تفهم نصوص الدين على حقيقتها وإما استنباط أحكامه كي يتمشى مع اتساع الدولة ورقى المجتمع ، ولم يكن هناك نوع من الفساد قد تسرّب إلى طبيعة الإسلام وحالة المسلمين في الزمن المبكر .

أما موضوع علم النحو فكان اللغة التي هي بمنابع الأداة للتعبير عن تلك الأحكام ، وقد رأينا كيف تعرضت هذه اللغة إلى الفساد منذ أيام الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولاذن يمكننا على ضوء ما تقدّم من الكلام على اللعن ونشأته أن نقول .

السبب المباشر في وضع النحو هو تسلب الفساد إلى لسان العرب سراء  
 ان ذلك على يد الأجانب الذين دخلوا في الإسلام أم على يد العرب  
 ن استرجوا بهؤلاء الأجانب وخالفتهم ثم سلكوا في الحياة الاجتماعية  
 بلاً لم يكن معهوداً لهم من قبل ، وهناك سبب آخر يمكن إضافته إلى  
 وهو الرغبة في تعليم اللغة العربية وتيسير طرق الأداء بها بعد تفهمها  
 راكِ دقاتها وأسرارها بالنسبة للأجانب الذين اضطروا تحت راية الدولة  
 الإسلامية وعقولهم ناضجة وثقافتهم واسعة وتفكيرهم منطق سليم إلى حد  
 ، وما كان ينقص هؤلاء سوى الإجادة في أداة التعبير التي أصبحت  
 دوامة في المجتمع الإسلامي بأسره الحسكي يستغلوا مواهبهم في تأسيس  
 ماركة الإسلامية ؛ وينالوا حظهم، من الحياة في ذلك المجتمع العربي الجديد .

بهذه الحالة أمثالها عند اليونانيين حينما اتسعت رقعة الدولة وبدت  
 الرغبة في تعليم الشعوب المفتوحة لغتهم وفهم وأدبهم ؛ فقد رأينا  
 ، السياستة . فيهم يعتمدون إلى حد كبير على رجال اللغة اليونانية ؛  
 ما هؤلاء اللغويين بدورهم ينجزون في النحو نهجاً جديداً لا يقوم فقط  
 إدراك بما في اللغة اليونانية من أسرار بلاغية ودقائق فنية ،  
 لكنهم يضعون بجانب هذا الضوابط والأنساق التي تمهد السبيل لتعليم  
 اليونانية بالنسبة للأجانب الذين كانوا يجدون من المخواز العديدة  
 لهم ، إلى معرفة تلك اللغة .

وكذلك الشأن أينما عند الروم ؛ بل إننا لا نزال نجد نفس التاريقه  
ونفس المدف ملاحتين عند اصحاب اللغات الحديثة الذين يهتمون في  
نشر ثقافتهم واعلame شأن معارفهم ؛ وليس ذلك في الواقع سوى امتداد  
للقديم .

هذا ، فيها نعتقد ، هما السيبان الرئيسيان في نشأة النحو ، وإن كنا  
نعرف بأن هناك أسباباً أخرى ثانوية قد لبست هذا البحث وحذرت  
المهتمين بشأنه إلى أن يخطوا فيه خطوات واسعة سريعة ، من ذلك ما كان  
يوجد بين الدارسين للعربية من تناقض على تلك المكانة الأدية التي يتسع  
بها كل من يبرز في معرفته للغة الصحيحة وخصوصاً في زمان كان المشرفون  
فيه على أمور الدولة من أشد الناس حرماً على اللغة السليمة وتمسّكاً بكل  
ما هو عربي ، ومن ذلك أيضاً ما كان من منافسة بين مدرستي البصرة  
والبكوفة على جمع اللغة والدراءة بها ووضع الضوابط لتفهمها والإجاده  
فيها ، ونحن نعرف ببلغ تشجيع الخلفاء الامويين لهاتين المدينتين رغبة منهم  
في أن يحل محل مكة والمدينة في بيئة الحجاز وما كان لذلك من أثر في  
شمذatum ، والهوض بالعلم والبحث وخصوصاً ما تناول النحو . والذى  
ينبغي أن نلاحظه هنا قبل أن ننتقل إلى الكلام عن نقطة أخرى هو أن  
السبعين الرئيسيين لنشأة النحو كانوا يتمشيان ضرورة مع طبيعة تطور النحو  
نفسه ، وبلغ حاجه المجتمع إليه مثل ما حدث بالنسبة للعلوم الإسلامية .

الأخرى التي تقدمت الإشارة إليها ، يعني أن المؤطورة الأولى في وضع النحو  
ينبغي أن تكون بذابة رد الفعل المباشر لترسب اللحن إلى اللغة والقرآن  
على الخصوص ، فلا بد إذن أن يكون التردد منها هو إبعاد هذا الخطر  
عن نصوص القرآن وهو جامع أمر الدين ، ولن يتطرق ذلك إلا بوضع  
نوابط عملية تحفظ عليه نصوصه ، وتسهل على من لم يسكن مسكنًا من  
لغوية قراءته . ثم تعدد الأسباب الأخرى ويفتح أمام الباحثين ميدان  
جديد ، فيتوسون في الدرس بقدار ما تسمح لهم ظروف البحث نفسه ،  
أخيرًا ينتهيون إلى الفكرة المجردة عن العلم من حيث هو لا من حيث  
شكونه مقيداً باعتبارات أخرى .

وهنا نلس عنصرًا أجنبياً يدخل على العقلية العربية ، والتفسير عند  
لماه الإسلام ، فيكيف تلك العقلية تكييّفاً جديداً وينظم هذا التفسير  
شيئاً يخضع لمبادئ علمية ، لم تكن معروفة عند المسلمين من قبل ؟ ونعني  
ذلك العنصر هو أثر الفاسفة اليونانية بصفة خاصة ؛ وليس لنا أن نفيض  
آن في هذا الأثر ، وفيما كان من تأثيره المباشرة على التفسير والعلم ؛  
أننا سنتحدث عنه في شيء من التفصيل عندما تتعرض الكلام على الأثر  
الجني في النحو العربي .

وبعد فإننا نظن أن لهذا التهديد أثره فيما سنتحدث عنه بعد قليل بالنسبة  
تأريخ وضع النحو وتتبع المراحل التي مر بها حتى أصبح مهيناً لأن  
ين غلباً ناضجاً .

إن الكلام على الواضع. الأول للنحو العربي يستلزم منا كلمة يسيرة عن لفظ «النحو»، وكيف أطلق هذا اللفظ على مجموعة القواعد التي تضبط اللغة وتنظم النغاع بها. وهذا بطبيعة الحال يحتاج منا بدوره أن نرجع بعقولنا إلى الماضي لنعيش بما فتره في حياة العرب بعد أن توطنت دعائم الإسلام وثبتت قواعده في البيئات المفتوحة، ونعني بذلك الفترة المأذنة المحصرة بين سنة ٤٠٤ هـ وأواخر القرن الأول الهجري. في هذه الفترة نلاحظ اتجاهًا جديداً من جانب العرب في تنظيم دولتهم تنظيمًا داخلياً، ولعل ألم مظاهر لهذا الاتجاه هو العناية باللغة العربية، سواء أفهم ذلك عنهم تعصباً للغتهم أم لا، فإن طبيعة موقفهم كؤسسين لدولة إسلامية كانت تحتم عليهم ذلك الاتجاه وتلك العناية.

ولهذا يجب ألا نلقى بالاً إلى قول أوزبك الذين ينسبون التغريب إلى العرب، حينما أخذوا يفرضون لغتهم بطريق غرين، مباشر على الشغوب المفتوحة مقارنين صنيع العرب في هذه بـما صنعوا الرومان حينما غزوا بلاد البوتان

والشعوب الخاضعة لهم دون أن يتعرضوا إلى لغة هذه الشعوب، بل تركوه  
 يمارسون التعليم، ويدبرون دفة الأمور الموكولة إليهم في الدولة. يلغتهم: هم  
 لا باللغة اللاتينية، نقول يجب إلا تلقى <sup>بالأَن</sup> إلى رأي الغاندين بهذا كلام يجب  
 أن نلاحظ الفارق البالغ بين الدولة الرومانية، والدولة العبرية، ففي تلك لم  
 تكن لها رسالة دينية ت يريد أداؤها، ولم يكن غرضها من الفتح سوى انتظام  
 السياسية والاقتصادية بأوسع معاناتها، أما الدولة العربية فكان غرضها الأول  
 هو نشر الديعة الإسلامية وتنفيذ رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأهم  
 أصل في الإسلام هو القرآن؛ مصدر الأحكام والقوانين وهو باللغة العربية  
 فإذا ذكرنا فلما يكن عجياً من العرب أن يوجهوا همهم إلى اللغة العربية يستعملونها  
 في إدارتهم؛ ويجهدون السبل لتعلمها، ويتجهون على التباغض فيها، وأهم عمل  
 لهم في هذا هو ترجمة الدواوين إلى اللغة العربية، وبكان بذلك أيام خلافة  
 عبد الملك بن مروان، وأول ديوان نقل إليه هو ديوان الشاعر بلغة الروم  
 وكان بذلك في سنة ٨١هـ، ثم تلاه بعد ذلك ديوان أهل فارس بالفارسية  
 وديوان أهل مصر بالقبطية.

في هذه الفترة التي تحدثنا عنها منذ قليل لم يكن العرب قد استقرروا من  
 الناحية الفكريّة والعلمية كما استقرروا من الناحية الإدارية والسياسية، ولو لهذا  
 ليس مغلوطاً أن نتصور لدى العرب في يخلال القرن الأول من الهجرة  
 هؤلماً منظمة؛ لها قواعدما؛ ومتناهجاً؛ ومصطلحاتها.

وإذن فإنه لما ينبغي أن نلاحظه قبل كل شيء أن كلمة «ال نحو» ، التي تستعملها هنا لا نريده منها نحو بمعناه العلمي المترافق ؛ فإن ذلك لم يكن إلا في حضور متأخرة بعد أن سار هذا العلم خطوات في سبيل التكوين والنمو . وأما في مرحلته الأولى ، أو في الفترة التي تتحدث عنه فيها ؛ أى في زمن : حياة علي بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وبعض من جاء بعدهما فكان يطلق عليه ( العربية ) . ولذلك استعمل الكلمة ( نحو ) استعمالاً بجازياً باعتبار ما يزول إليه ، وذلك مثل صنيع سائر الرواة . الذين استعملوا هذا الاصطلاح على ما عرف من هذا العلم أيام على أو أيام أبي الأسود الدؤلي . وستأتي بعد قليل فرصة تتحدث فيها عن أولئك الرواة . ونذكر لص عباراتهم التي استعملوها في نسبة هذا العلم إلى واضعيه .

وفى الحق أنه بعد أن هدانا البحث الطويل في كتب اللغة ، والأدب ، والرواية ، والتاريخ إلى أن كلمة « نحو» ، لا يمكن أن يقصد منها في عهد الدولة الاموية ؛ وصدر الدولة العباسية ذلك المعنى الاصطلاحي الذي تفهمه الآن ، نقول إنه بعد أن هدانا البحث إلى ذلك واطمأنت إليه نفسينا ، وقر به ضميرنا وجدنا في ثنايا اطلاعنا ما زعزع بهذه الضمانينة ، وأزعج ثقتنا فيما وصلنا إليه من استنتاج ، ذلك أننا رأينا في ترجمة يوحنا الإسكندراني أنه كان قد اصطلاح على تلقيبه بـ «ال نحو» ، وكان يوحنا هذا من النصارى اليعقوبيين ، وكان يعيش أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ثم أيام المخلاف .

لراشدین من بعده ، ونذر أدرك فتح عمرو بن العاص لمصر وكانت له في البلاد  
 المصرية شهرة شديدة حتى أن عمراً ذهب إليه ولقيه فأكرمه واعترف  
 بكتابته .<sup>(١)</sup> وجود هذا الاصطلاح المبكي على تلك  
 الشخصية الناصرية أيام أوائل رجال اللغة العربية أمثال ابن الأسود الدؤلي  
 وعنبسة الفيل ، ونصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمن وغيرهم جعلنا نتردد  
 كثيراً فيها قررناه سابقاً بالرغم من أنها لم تغير فيها احتمالنا عليه على مثل  
 هذا الاصطلاح بالنسبة لذلة العلماء الغوريين من العرب . وبينما نحن في هذه  
 الحيرة من الأمر ، وفي ذلك التردد المزعج إذ بنا نهضى إلى تفسير لهذا  
 الاصطلاح من قدامى رجال اللغة العربية أنفسهم يزيل عننا تلك الشبهة ويذلّلنا  
 من هذه الحيرة ، بل ويعيد إلى النفس حالة الطمأنينة الأولى ، ذلك أنها رأينا  
 في لسان العرب تحت كلة - نحو - نصاً ينقله صاحب اللسان عن الأزهري  
 وهذا النص يفيد أن إطلاق كلمة - نحو - كان مارياً بالضبط لكلمة  
 لغوي -؛ وإذن فلم يكن المقصود بالنحو حينئذ الرجل الذي يدرس النحو  
 ويؤلف فيه بالمعنى الذي تفهمه الآن من كلمة النحو . وإليكم نص عبارة  
 الأزهري ، كما ينقلها صاحب اللسان :<sup>(٢)</sup> (نحو) الأزهري ثبت عن أهل  
 بونان فيما يذكر المترجمون العارفون بلسانهم ولغتهم إنهم يسمون علم الألفاظ

<sup>(١)</sup> - الفهرست لابن التديم ص ٢٥٦ - ٢٥٧

<sup>(٢)</sup> - لسان العرب ج ٢٠ . ص ١٨١

والغنية بالبحث عنه نحواً ؛ ويقولون كان فلان من النحويين ولذلك سمي  
يوحنا الإسكندراني بجي النحوى للذى حصل له من المعرفة بلغة  
اليونانيين . . . )

وإذا وضح لنا الآن أن كلة - نحو - بمعناها الأصطلاحى الذى نفهمه فى  
هذا العصر لم يسكن موجوداً في أيام الدولة الاموية ومصدر الدولة العباسية  
يدلنا على ذلك زيادة على ما تقدم أنتا لا نجد كتاباً في العربية . حتى - بعد  
سيبويه يسمى صراحة كتاب النحو ، فالكتابان المنسوبان إلى عيسى بن عمر  
البصرى المتوفى سنة ١٤٩هـ والذان لم يصلنا منها أى أثر كانا يسميان المكمل  
والجامع (١) وحتى ما ألقه سيبويه نفسه في هذا الميدان لم يكن يسمى بغير  
ـ الكتاب -

نقول إذا وضح لنا موقف لفظ - النحو - بمعناه الأصطلاحى فإنه لما يوضح  
ما نحن فيه ويزيل جانباً من الفوضى بالنسبة لنقطة حساسة ستحدث عنها فيما بعد  
ـ الآثر الأجنبي في النحو العربي - أن نذكر شيئاً عن معنى - النحو . في اللغة  
ـ مبينين أصل الاستعمال اللغوى ومصدر الكلمة ومشقاتها .

---

(١) يذكر هذين الكتابين كثير من الرواة ، ومنهم ابن التديم ، وإليك  
نصله في ص ٦٣ من الفهرست : « أثركنا القاضى أبو سعيد رحمه الله المخليل  
يذكر عيسى بن عمر والكتابين :

بطل النحو جيداً كله . . غير ما أحدث عيسى بن عمر  
ذلك إكمال لهذا جامع . . فيها للناسين شمس وقر

وَمَا نَحْنُ أَوْلَاهُ نَلْخُصُ هَذَا مَا ذَكَرْتُهُ كَتَبَ الْمَعَاجِمُ وَرَأَهُ رِجَالٌ  
الْلُّغَةِ . مُتَّبِعِينَ ، كَدَأْبِنَا فِي دراسةِ فَقْهِ الْلُّغَةِ ، الْمَنْجُ الَّذِي وَجَعْنَاهُ وَأَشْرَنَا  
إِلَيْهِ فِيهَا . مَضِيَّ الْمَرْفَعَةِ أَصْلُ الْكَلْمَةِ الْحَيِّ ثُمَّ تَطْوِيرُ مَعْنَاهَا . نَرْجِعُ أَيْنَ  
الْأَصْلُ فِي هَذِهِ الْمَادَةِ هُوَ — النَّاحِيَةُ — أَيْ الْجَانِبُ مِنَ الشَّيْءِ ؟ ثُمَّ جَاءَتْ  
الْمُشَتَّتَاتُ مِنْ هَذَا الْأَصْلِ فَوَرَدَ الْمَنْجَةُ لِسَيْلِ الْمَاءِ إِذَا كَانَ مَلْوِيًّا كَمَا يَقُولُ  
ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ وَيَشْتَهِرُ بِهَذَا الْبَيْتِ :

وَفِي أَيْمَانِهِمْ بَيْضٌ رِّقَاقٌ • كَبَاقِ السَّيْلِ أَصْبَحَ فِي الْمَنْجِي (١)  
وَأَطْلَقُوا أَيْضًا عَلَى بَطْنِ مِنَ الْأَزْدَلْفَظِ — بَنُو نَحْوٍ — وَاعْلَمُ ذَلِكَ كَانَ  
مِنْهُمْ لِاِنْتَهَاءِ جَانِبِ خَاصٍ يَقِيمُونَ فِيهِ أَوْ يَلْتَزِمُونَهُ ، وَمِنْ هَذَا الْوَادِي  
أَيْضًا مَا نَجَدَهُ مِنْ إِطْلَاقِ الْعَرَبِ لِفَظِ — أَهْلِ الْأَنْجَامِ — عَلَى الْقَوْمِ الْبَعْدَاءِ  
الَّذِينَ لَمْ يَكُونُوا بِأَقْرَبٍ . وَمِنْ مُشَتَّتَاتِ هَذِهِ الْمَادَةِ نَحْوٌ يَنْحُو بِمَعْنَى اِتْجَاهِ يَتَجَهُ  
أَوْ قَصْدِ يَقْصُدُ ، وَالصَّلَةُ وَاضْحَى بَيْنَ النَّاحِيَةِ ، وَهَذَا الْفَعْلُ ؛ وَقَالُوا أَيْضًا  
نَحْوُ الشَّيْءِ يَشْحَاهُ ، وَيَنْحُوهُ إِذَا حَرْفَهُ ، وَيَقُولُ ابْنُ السَّكِيتِ مِنْ : هَذَا سَعِي  
النَّحْوِي : لَأَنَّهُ يَحْرُفُ الْكَلَامَ إِلَى وِجْهِ الْإِعْرَابِ وَقَالُوا أَيْضًا نَحْوُتُ الشَّيْءِ  
أَنْحُوُهُ بِمَعْنَى أَهْمَتْهُ ؛ وَمِنْ مُشَتَّتَاتِ أَيْضًا رَجُلٌ نَّاِحٌ مِنْ قَوْمٍ نَّخَانِيَةٍ  
بِمَعْنَى رَجُلٌ نَّحْوِي مِنْ قَوْمٍ نَّحْوِيْنِ ، وَالنَّسْبَةُ فِي هَذَا كَالْنَسْبَةُ فِي لَابِنِ ،  
وَتَامِسِ ، وَلَسْنَا نَرِيدُ أَنْ نُضِيَّ فِي ذِكْرِ جَمِيعِ الْمُشَتَّتَاتِ مِنْ هَذِهِ الْمَادَةِ

(١) رَأَيْنَا مَادَةَ — نَحْوٌ — فِي لِسَانِ الْعَرَبِ جِ ٢٠ صِ ١٨١ - ١٨٥ .

فكلما تدور حول هذا الأساس الذي رجعنا أصله ، ولكن لا بد من بيان كيف انتقل هذا المعنى اللغوي إلى المعنى الاصطلاحي . ومن ذلك يظهر جلياً أن هذا الاصطلاح في إلقاء النحو على التعليم المعروف والمحوري على العالم بقواعد النحو وضوابطه ، نقول من ذلك يظهر جلياً أن هذا الاصطلاح عربي خالص وليس فيه أي أثر أجنبي ؛ ونكتفي في ذلك بعبارة صاحب اللسان فهى مختصرة واضحة ؛ يقول لسان العرب في نفس المادة التي نحن بصددها : « والنحو إعراب الكلام العربي والنحو القصد والطريق يكون ظرفاً ويمكون اسمياً ، نحو ينحوه ، وينحاه نحوأ ، واتحاه ، ونحو العربية منه إنما هو اتحاه سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالثنية والجمع والتحبير والتكبير والإضافة والمنسوب وغير ذلك ليلحق من ليس من أدل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم أو ان شذ بعضهم عنها رد به إليها وهو في الأصل مصدر شائع أي نحوت نحوأ كقولك قصدت قصداً ثم خص به اتحاه هذا القبيل من العلم ، كما أن الفقه في الأصل مصدر وقفت الشيء أي عرفته ثم خص به علم الشريعة من التحليل والتحرير ، وكما أن بيت الله عز وجل خص به الكعبه وإن كانت البيوت كاها الله عز وجل ، قال ابن سيده قوله نظائر في قصر ما كان شائعاً في جنسه على أحد أنواعه وقد استعملته العرب ظرفاً وأعمله المصدر ،

ولنعد الآن إلى الكلام عن الواضع للنحو ، وفي سبيل معرفة الواضع

الأول لهذا العلم عند العرب تعرضا آراء عدّة فيها كثيرون من التضارب والاختلاف ، ولذا فقد كانت فيها مضى ولا تزال حتى الآن مصدر كثير من التردد والشك عند من يريد درس هذه المسألة وتحقيقها . وسنحاول أن نسلك في ذلك منهجاً أساسه تحكيم العقل ، والتح بصـ العـلى ؛ ولـهـذا فـإـنـاـ لـنـ نـرـفـضـ هـذـهـ الـرـوـاـيـاتـ المـتـضـارـبـةـ إـنـيـ تـطـالـعـنـاـ فـيـ ثـنـيـاـ كـنـبـ الـأـدـبـ .ـ وـالـلـفـةـ ،ـ وـلـكـنـتـنـاـ سـنـتـمـدـ عـلـيـهاـ إـلـىـ حـدـ بـعـيدـ ؛ـ إـذـ أـنـهـ لـاـ تـزالـ المـصـدرـ الـوـحـيدـ الـذـيـ نـسـتـطـيـعـ أـنـ نـعـثـرـ عـلـيـهـ حـتـىـ الـآنـ غـيرـ أـنـاـ سـنـدـرـسـهاـ ،ـ وـتـفـهـمـهـماـ ،ـ ثـمـ نـخـاـولـ أـنـ نـقـلـهـاـ عـلـىـ الـمـفـاـيـسـ الـعـقـلـيـةـ النـاقـدـةـ رـغـبـةـ فـيـ أـنـ بـصـلـ إـلـىـ الـحـقـيقـةـ الـذـيـ نـشـدـهـاـ .ـ هـذـاـ وـمـنـ يـطـلـعـ عـلـىـ مـاـ كـتـبـهـ رـجـالـ الـأـدـبـ وـالـلـغـةـ ،ـ وـمـاـ ذـكـرـهـ أـهـلـ الـرـوـاـيـةـ فـيـ هـذـاـ الصـدـدـ يـتـمـىـ إـلـىـ مـاـ اـتـيـنـاـ إـلـيـهـ وـهـوـ أـنـ نـسـبـ لـيـهـمـ وـضـعـ النـحـوـ الـعـرـبـيـ هـمـ أـرـبـعـةـ :ـ عـلـىـ بـنـ أـبـيـ طـالـبـ ؛ـ أـبـوـ الـأـسـوـدـ الـدـؤـلـيـ ،ـ نـصـرـ بـنـ عـاصـمـ ،ـ عـبـدـ الرـحـنـ بـنـ هـرـمـ .

والـذـيـ يـهـمـنـاـ أـنـ نـلـاحـظـهـ هـوـ أـنـ هـؤـلـاءـ الـأـرـبـعـةـ قـدـ وـجـدـواـ عـلـىـ وـجـهـ التـقـرـيبـ فـيـ عـصـرـ وـاحـدـ .ـ فـعـلـىـ قـتـلـ فـيـ سـنـةـ ٤٠٥ـ ،ـ وـأـبـوـ الـأـسـوـدـ الـدـؤـلـيـ تـوـفـيـ فـيـ سـنـةـ ٦٩٥ـ ،ـ وـنـصـرـ بـنـ عـاصـمـ تـوـفـيـ فـيـ سـنـةـ ٨٩٥ـ ،ـ وـعـبـدـ الرـحـنـ بـنـ هـرـمـ تـوـفـيـ فـيـ سـنـةـ ١١٧٥ـ ،ـ وـإـذـنـ فـنـسـتـطـيـعـ أـنـ نـقـولـ إـنـ الـرـوـاـيـةـ مـتـفـقـوـنـ عـلـىـ أـنـ الـبـنـةـ الـأـوـلـىـ فـيـ تـأـسـيـسـ النـحـوـ الـعـرـبـيـ كـانـتـ فـيـ تـلـكـ الـفـرـةـ الـمـحـصـورـةـ بـيـنـ عـلـىـ بـنـ أـبـيـ طـالـبـ وـعـبـدـ الرـحـنـ بـنـ هـرـمـ ،ـ وـهـيـ

.. فترة لا تكاد تتجاوز سبعين سنة . والخلاف إنما هو فيمن وضع هذه  
بالبلة وقبل أن تناوش هذا الخلاف نحب أن نذكر أئم الرواية الذين أثروا  
عنهم بالقول في هذه المسألة :

· نجد أولاً محمد بن سلام البهجي فقد توفي سنة ٢٢٢ هـ . إذ يقول  
ما نصه : (١) .

· وكان أول من أحسن العربية ، وفتح بابها ، وأنهج سبيلاً ، ووضع  
قياسها - أبو الأسود الذؤل - ، ثم قال ، ووضع باب الفاء وال  
الماء على المضاف وحرف الجر ، والرفع والنصب والجزم ... ، ثم قال  
، ثم كان بعدهم عبد الله بن أبي اسحق الحضرى ، فكان أول من بعده  
· النحو ومد القياس وزوال العلل ،

ثم يأتي من بعد ابن سلام أبو محمد مسلم بن قتيبة (٢) وقد توفي سنة  
٢٧٦ هـ . إذ يقول : هو (أبي الأسود الذؤل) يعد في الشعراء ،  
والتابعين ، والمحدثين ، والنجلاء ، والمناقير ، لأنّه أول من عمل في النحو  
كتاباً ،

وبعد ابن قتيبة نجد المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ

---

(١) مقدمة كتابه طبقات الشعراء

(٢) الشعر والشعراء - ترجمة أبي الأسود ج ٢ ص ٧٠٧ (طبعة عيسى  
البابي الحلبي بالقاهرة - تحقيق وشرح أ.حمد. محمد شاكر )

إذ يقول <sup>(١)</sup> : « أول من وضع العربية ونقط المصاحف أبو الأسود وسئل عن أرشده إلى الوضع في النحو فقال : تلقيته عن علي . »

وبعد أبي العباس المبرد نجد صاحب الفهرست ، محمد بن إسحق النديم المتوفى نحو سنة ٣٨٥ هـ ، فيتوسع في الرواية وينقل عن آخرين إذ يقول : <sup>(٢)</sup> ( ذعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبي الأسود الدؤلي ، وأن أبو الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه . )

و قال آخرون : رسم النحو نصر بن عاصم <sup>(٣)</sup> الدؤلي . و يقال الليث ... قرأت بخط أبي عبد الله بن مقلة : عن ثعلب أنه قال : « روى ابن طيقة عن أبي النضر . قال : كان - عبد الرحمن بن هرمن - أول من وضع العربية . »

---

<sup>(١)</sup> ينقل هذه العبارة أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ، ويصدرها بقوله ( روى الفالى عن الزجاج أن أبو الغباس قال : ... )

<sup>(٢)</sup> ابن النديم - الفهرست ص ٥٩

<sup>(٣)</sup> يعرف نصر بن عاصم الليثي النحوي بأنه كان من أصحاب أبي الأسود الدؤلي ، ويزوئي الاستاذ الرافعى . ( تاريخ : أداب العرب ج ١ ص ٢٩١ هـ هامش ) أن أول كتاب وضع في النحو على التحقيق هو كتاب نصر بن عاصم ( انظر ياقوت ترجمة بن عاصم ) .

ثم ينتقل لنا بعد هذا صاحب الفهرست كلاماً طويلاً عما رأه وشاهده  
 بنفسه في هذا الموضوع ، ونحن نزور أن زروه بنصه ؛ إذ أن ذلك يلقى  
 بعض الضوء على ما نحن بهمداده . إذ أنه يحودنا عما رأه بنفسه ، وكل من  
 قرأ الفهرست لابن النديم ؛ أوقرأ عنه ، يدرك في سورة مكانته في دقة  
 الرواية ، وحرصه على تحري الحقيقة ، وزروعه إلى المعايير العقلية وتحكيمها  
 في كل ما يقرأ أو يسمعه . هذه الحبيطة من جانبه تستحق شيئاً من الثقة  
 والاطمئنان من جانبنا بالنسبة لما يرويه . يقول ابن النديم<sup>(١)</sup> ، كان بمدينة  
 الحديثة رجل يقال له محمد بن الحسين ، يعرف بابن أبي بره ، جماعة  
 للكتب ، له خزانة لم أر لأحد منها كثرة تحتوى على قطعة من الكتب  
 العربية في النحو واللغة والأدب والكتب القديمة ، فلقيت هذا الرجل دفعات  
 فائس بي - وكان ثقيراً ضئيناً بما عنده ، خاتفنا عليهما من بنى حدان -  
 فأنخرج لي قطراً كبيراً ، فيه نحو ثلاثة رجال ، جلود ومساك وقرطاس  
 مصرى . وورق صيني ، وورق تهانى ، وجلود أدم وورق خراسانى ، فيها  
 تعليلات عن العرب ، وقصائد مفردات من أشعارهم وشيء من النحو  
 والحكايات والأخبار والأنساب والآميات ، وغير ذلك من علوم العرب  
 وغيرهم .

وذكر أن رجلاً من أهل الكوفة - ذهب عن اسمه - كان مستهراً  
 بجمع الخطوط القديمة ، وأنه لما حضرته الوفاة خصه بذلك لصداقة كانت

---

<sup>(١)</sup> الفهرست ص ٦٠

بینها ، بأفضان من محمد بن الحسين عليه السلام ، وبجانسته بالماذهب فإنه  
كان شیعیاً . فرأيتها وقلبتها فرأيت عجباً ! إلا أن الزمان قد أخلفها وعمل  
فيها عملاً ، أدرّها وأحرفها . وكان على كل جزء أو ورقة أو مدرجة  
توقيع بخطوط العلماء ، واحداً بعد واحد ، يذكر فيه خط من هو ،  
وتحت كل توقيع توقيع آخر ، خمسة وستة من شهادات العلماء على خطوط  
بعض لبعض . ورأيت في جملتها مصحفاً بخط خالد بن أبي الهايج ، صاحب  
على رضي الله عنه ، ثم وصل هذا المصحف إلى عبد الله بن حافى رحمه  
الله ، ورأيت فيها بخط الإمامين ، الحسن والحسين ، ورأيت عنده أمانات  
وعهوداً بخط أمير المؤمنين علي عليه السلام وبخط غيره من كتاب النبي  
صلى الله عليه وسلم ، ومن خطوط العلماء في النحو واللغة مثل أبي عمرو بن  
العلاء ، وأبي عمرو الشيباني ، والاصمعي ، وابن الأعرابي ، وسيبوه ،  
والفراء ، والسكاني ، ومن خطوط أصحاب مثل سفيان بن عيينة ، وسفيان  
الثورى ، والأوزاعى ، وغيرهم ورأيت ما يدل على أن النحو عن أبي  
الأسد ما هذه حكاياته وهي أربعة أوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها  
هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود رحمة الله عليه بخط  
يحيى بن يعمر .

وتحت هذا الخط بخط عتيق هذا خط علان النحوى وتحته هذا خط  
النصر بن شمبل ثم لامات هذا الرجل فقدنا القمطر وما كان فيه فما سمعنا

له خبراً ولا رأيت منه غير المصحف هذا! على كثرة بحثي عنه . . .

ثم إننا نجد بعد ابن التديم أبا الطايب عبد الواحد بن على المتوفى سنة ٣٥١هـ. يقول في ذلك : « كان أول من رسم للناس النحو أبا الأسود .

أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكان أعلم الناس بكلام العرب . وأبو الأسود أول من نقط المصحف . وخالفه

الناس إلى أبي الأسود يتعلمون العربية وفرع لهم ما كان أصله ،

ويعاصر أبا الطايب هذا أيام لغوى آخر هو أبو سعيد السيرافي المتوفى

٣٦٨هـ. فنجد أنه يروى في هذه المسألة أيضاً رأياً لا يخرج عن آراء

السابقين إذ يقول « أول من رسم النحو أبو الأسود الذافلي ،

ويعاصر السيراني عام لغوى آخر ؛ هو أبو منصور محمد بن أحمد ابن

الأزهر طحة بن نوح بن أزهر الأزهري المخروي المتوفى سنة ٣٧٠هـ .

فيري رأياً لا يختلف فيه معاصره ؛ اذ يقول : « وباعنا أن أبا الأسود

الذافلي وضع وجوه العربية . وقال للناس انحوا نحوه فسمى نحوآ . . . »

وأصحاب هذه الروايات المتقديمة قد عاشوا كما رأينا في القرن الثاني

والثالث والرابع المجري . وبعد هذا القرن نجد رواة آخرين يرددون

نفس الروايات المتقديمة دون أن تكون لهم أصالة أو رأي جديد . ولعل

---

(١) ينقل هذه العبارة عن التذيب للأزهري صاحب لسان العرب في  
مادة . . . نحنا — جـ ٢٠ صـ ٢٨١

أولام بالذكر الحافظ بن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، والسيوطى المتوفى  
سنة ٩١١ هـ ، والفقىهى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ

أما الحافظ فإنه ينقل عبارة المبرد الذى ذكرناها فيما مضى إذ يقول :  
أول من وضع العربية ، ونقط المصاحف أبو الأسود ، وسئل عن  
مخرج له . الطريق فقال تلقته عن عَلَى .<sup>(١)</sup>

وأما السيوطى فإنه يذكر أغلب هذه الآراء المقدمة ؛ وهو كذا به  
( يخالل تمجيئها ) ؛ ولا إبداء رأى فيها .<sup>(٢)</sup>

وأما الفقىهى فإنه يسائله المسترجعلى في جمع الآراء والاسئلة  
نسبةها إلى أصحابها <sup>(٣)</sup> ولعل أعلم رشى ما ينبله عن توجيهه . فتلى  
لصريين في ذرمنه بالنسبة لمن وضع النحو ، ويقول : « وأهل مصر قاطبة  
ذوق بزند النقل والتصحيح . أن أول من وضع النحو على ابن أبي طالب  
رضي الله عنه . وأخذ عنه أبو الأسود ، وأخذ عن أبي الأسود نصر  
بن عاصم البصري » .

ثم يمضي في ذكر السلسلة التي أفتى قراءتها عند غيره بمنزلة الزواقة  
للسبة لطبقات النحاة .

<sup>(١)</sup> الإصابة - ترجمة أبي الأسود ج ٢ ص ٢٤٢ - ٢٤١

<sup>(٢)</sup> السيوطى - السبب في وضع العربية

<sup>(٣)</sup> الفقىهى - انباء الرواية ، الضفحات الأولى من الكتاب .

ونحن لو تجاوزنا عن الخلاف في التعبير بين هؤلاء الرواة الذي لا يترتب عليه كبير خطايا ، والذى مصدره فى كثير من الأحيان التساهل وعدم الدقة فى اختيار الألفاظ الاصطلاحية فى الفترات الأولى من تدوين العلوم العربية ، حيث نجد ابن سلام يقول : « أنس العربية وفتح بابها ، وابن قتيبة يقول : ( وضع العربية ) . وبالميريد يقول : ( وضع العربية ) . وأبو الياب والسرافى يقولان : ( دلهم النحو ) .

نقول لو تجاوزنا عن هذا الخلاف بين لفظ زمانهم ووضعه، وأثنين المتقابلة المعنى، فإننا نستطيع أن نخرج من أقوال هؤلاء الرواية بما يشبه الإجماع على أن الواقع: ذلك اللبناني الأول في التخو إنما هو أبو الأسود الذي... وسحاويل الآن أن تتناول كل شخصية من هذه الشخصيات التي نسبت إليها أولية الوضع في التجو العربي فتفهمها، ونعلم بظروفها، ونجعل الرواية التي تنسب أولية الوضع إليها، نوعاً على ضوء ذلك. تكشف لنا الحقيقة التي أجلناها، ونستطيع أن نصدر عليها حكمنا في شيء من القضية، والطريق النقيض.

أما فيما يختص بنسبة ذلك إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فظاهر  
فيه ذكره التشيع، ويدل على ذلك أن هذه النسبة لا توجد وتنتشر  
إلا في البيئات الشيعية، كما رأينا ذلك في مصر أيام الفاطمي.

ولقد استطعنا أن نلمس ذلك عند الفدحاء أنفسهم، وأن نجد أثرها حتى

، بعض هذه الروايات التي نقلناها عن أصحابها .

ويضاف إلى هذا دليل آخر وهو أن ابن سلام وهو أقدم من أثرت  
نهم الرواية في هذا الموضوع ، لم يشر بذلك إلى بجهود على في تأسيسِ  
نحو . وليس مستبعد أن يكون أبو الأسود نفسه ، وهو من أشد التابعين  
على ، ومن أخاذ الناس إليه ، قد عزا شيئاً من بجهوده في النحو إلى  
بين المؤمنين تواعضاً منه أو تبركاً به أو تفانياً في شخصيته أو رغبة في  
عديمة المذهب ، الشيعي واستئثاره بكل فضل ، وإن ليس بمستبعد أيضاً أن  
يكون قد جرت مذاهب وثماريات بين عسلى وأبي الأبيزيد فيما كان  
باليه . الأسود يعتزم القول به من تأسيس النحو ووضعه .. كل هذا جائز ، وإن ليس  
بعيد أن يحصل وبخصوصاً في بيئة تتغلب فيها المعانى الروحية ، ولتكن  
لم يستبعد هو أن يكون أمير المؤمنين على بن أبي طالب قد قام بجهود علني  
يساهم معاهية فعلية في تلك البنية الأولى من عيتم النحو ، فإن نظر وفه  
المجانية ، ومشغولياته الدينية والسياسية ، وأهتمامه بما هو أجمل من ذلك ،  
رأخطر يجعلنا نطمئن إلى أن أبو الأسود هو الذي نرض بعده تأسيسِ  
النحو ، وترعى في ذلك الملايين التي اتجهت إلى دراسة العبرية وبالاهتمام بشأنها .  
ربما يزيدنا اطمئناناً إلى هذا الرأى هو أننا لم نعثر فيما قرأتناه من روایات  
أو فيها اطلعوا عليه من آثار أدبية وعلمية على أي أثر ينبع ، كدليل مادي على  
مشاركته . على في تأسيس النحو ، بل إن هناك من ينسبه للروايات غير التي :

تذهب وضع التحو إلى على ، ما يؤكد ذلك عنه ؟ من ذلك ما يرويه  
 الفقهي من أن أبا الأسود قد تلقى الأمر من علي بن أبي طالب بوضع  
 حرف النصب ؛ ولما رجع إليه بعد أيام قدم إليه صحيفه كتب فيها  
 حروف النصب على هذا النحو ؛ وإن ، أن ، كان ، ليت ، لعل ، وحينها  
 قرأها علي سأله : يرأين لكن ؟ فقال أبو الأسود ما يكتب أديري أنها منها ؟  
 فقال له علي : اثباتها فأيتها منها !

ونظرية ملخصة في هذه الرواية وفي مسدي ما تتحمله من مانع تجعلنا  
 نرفضها ، ونختن مطبوشون ؛ فهى لو صحت لابعدتنا ضرورة عن أن النحو  
 العربي قد يصبح وكملا لا في نظرياته العامة خسب ولا في زرؤس فسائله  
 فقط ، وإنما في تفاصيله ودقائقه قبل سنة ٤٠ هـ ؛ ذلك الأمر الذي لا  
 يتلامد مطلقا مع شأة علم من العلوم وعملي يند جوسة الأول ؛ ثم كييف  
 يعقل هذا وقد ابتدأ التحو في نموده الشريع حتى أيام شيوخه وهو لا يقدر  
 بهذا التقسيم الواضح ولا التفصيل المدقق لتفصيل هذا الباب بن أبوابه  
 التحسو ؟

على أننا نجد ما يؤكد ذلك بالتشبه لأبي الأسود ؛ وشذوذاته بعد قليل  
 فإذا كان من علي بن أبي طالب بعض الآراء في هذا فذلك لا يعنده  
 أو هو قريب التشبه بما عرف من إرشاد الرسول صلى الله عليه وسلم  
 لأنها به بتصحيح خطاها من نحن أئمه ؛ فقد روى أن رسول سمع لخطائنا

تجالسه فقال من كان معه من الصحابة : « أرشدوا أخاكم فقد ضل ». أو هو شبيه كذلك بما عرف عن عمر بن الخطاب من حرصه على العربية الصحيحة ، وكرادته للحن ونحوه من سماعه ثم دعوته بطريق غير مباشر إلى تعلم العربية وتجنب الاتصال فيها . وإذا نستطيع أن نقول إن ما كان من أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وأمر الخلفاء الراشدين من بعده و منهم على بن أبي طالب بشأن اللغة وتصحيفها كان طبيعياً ، تستلزميه الظروف ، وتدعوه إليه طبيعة المحرص على اللغة من أصحابها وخصوصاً بعد أن أصبحت لغة الدين الجديد وأداة معونة لأحكامه ، وكان هذا لا يزال بعيداً عن النحو بمعناه العلمي ووضع قواعده على أساس مذظوم .

وأما ما يرواه ابن الأذيم من أنه قرأ بخط أبي عبد الله بن مقلة عن تعليق من أن الواضع العربية هو عبد الرحمن بن هرمن فلا ينبغي أن يعول عليه ، ذلك لأنها رواية من مصدر واحد ولم يوجد ما يدعمها ولا ما يقويها من أدلة أخرى حتى تستطيع أن تقف أمام الإجماع الذي رأينا في جانب أبي الأسود الدؤلي . وعلى فرض قبولها وصحتها فإننا نستطيع أن نفهمها على الوجه الآتي :

كان عبد الرحمن بن هرمن من أصحاب أبي الأسود الذين يتمسكون بالعربية وبالحافظة عليها ، ولم يكن المجهود الذي يبذل في هذه الناحية شيئاً في دراسة مدرسية منتظمة كما تصوره الآن ، بل كان بثانية مشاورات ثنائية ، وآداته تتبع ، وبنصائح . تقدم لمناسبة خطأ أو لغير لوجظ على

لأنه متكلم بالتربيـة أو قارئ لم يعش آيات قرآنـية ، ثم إن هذا المجهود لا يتحقق أن يتصور دالـما صادرـا عن أولـك المـمـتـمـعـين بأـمـرـ الـعـرـبـيـةـ بـجـمـعـيـنـ ؛  
بل كان كلـمـهـمـ في حلـ منـ أنـ يـسـدـرـ رـأـيـهـ عـلـىـ انـفـرـادـ أوـ يـصـحـحـ لـخـنـاـ  
دونـ الـرـجـوعـ فـ ذـلـكـ إـلـىـ رـأـيـ أـسـتـاذـ أوـ الـاعـتـهـادـ عـلـىـ كـنـاـبـ مـذـدـونـ ؛  
فـكـانـواـ جـمـيعـاـ أـسـانـدـةـ فـيـ الـعـرـبـيـةـ حـرـيـصـينـ عـلـىـ مـتـعـارـنـيـنـ عـلـىـ سـلـامـتـهـاـ وـعـلـىـ  
إـنـقـاذـهـاـ مـنـ ذـلـكـ الـمـرـضـ الـاجـتـمـاعـيـ الـذـيـ بدـأـ يـشـرـبـ إـلـيـمـاـ .ـ وـأـمـنـ أـولـكـ

الـذـينـ يـسـتـطـيـعـ أـنـ ثـبـيـثـهـمـ أـرـائـنـ النـحـاةـ فـيـ الـعـرـبـيـةـ يـشـبـهـ ثـبـابـاـثـاـ  
كـانـ مـعـرـوفـاـ عـنـدـ أـوـائلـ النـحـاةـ فـيـ الـيـونـانـيـةـ وـالـلـاتـيـنـيـةـ وـالـسـرـيـانـيـةـ ؛ـ  
إـذـ أـنـ كـلـ وـاحـدـ مـهـمـ كـانـ يـسـأـمـ بـنـصـيـبـ مـنـ نـاحـيـتـهـ فـيـ ذـلـكـ الـمـلـاحـظـاتـ  
الـلـغـوـيـةـ الـتـيـ أـصـبـحـتـ فـيـ بـعـدـ أـمـاـ لـوـضـعـ النـحـوـ ؛ـ ثـمـ إـنـ هـذـاـ التـعـاوـنـ لـمـ  
يـمـنـعـ وـاحـدـاـ مـهـمـ أـوـ أـكـثـرـ مـنـ أـنـ يـمـنـطـرـ خـطـوـةـ عـلـيـةـ فـيـ وـضـعـ الـبـنـةـ  
الـأـوـلـيـ مـنـ هـذـاـ الـبـنـاءـ ،ـ وـمـعـ ذـلـكـ فـقـدـ كـانـ هـذـاـ الـمـجـهـودـ الـأـوـلـ يـعـزـىـ  
لـيـهـمـ جـمـيعـاـ .ـ

وـعـلـىـ ضـوـءـ هـذـاـ يـعـكـنـ أـنـ يـقـالـ إـنـ عـبـدـ الرـحـمـنـ بـنـ هـرـمـيـ قـامـ بـنـصـيـبـ  
مـنـ الـمـلـاحـظـاتـ الـنـعـوـيـةـ الـأـوـلـيـ فـيـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ ،ـ وـكـانـ هـذـهـ الـمـلـاحـظـاتـ  
تـلـقـيـ مـشـافـهـةـ لـاـ تـدـوـيـنـاـ :ـ وـلـعـلـهـ فـيـ هـذـاـ الـمـيـدانـ وـدـ سـاـمـ بـنـصـيـبـ كـبـيرـ حـتـىـ  
إـنـ ثـعـلـبـ رـوـىـ أـنـ الـوـاضـعـ لـلـعـرـبـيـةـ .ـ

وـهـذـاـ الـذـيـ ذـكـرـنـاهـ بـالـنـسـبـةـ لـلـمـلـاحـظـاتـ الـنـحـوـيـةـ الـأـوـلـيـ عـنـدـ الـيـونـانـيـنـ  
وـالـلـاتـيـنـيـنـ .ـ وـالـسـرـيـانـيـنـ يـوـكـذـلـكـ بـالـنـسـبـةـ لـلـنـحـاةـ الـأـوـلـاـنـدـ لـهـذـهـ الـلـغـاتـ الـخـافـةـ

يندر لنا أيضاً ما ذكره الرواة من أولية الوضع في النحو العربي لغير عبد الرحمن بن هرمن، إذ انسأله في نظرنا لا نجدو أن تكون نشاطاً ملحوظاً واهتمامًا أوسع في دائرة الاختلاف العربية وتصحيح اللحن فيها. ومراعاة الدقة في التعبير. ولعل نشاط عبد الرحمن بن هرمن قد ازداد بعد أبي الأسود الدؤلي حتى كاد يطغى عليه مما جعل ثعلب ينسب إليه أولية الوضع لهذا العالم، ويخيل إلينا أن كلية الوضع عند مؤلام الرواة كانت تطلق على من يبذل نشاطاً واسعاً في العربية كما كانت تطلق كذلك على الواقع الحقيق لأوليات النحو.

ومن هنا نجد نسبة الوضع الأول للنحو العربي تعزى إلى كثرين، ومن يفهم الجو العام للإنتاج النحوي الأول في البيشات العديدة لا يجد سريراً في تفسير ذلك كما أنه لا يجد صعوبة كبيرة في استخلاص رأى ليس فيه وجه الحقيقة معتمداً على أدلة جزئية أخرى تعززه وتقويه. وإذا كان الراوأة، كما لاحظنا، قد توسعوا في إطلاق كلية الواقع الأول لل العربية، فابتباحو لأنفسهم إطلاقها على من بذل جهداً في تخلص العربية مما شابها من لحن وضيق فإنهم قد احتاطوا من ناحية أخرى فلم يطلقوها على من أشرف على هذه المهمة من ولاة الأمر فلم نر ولم نسمع بأن زياد ابن أبيه أو الحجاج بن يوسف الثقفي قد اشتراكاً في وضع النحو بالرغم مما أبدياه من حرص على اللغة وقدماه من معاونة في سبيل تخلصها والمحافظة عليها؛ أما الأول فقد مد يد المساعدة إلى أبي الأسود الدؤلي، وفي

بعض الروايات هو الذي أمره بوضع النحو وألح عليه في ذلك : وأما الثاني فهو الذي باشر الخطة الثانية في المعاونة على المأذنة وضبطها وذلك بنقط الإعمام الذي وضعه نصر بن عاصم الليثي .

هذا وأمر نصر بن عاصم بالنسبة لوضع النحو يكاد يكون أدق وأشكال من أمر عبد الرحمن بن هرمن ، ذلك أن نصر بن عاصم قد قام بخطوة إيجابية في ضبط اللغة العربية وحلَّ كثير من إشكالياتها بواسطة نقط الإعمام الذي أصبح ضروريًا بعد أن دخلت اللغة في مرحلة المكتابة واتسعت فيها دائرة التسجيل فكانت حاجتها إلى ضابط يميز الحروف المتشابهة كالباء والثاء والذاء والذين والسين والراء والصاد والصاد وكالباء والظاء والخ .

نقول كانت حاجتها إلى ضابط يميز هذه الحروف بعضها عن بعض لا تكاد تقل عن حاجتها إلى نقط الشكل الذي يميز أواخر الكلمات . وما يزيد الموقف دقة بالنسبة لنصر بن عاصم هو أن بعض الرواة ينسب إليه أنه وضع كتابًا في النحو . بل إن الاستاذ مصطفى صادق الرافعي يذهب إلى أبعد من ذلك فيروى أن كتاب نصر بن عاصم يعتبر أول كتاب في النحو على التحقيق (١)

(١) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٩١

ومع هذا فإننا نستطيع في غير كبير عناء أن نفهم موقفه فيها يطعن  
إليه البحث ، ونستخلص حقيقة موقفه دون تعارض مع ما نسب إلى أبي  
الأسود الدؤلي من وضع البنية الأولى في بناء النحو العربي . ذلك أن الذهاب الإيجابية  
التي قام بها نصر بن عاصم ولم ينسبها واحدة من الرواة - فيما اطلعنا - إلى  
غيره ينبغي أن نخرجها عن دائرة النحو بالرغم من مساهمتها الفعالة في خدمة  
اللغة وتخليصها من كثير من الأخطاء التي كانت معرضة لها . وبالرغم كذلك  
من مشاركتها إلى حد كبير في حركة تنقية اللغة التي امتاز بها تصر الدولة  
الأموية في بيئة العراق .

وأما بما نسب إليه من وضع كتاب في النحو فهو في تلك من الملخصات ما  
يجمعنا - على فرض صحته - نستطيعه ونقبله دون أن يكون ذلك مصدراً للطعن  
في نسبة أولية الوضع في النحو لابي الأسود الدؤلي ، ذلك أن المدة التي  
عاشتها نصر . بن عاصم . بعد وفاة أبي الأسود كقبيلة يصهر بعض الملاحظات  
النحوية والتوسيع فيها ، ثم الإقدام على خطوة جديدة في ذلك الميدان .  
ـ بخطيرة التأليف والتبرير .ـ بعد أن ظلت الملاحظات نحوية مدة من الزمن .  
تصدر عن أسانذة العربية . مشافة وتنقل عن طريق . الرواية والساع . فلقد  
عاشر . نصر . بن . عاصم عشرين سنة بعد وفاة أبي الأسود أي من ٢٩٠ـ إلى  
٨٩ـ . وهذه الفترة ليست باليسيرة ولا بالقصيرة بالنسبة لتطور علم من  
أهم العلوم العربية ؛ من حيث الضرورة إليه وخصوصاً في وقت بدأت .

المقلية العربية تدخل بالعقليات الأجنبية و تستمد منها عناصر المعرفة الإنسانية وأوليات العلوم .

محتمل إذن أن يكون نصر بن عاصم قد ألف في النحو العربي كتاباً، ومحتمل أيضاً أن يكون قد برع في العربية واحتل مكان الصدارة فيها بعد وفاة أبي الأسود؛ وما يوحي هذا الاحتمال ويزيدنا ثقة فيه وأطمئناناً إليه هو أن الحجاج بن يوسف قد وكل إلى نصر بن عاصم دون سواه مهمة وضع نقط الاعمام وإزالة اللبس الخاطئ الذي كانت اللغة عرضة له بعد أن انتشرت الكتابة وأصبحت أداة لتسجيل المعرف ونقل الأفكار .

وإذا لاحظنا هذه الظروف التي أحاطت بنصر بن عاصم وبمكانته في العربية، ثم دخلنا في حسابنا تقدير القدماه وفهمهم لمعنى العربية وتوسيعهم فيها لدرجة إطلاقها على كل مجهد يتذلل من أجلها في سبيل المحافظة عليها وتخليصها من الشوائب التي لحقت بها أو كانت عرضة لها، نقول إذا لاحظنا كل ذلك أمكننا أن نفهم في يسر نسبة بعض الرواية أولية الوضع في العربية إلى نصر بن عاصم دون أن يكون في هذا تعارض مع ما نسبه بجهودهم إلى أبي الأسود الدولي، وذلك إما لنفرده بخطوة جديدة في ضبط اللغة وإما لتوسيعه في المجهد الذي بذله معاصروه وعلى الجميع من بجهود أبي الأسود، وإما بوضعيه أول كتاب في النحو كما بوعنا احتجال ذلك . وإن كان من العسير أن نطمئن إليه؛ إذ أنها قد استعرضنا ترجم العلامة

وقد اتى العنكبوت المأذنقة في فروع المعرفة العربية على اختلافها ، وذلك كله في كتاب الفهرست وهو ألم مرجع في ذلك وأوفاه على الإطلاق ، ومع ذلك لم يقف على أنثر لذكر كتاب أله نصر بن عاصم في النحو ؛ وعجب أن يسقط هذا الكتاب - إن كان قد وجد - من قوائم ابن التديم وهو العالم المحقق المدقق الجماعة .

والآن بعد مناقشة هذه الروايات المضاربة في نسبة أولية الوضع للنحو العربي واستبعاد ما يمكن استبعاده منها وتحليل ما يمكن اختياره خصته نستطيع أن نقول ونخمن بطمأنة أن واضع البناء الأولي في بناء النحو العربي إنما هو أبو الأسود الدؤلي دون سواه ، ودليلنا على ذلك بعد اتفاق جمهور الرواة من القدماء على أنه الواضع الأول للغة ما يأتي : -

أولاً - إن واحداً من هؤلاء الرواة ، حتى من بين من نسب الوضع الأول إلى غير أبي الأسود ، لم يعرض لنفي هذه النسبة إليه ليتخذه من ذلك وسيلة لإثباتها إلى غيره على انفراد ، بل أكتفى بنسبة الوضع الأول إلى من يراه وترك له من يأنى بهم مهما . الفهم والتفسير المغني الوضعي في العربية والتأسيس لها ، وإن من يدرس الظروف الاجتماعية إذ ذلك . ومن ينظر نظرة شاملة وفاحصة معاً في ملابسات هذا العلم . رفي . عدم الدقة . وقلة التجربة . التي اتصف بها القدماء في تعبيرهم . والتي كانت مثاراً الكبيرين من الشك

والخلاف بالنسبة لمن جاء بعدهم <sup>(٤)</sup>؛ نقول إن من يفعل ذلك لا يجد صعوبة في تعليل هذا التنازع واستخلاصحقيقة يحدثن إليها ويعتمد عليها وعلى هذا يسلم لنا تصحيح نسبة الوضع الأول لأنّي الأسود ولا يطعن في ذلك ما يرويه الآخرون من نسبة الوضع في العربية إلى غيره .

ثانياً - ما عثر عليه من آثار مادية قديمة تصور لنا ما ذكره الرواية خاصاً بمجموع أبي الأسود في العربية ، ومن هذه الآثار مصحف مخطوط قد عثر عليه في مسجد عمرو بن العاص في مدينة الفسطاط ، ويعتبر هذا الآثر لحتى اليوم أقدم مصحف مخطوط في العالم ، ولا يزال بحالته التي وجد عليها في المكتبة الخديوية في القاهرة ، وهذا المصحف قد جمع في نسخة العمالين اللذين قام بهما أبو الأسود الدؤلي ونصر بن عاصم الليبي ، فالشكل الذي وضعه أبو الأسود قد رسم بداد أحمر وبنفس الطريقة التي نسبها الرواة إلى أبي الأسود وأما نقط الاعظام فقد رسم بداد أسود وبنفس الطريقة التي نعرفت بذلك عن نصر بن عاصم . وهناك أمثلة ماضى آخر ينبعق أن يضاف إلى هذان

بن الحسين وزرآغا صاحب الفهرست بنفسه وزروينأ نصه في هذا متذليل  
وهذا الأثر وإن لم يصل إلينا إلا أنه يصنف من السهل أن نطعن فيه

(١) قد لاحظ هذه الحقيقة الاستاذ مصطفى صادق الرافعي في الجزء الاول من كتابه - تاريخ آداب العرب - ص ٣٣٧ هامش رقم ٢

لأن ابن النديم قد عرف بدقته في المقال والرواية ، فهو حين يرى بنفسه يقول رأيت وحين يسمع من شخص يقول حدثني فلان أو سمعت من فلان ، وحينما لا يطمئن إلى شيء أو لا يتأكد منه لا يخرج من أن يقول - لم أر - أو يصعب هذا القول بعبارة تدل على عدم اطمئنانه إليه ، وهكذا تفيض تعبيزاته من أول الكتاب إلى آخره بما يدل على تحفظه في النقل . ودقته في الرؤاية رصراحته في التعبير . ولو أدخلنا في حسابنا إن عيوب هذا مما هو مغزوف من قضر ، الزمن بين أبي الأسود وز ابن النديم ، خالقها بين وفاة الأول ومولد الثاني لا تكاد تتجاوز قرنين . وربع قرن من الزمن ؛ إذ إن الأولى منها مات سنة ٦٩ هـ ، والثانية مات جراحي سنة ٢٨٠ هـ ، نقول لو أدخلنا في حسابنا أيضاً هذا الاعتبار لضاعف ثقتنا وأكده طمأنينا بما يذكره لا صاحب الفهرست .

وكل ما يمكن أن يوجه من نقد - فيما أطعلنا عليه - إلى هذه الصفحات الأربع في التحري المنسوبة إلى أبي الأسود الماذلي فهو ما ذكره الاستاذ يحيى صادق الرافعي (١) من حيث أبداً أبو الأسود لم يكتب بنفسه هذه الصفحات وإنما كان أصحابه هم الذين يكتبون ذلك عنه ، ثم خلص الاستاذ الرافعي إلى القول بأن كل ما كتبه أبو الأسود نفسه إنما هو صحيفه في الأدب عرفت بتعليقه أبي الأسود وكانت مصدر خلاف وشار جدل .

(١) - تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٩١

بين النحاة ، سواء ندينا أكانت الصحائف الأربع التي نسبها ابن النديم  
إلى أبي الأسود من كتابة أبي الأسود نفسه أم من كتابة أصحابه عنه فإن  
الذى يهمنا في هذا المقام إنما هو التأكيد من أن ما تحتوى عليه هذه  
الصحائف من النحو أو من الكلام في الفياء والمفعول إنما هو من عمل  
أبي الأسود الدؤلي ، ولا يطعن في ذلك أن تكون البحائف قد حكتها  
إيد شخص آخر ما دامت بمعرفته وتحت إشرافه ، كلام يطعن في شكله  
للفرقان بطريقة النقطة أن كان ذلك بيد كاتب لقى تنفيذه طريقة أبي الأسود  
وينسجل ما يليه عليه أبو الأسود .

ونظن بعد هذا أن ذلك التحديد الذي قدمناه ، وتلك الخطوات التي  
سلكناها في بحث هذه النقطة ، وهذه الشائج التي وصلنا إليها ، كل ذلك  
كاف للتأكد من أن أبي الأسود كان الواضع الأول للنحو العربي .

ولترك الآن مكتفين بهذا الكلام عن أبي الأسود ، ولننتقل إلى  
المحدث عن نقطة أخرى فيها من الدقة ، ولوها من الحقلنورة ما يجعلنا في  
حاجة أخرى شعايلة لمسألة الواضع الأول للنحو العربي ونعني بذلك النقطة  
اللبنة الأولى في بناء النحو العربي .  
ما هي اللبنة الأولى في بناء النحو العربي؟

إن أمر هذه اللبنة — بعد الذي قدمناه — سهل ميسور فواضحتها  
هو أبو الأسود ، وهنا نجد من الخلاف والإضطراب عند القدماء بالنسبة

لهذه المسألة ما يعادل الخلاف والاضطراب بالنسبة للواضع الأول للنحو العربي : وهما ذي كتب الرواية تعرض علينا صورة مشوهة مشوهة المعالم ، غير دقيقة الملائمة عن أولية الوضع في النحو ؛ تشبه تماماً نفس الصورة التي رأيناها عن الواضع الأول لهذا النحو ، فرة تطالعنا هذه الكتب بأن أول ما وضع أبو الأسود في النحو العربي إنما هو باب التعجب ، وذلك على أثر لحنة بدرت من ابنته في صيغة التسجع ! ومرة أخرى تطالعنا هذه الكتب نفسها بأن أول ما وضع أبو الأسود إنما هو باب الفاعل والمفعول؛ وذلك على أثر لحنة بدرت من شخص فارسي ؛ ومرة ثالثة تفسر هذه الكتب بأن أول ما وضعه أبو الأسود إنما هو جروف النواصي ، وذلك يازداد من على بن أبي طالب عليه السلام ؛ وقد يضاف إلى ذلك خروق في الجوازم أيضاً ، ومرة رابعة تذكر هذه الكتب بأن أبا الأشود أول ما ذكر في النحو فكر في الكلام ، ثم وضع أقتضاه من اسم و فعل و حرف ، وهذا من التشقيق ، والتقرير والخلاف ما يترك الباحث في نفس الحيرة التي أحسينا بها وصورناها عندما كنا نتحدث عن الواضع للنحو العربي وفي الواقع أنها لو أهلنا عمل العقل ، واستهلاكنا لكل ما ذكره الرواية دون تمحص لا تهمنا إلى أن أهم أبواب النحو ، وبرهان مسائله ، بل وكثيراً من التفصيل فيها قد وضعها أبو الأسود الدؤلي ، وذلك صعب فيه عسير قيوله إذ أنه كيف يتصور ذلك وما رأينا في تاريخ علم من العلوم الإنسانية أنه بدأ ، ونما ، وأشرف على الكمال في خياله رجل واحد

وعلى يد رجل واحد ؟

إن حياة العلوم طوية شاقة ، وتحتاج إلى بجهود جبار ، لا من شخص واحد ، ولكن من جماعات متألفة متعاونة وأمامتنا من الأمثلة على ذلك تاريخ النحو اليوناني وتاريخ النحو اللاتيني ، فالاول قد استند أجيالاً ولم يشرف على درجة الكمال إلا بعد قرون ..؛ والثاني ..بالرغم ..من انتقامه بمتهج الأول ، وبجهود رجال النحو اليوناني لم يثبت على قدميه إلا بعد مئتي ما يزيد على ثلاثة قرون . (١) ..

(١) .. من الثابت أن التحو اليوناني بدأ يأخذ طريقه إلى الخداعة في خلال القرن الخامس قبل الميلاد على أيدي أستاذية الحركة السوفياتية في آثينا ثم أخذ ينبع ويزنقل عن العالم اللغوي الأخرى ، وبذلك لم يتم له ذلك إلا في أواخر القرن الثاني بعد الميلاد ؛ وكان ذلك على يد عالم يوناني من علماء الإسكندرية اسمه *Densis de Thrace* ؛ ويعني هذا أنه استمر نحو من سبعة قرون من الزمن ؛ وهذا مع ما هو معروف عن اليونان من ثقافة ونشاط ، ومع ما امتازوا به من سعة المعرفة ، وطول الاباغ في الأبحاث العلمية .

أما النحو اللاتيني فقد بدأ دوره في خلال القرن الثاني قبل الميلاد بفضل بجهود عالم لغوى لاتينى يسمى *Tarro* ؛ ولكنه لم يكمل إلا في خلال القرن الثاني بعد الميلاد على يد نفس العالم اليوناني *Densis de Thrace* ؛ أي أنه بي أكتر من ثلاثة قرون .

ولكي تتصور المجهود العنيف في ذلك ، والصعوبة التي يتعرض لها العلم في تأسيسه وتكوينه نأخذ جزئية واحدة من جزئيات النحو العربي فتتمثلها في عددها الأول ، ونتصورها على حقيقتها ، ولتكن هذه الجزئية أقسام الكلام اسم ، و فعل ، وحرف ، أو حروف النواصب ، إن ، وأن ، وكأن ؛ ولكن ، وليت ، ولعل ؛ أو نواصب المضارع - أن ولن ؛ واذن ، وكى ؛ وحتى ؛ ولام التعليل ؛ او ... أو ... الخ.

قد يبدو لنا الآن سهولة تصور انحصار الالفاظ العربية في الاسم ، والفعل ، والحرف ؛ أو انحصار حروف النصب للأسماء في إن ، وأن ، وكأن ، ول يكن ، وليت ، ولعل ؛ غير أن هذه السهولة ليست في الواقع إلا ثمرة بجهود أجيال عديدة ، وطواقيف من العلامة قد أفنوا حياتهم في الدوس ، والتحصيل ، ثم في الشرح ، والتفصيل . ولكن جزئية من هذه الجزئيات كانت تتطلب حتىًّا عن يعرض لها قبل وجودها ، ويريد وضع لاحق لها قبل تأسيسها ؛ نقول إن يبحث جزئية من هذه الجزئيات كان يتطلب حتىًّا استقراء شاملًا للغة ، ومفرداتها ، واستيعابًا عامًا لنصوصها ، وتراسكيبيها ، وأسباليها ، حتى يمكن حصر مفردات هذه الجزئية ، ومعرفة استعمال هذه المفردات ، وعقد المقارنات بين أسباليها في الاستعمال ، ومعرفة أوجه الشبه بين هذه المفردات من ناحية اللفظ ومن ناحية المعنى ومن ناحية العمل ، ثم إدراك الفروق بين هذه المفردات في كل ذلك حتى يمكن

الجمع ينتمي في باب واحد من حيث الوظيفة ، والعمل ، والتفرقة بينها في نفس الباب من حيث النقطة والمعنى ، وليس ذلك كله بالشيء المبين أيسير .

إن الباحث الناقد لشأن هذه المسألة ، لو لم يكتفي ، في إدراك خطورتها ، وتصور صعوبتها ، بما أشرنا إليه من تفرع البحث ؛ وامتداد جوانبه ، وتعدد أطرافه ، وبما قدمناه من الكلام في تاريخ العلوم ، وخصوصاً التحريف اليوناني ، واللاتيني ؛ نقول إن الباحث الناقد ، لو لم يكتفي بذلك ، ينبغي أن يطلع على النصوص الأدبية التي كانت مغروفة في صدر الإسلام ؛ ويقرأ التاريخ ؛ فلهم سير العلماء الأولئ في الإسلام ، ويعرف الكثير عن تاريخ شأنة العلوم الإسلامية ، ثم يعود بخياله وذاكرته إلى الوراء ليعيش فترة من الزمن ؛ على ضوء ذلك مع أبي الأسود الدؤلي ، وبيحيى بن عبد الله ، وعبيدة الفيل ، وثيمون بن الأقرن ، ونصر ابن عاصم ، وعبد الرحمن بن مهران ، وعائذ بن عمرو الثقفي ، وأبي عمرو ابن العلاء وعبد الله بن أبي إسحق الخنزيري ؛ فزيوس بن حبيب ؛ ليرى كيف كان هؤلاء الرجال يتدارسون العلم ، ويواجهون مسائله ، ثم يتباذلون الرأي في نواحي المعرفة ، وليس من المعقول ما كان ينتزه في حلقات الدرس ، في البيوت ثانية وفي المساجد أخرى ؛ من الكلام في آلة ، وفي التحرير ، وفي المعرفة ، وفي الأدب ، وفي الدين ، وفي التفسير ، وفي الحديث ، بل وفي غير ذلك من الكلام في الشريعة ، وفي التاريخ ، وفنتيماً يتعلق بشئون المجتمع ،

فهم كيف كان هؤلاء العلماء يستقون معارفهم وإلى أى المراجع يرجحون ،  
 بفـ كان طلابـهم يعون تلك المعارف ، وأـى المناهج في تنشـيمـها يـسلـكون ،  
 ليـعـدـ إـلـيـناـ بـعـدـ ذـلـكـ يـحـادـثـناـ عـماـ رـأـيـ ، وـمـاـ سـمعـ ، وـمـاـ فـهـ . وـمـاـ نـظـنـ  
 يـالـيـنـ حـبـينـ نـقـولـ : إـنـهـ سـيـحـدـتـنـاـ عـنـ خـلـيـطـ هـاـزـلـ مـنـ المـعـرـفـةـ لـاـ  
 كـادـ الـمـرـءـ يـمـيـزـ فـيـهـ مـاـ دـلـيـلـ مـنـ مـادـةـ عـلـيـةـ أـخـيـرـيـ ،  
 سـيـطـرـادـ طـوـيـلـ فـيـ التـوـلـ قـدـ يـكـوـنـ فـيـهـ مـنـ دـوـاعـيـ الإـغـرـاءـ ، وـمـوـسـائـلـ  
 جـوـيقـ ماـ يـمـسـكـ الـانتـبـاهـ ، فـإـذـاـ مـاـ تـابـعـ الطـلـابـ الـأـسـتـاذـ ، وـاتـهـواـ مـعـهـ  
 آخـرـ الـكـلـامـ يـكـوـنـ قـدـ غـابـ عـنـهـ أـوـلـهـ ، وـطـرـيـقـةـ أـخـرىـ فـيـ فـهـمـ  
 مـوـرـ وـمـعـانـجـهـاـ ، وـفـيـ مـنـجـ التـفـكـيرـ وـأـسـالـيـبـ التـغـيـرـ .  
 وـإـذـنـ فـكـيـفـ يـمـكـنـ أـنـ تـقـبـلـ كـلـ مـاـ نـسـبـهـ الرـوـاـةـ إـلـىـ أـبـيـ الـأـسـوـدـ  
 ، وـرـضـعـ فـيـ الـبـحـرـ ؟

يـخـيـلـ إـلـيـناـ أـنـاـ لـوـ اـنـتـبـقـنـاـ كـلـ مـاـ عـزـوـهـ إـلـىـ أـبـيـ الـأـسـوـدـ . وـلـمـ نـجـتـكـمـ فـيـهـ . إـلـىـ  
 طـبـيعـةـ الـعـلـمـ وـنـشـائـهـ ، وـلـاـ إـلـىـ طـبـيعـةـ الـبـيـةـ الـتـيـ كـانـ يـبـيـشـ فـيـهـاـ أـبـوـ الـأـسـوـدـ  
 بـهـ لـنـاـ مـنـ خـلـالـ أـقـوـالـهـ عـلـمـ فـيـ النـحـوـ يـكـادـ يـكـوـنـ وـاضـحـ الـمـعـالـمـ ،  
 تـرـفـ الـبـحـثـ . بـمـحـدـدـ الـأـهـدـافـ ، بـلـ رـبـماـ كـانـ نـحـوـ أـبـيـ الـأـسـوـدـ أـدـقـ نـظـامـاـ  
 أـكـثـرـ تـفـصـيلـاـ مـنـ نـحـوـ سـيـبـويـهـ وـيـلـيـهـاـ نـحـوـ قـرنـ مـنـ الزـمـانـ ؛ وـلـيـقـنـ  
 أـمـ الـقـارـىـءـ ، لـكـيـ يـسـتوـضـحـ ذـهـنـ الـمـسـأـلـةـ ، سـوـىـ أـنـ يـنـتـارـ فـيـ بـابـ الـفـاعـلـ  
 فـيـ بـابـ حـرـوفـ الـنـصـبـ لـلـأـسـماءـ مـنـ كـتـابـ سـيـبـويـهـ ، سـيـرـىـ فـيـ أـلـوـلـ

خليطاً من المعارف ، واضطرباً في القواعد ، فهناك كلام في الفاعل ، وفي النائب عن الفاعل ، وفي الفعل المتعدى ، وفي الفعل اللازم ، وفي الفعل المبني للعلوم : وفي الفعل المبني للجهول ، وفي الفعل المتعدى إلى مفعولين ، وفي الفعل المتعدى إلى ثلاثة مفاعيل ، ثم يستطرد فيذكر الأفعال الناسخة مثل كان وأخواتها مقارناً المبدأ والخبر بالفاعل والمفعول .<sup>(١)</sup>

وسيرى في الثاني قصوراً وعدم شامل ، فهناك الحروف النواصي خمسة ؛ بينما هي في نحو أبي الأسود ستة .<sup>(٢)</sup>

وبعد الذي قدمناه من عرض سريع للبيئة العربية ، والمجتمع العربي أيام أبي الأسود ، ومن كلام موجز عن طبيعة العلوم الإسلامية ونشأتها نستلقيع أن تقرر في صراحة أن منهج البحث العلمي الحديث ليس على استعداد لقبول كل الروايات التي تذهب وضع النحو إلى أبي الأسود الدولي ، ولست كذلك على استعداد لخاتمة الإطالة . لمناقشة كل هذه

(١) انظر كتاب سيبويه جزء ١٠ ص ٢٨ - ٣٠ . طبعة باريس سنة ١٨٨١ م

(٢) انظر كتاب سيبويه ص ٢٤١ - ٢٥٠ من الجزء الأول طبعة باريس سنة ١٨٨١ م . حيث ينص مرات على أن هذه الحروف خمسة ، وانظر كذلك إنباء الرواية على أبناء النحاة للقطاطي ج ١ ص ٤ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٠ م حيث بعد هذه الحروف ستة بطريقية واو العطف التي تتفق المعاير : وهو ينسب ذلك إلى أبي الأسود وعلى بن أبي طالب .

الروايات وتفنيدها ؛ مكتفين - على سبيل المثال - بما أثيرنا إليه من تفنيد  
بعضها هنا ، وبما قدمناه من مناقشة لآراء العلماء بالنسبة للراضع الأول  
للنحو العربي هناك .

ولاذن فإن الذي نستطيع أن نطمئن إليه ، ونقرره على ضوء ما تقدم  
حتى الآن ، هو أن اللبنة الأولى التي أرساها أبو الأسود الدؤلي في بناء  
النحو العربي كانت شكله للقرآن عن طريق النقط كأجمع الرواة على ذلك ،  
ونزاجح أنه بعد أن تمت له هذه الخطارة - وهي ليست باليسيرة كا تصورها  
الآن - قد تلاها ، فربما يكون قد صحبتها كلام وملاحظات عنا هو مرفوع  
وزعاً هو منصوب ، وعما هو مجرور ؛ ومدى هذه الملاحظات وذلك الكلام  
ليس من السهل أن نبيئه ، ولا أن نحدده ، فقد ضاعت كل الآثار المادية  
التي تبرهن أمامنا الطريق في هذا . ولعل طول المدارسة ؛ وكثرة المناقشة  
بين أبي الأسود وطلابه قد قادتهم إلى الكلام في معنى التعجب ، وفي معنى  
الفاعلية والمفعولية ، غير أنها نشأ كثيراً في أنهم بوبوا للنحو ، وفصلوا  
في قواعده ، ووضعوا له هذه المصطلحات العلية التي تطالعنا في روايات  
المقدمين ، وفق تشكيل المتأخرین .

وليسا في هذا تجني على الرواة ، ولا نلق القول على عواهنه ، ولكننا  
نحثكم إلى الآخر المادي الوحيد الذي حدثنا عنه وعن ضياعه عالم ثقة ليس  
من السهل أن نطعن فيه ؛ ذلك هو ابن النديم صاحب الفهرست ، إذ

يقول عن الأوراق التي رأها عند ابن أبي بعرة أنها كانت تحتوى على كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود : ولم يقل إنها تحتوى على باب الفاعل وباب المفعول ، <sup>(١)</sup> وزرجمح كذلك أن هذه الملاحظات النحوية التي يبدأ بها أبو الأسود وتبعه فيها طلابه قد بقى ملاحظات تناول النصوص الأدبية من شعر ونثر حتى النصف الأول من القرن الثاني للمigration ، أبي حنيفة عبد الله بن أبي الحضرمي ، وبرون بن حبيب ، والخليل ابن أحمد ؛ ولم ترق هذه الملاحظات النحوية إلى أن تكون قراءة مجردة لاصلة لها بالنص الادبي نفسه ؛ وذلك كأنه يقال مثلاً إن حروف النصب في الفعل المضارع هي كذا وكذا ، أو الحرف الناجزة حكم المبتدأ والخبر هي كذا وكذا أو الحروف التي تجر الأسماء هي كذا وكذا ... الخ ؛ وإنما كانت النصوص الأدبية نفسها هي ميدان الملاحظات ، ومادة الدرس ، ويعد إلقاء ، كان يقال مثلاً إن هذا الفعل المضارع في هذه الجملة قد أصيّب هنا ولم يرفع كا نصيّب الفعل المضارع: في بيت من الشعر لأمرئ القيس ، أو للنافع ، أو للأعشى ثم يذكر نص البيت ، وبربما يورد كل ما تستحضر المذاكرة من الشواهد الأدبية في هذا ؛ وهكذا يغضي النحويون في مناقشتهم وفي ملاحظاتهم الخاصة بالسائل النحوية كرفع الاسم إذا وقع في أول الجملة أو بعد لفظ يدل على حيث ، وتنبه إذا كان دالاً على

(١) أنظر الفهرست ص ٦٠ - ٦١

زمان ، أو مثيراً إلى مكان أو مبيناً لحال ذات من المذوات ،

ويدلنا على صحة ذلك . أمران نذكرهما باختصار :

الامر الاول : هو ما نجده في النحو اليوناني أو النحو اللاتيني عند نشأة كل منها على أيدى أوائل النحاة اليونانيين واللاتينيين ؛ فقد كانت مسائل النحو إذ ذاك عادة ومت未成ية على نصوص الأدب من شعر ونثر ، ولم تصل إلى مرحلة القواعد المنضبطة ، ولا إلى التجريدة العلمي المطلق إلا بعد أجيال . .

الامر الثاني : هو ما نجده من صورة واضحة لتلك الملاحظات والمناظرات في أقدم نحوٍ وهي وصل إلينا ، وهو كتاب سيبويه ؛ فإيانا لو نظرنا فيه بإمعان لونجدناه يطالعنا في كل أبوابه بأمثال مقتنيه الملاحظات ؛ وعلى الخصوص حينها ينقل إلينا في ثنايا مسائله آراء يوبقق بن حبيب ، أو آراء الخليل بن ابن أحمد . . . . .

وإذا أضفنا إلى هذين الأمرين تصورنا للبيئة العربية في فوز الدولة الاموية ، وما كانت تحمله العقلية العزبية . إذ ذاك من مفرقة علمية ، وقدرة على التجريد ؛ نقول إذا أضيف هذا إلى الأمرين السابعين ظهر لنا في وضوح نوع النحو الذي وضعه أو فكر فيه أبو الأسود الدؤلي ، وزع علينا قبول الروايات التي تنسب إلى أبي الأسود وضيق أبواب منظمة وضوابط مجردة في النحو العربي كالرواية القائلة بأنه وضع باب الكلام وقال إنه يشتمل على اسم و فعل وحرف جاء لمعنى ؛ أو الرواية الأخرى القائلة بأنه وضع باب النواسخ ، وقال - بعد مشاورته على بن أبي طالب - إنه يشتمل على إن ، وأن ،

ولتكن ، ركان ، وليت ، ولعل !! !!<sup>(1)</sup>

ولم نذهب في استدلالنا بعيداً ، ونحاول في إثبات ما نحن فيه هنا أن ننجا إلى طريق العقل ، والمقارنة ، وذلك أشبه ما يمكن بطريق التجريد الذي نحاول أن نهدمه ، أو تسبقه في هذه المسألة بالذات ؛ نقول لم نذهب في هذا بعيداً وأمامنا من الأشياء المادية في ذلك . العصر بالذات ما يصور طبيعة العلية ؛ تزويج نوع العمل الذي كان يشغل نحاة الغرب في ذلك الوقت ؟ إن طريقة فقط . الشكل عند أبي الأسود ، وطريقة فقط الإجماع عند نصر بن عاصم كلتاها تربينا عملاً آلياً ، بدائياً ، بعيداً عن معنى التجريد ، ويقاد لا يكون للعقل أى تدخل فيه ؛ فكيف يتلامم . هذا العمل الآلي ، الميكانيكي ، مع التجريد المطلق ؛ الذي للحظه في أبواب النحو المنسوبة إلى أبي الأسود الدؤلي ؟

أما طريقة الشكل ، وهي اللبننة الأولى في بناء النحو العربي ، فقد استمدتها أبو الأسود الدؤلي من النحاة السريانيين ؛ ونحن نقرب مبدئياً بأنه ليس في ذلك ما يضر النحو العربي ، ولا ما يقلل من قيمة مجده . أبي الأسود فيه .

إن موقف أبي الأسود في هذا يشبه إلى جد كثيير موقف البكثير منا

(1) انظر إباه الرواه على أنباه النحاة المقطلي ج ١ ص ٤ - ٥ طبعة دار

الآن ؟ فنحن نحاول أن نتصل بالغرب لتعلم لغته وندرس ثقافته ، ونعرف مناهج البحث عنده ؛ وإذا ما ألمتنا بشيء من ذلك عدنا إلى معارفنا الخاصة ، واتخذنا من فروعها المختلفة ميدانًا لتطبيق تلك المنهجات لكي نبعث ثقافة الشرق بعثاً جديداً ، ومع ذلك فلم يقل ، ولا ينبغي أن يقال إن هذا الصنيع يسيء إلى معارفنا ، أو يقلل من شأن القائمين به . هذا وإن من يدرس تاريخ الحضارات ، أو يقف على ما فيها من تداخل ، وما يتبناه من صلات يستطيع أن يدرك في سهولة سلامة موقف أبي الأسود ، بل عظمة صنيعه هذا في خدمة اللغة وال نحو على السواء . إن الحضارة الإغريقية القديمة قد أثبتت على صلاتها بالحضارة البابلية - الآشورية من ناحية ، وبالحضارة المصرية القديمة من ناحية أخرى ؛ ومع هذا فلم يعنها ذلك من أن تسود العالم ، وتملأ شعوبه بمبادئها العديدة ، ومعارفها المختلفة .

ولدينا من الأدلة بما يتبين في وضوح أن أبي الأسود قد استمد طريقة نقط الشكل من لدن النحاة السريانيين ؛ من هذه الأدلة أن أبي الأسود قد اتخذ بيته العراق موطناً ، وكان بها إدارياً ، وفيها عالماً لغورياً ، وزعيمًا دينياً ؛ وبخوب . نعلم أن هذه البيئة كانت قبل الفتح العربي ، وبعد الفتح مغروبة باللغة السريانية ، وبالمعارف السريانية ؛ وبكانت إلى جانب ذلك آلة العلامة السريان ، وميداناً لدراساتهم ، ومناقشاتهم ، وجدهم ، لا في الناحية الدينية ، أو الفلسفية فقط ، ولكن في مختلف العلوم الإنسانية ،

ومنها اللغة والشحو ؛ ونعلم أيضًا أن اللغة العربية قد تعرضت - بعد اتساع الفتوح الإسلامية - إلى نفس الأزمة التي تعرضت لها اللغة البريانية في خلال القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد : ظهور لغات أخرى في ميدان الحديث والكتابية ، وانتشار اللحن بين الناشئين ، والحرف من أن يمتد هذا اللحن إلى نصوص الكتاب المقدس .

هذه هي مظاير الأزمة التي مرت بها اللغة البريانية في القرنين الرابع والخامس الميلادي ، واللغة العربية بعد اتساع الفتوح . ولقد كان من ناتج هذه الأزمة عند السريان أن فكروا في وضع خواص لشكل كتابهم المقدس ؛ ولم تكن هذه الخواص سوى طريقة النقط التي استعمالها أبو الأسود الدؤلي في ضبط شكل القرآن . من هذا نرى أن المفردات مشابهة والظروف مشابهة ، والنتائج مشابهة ، وكلما العملين قد حدث في بيته واحدة ؛ أليس من العجب إذن أن نقول إن أبو الأسود الدؤلي لم يستمد طريقة ضبط الشكل من السريانيين الذين سبقوه بنفس العمل ؟

بق علينا أن نوضح كيف اتسع أبو الأسود باللغة البريانية وبعلمائها ؛ والأمر في ذلك سهل ؛ إذ أن صله بالعلماء ليس من السهل أن يشك فيها ؛ فلقد كانوا الطبقة المستشرية المثقفة في دولة العراق ، وكانوا فوق ذلك يمارسون نشاطاً في هذه البيئة لا يجارى من ناحية الدرس ، وإنما يكتفى ؛ ولا ينبغي مطلقاً لعالم ديني لغوى ، وحاكم إدارى كأبي الأسود أن يحمل وجود

هذه الطبقة ! فهو لابد وأن يكون قد اتصل بها ، وخالفتها ، وتحدى إليها  
 وتعرف على كثير مما تهتم به من المسائل العالمية ؛ وإذا كان الأمر كذلك  
 فيليس هناك ما يستلزم أن يكون أبو الأسود قد تعلم اللغة السريانية لكي  
 يأخذ منهج شكل النصوص الدينية عن أصحابها : فمن الممكن بذاته أن يأخذ  
 عن طريق الترجمة ، سواء من العزب الدين يعرفون المزيانية ، أم من  
 السريانيين الذين يعرفون العربية . على أتنا نظن بل نرجح أن أبو الأسود  
 كان يعرف اللغة السريانية . معرفة تمكّنه من الفهم بها ، وقراءة بعض  
 تصوّرها إلى حد ما ؛ وذلك لاقامته الطويلة في بيته العراق ، واهتمامه  
 الشديد بالآدبيات اللغوية والدينية أثناء إقامته في تلك البيئة ، وهي تكاد  
 تكون بيته سريانية . في أول بعده اتصال العرب بها ، ولما ورد في الآثار  
 من أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه قد حبوا على تعلم اللغات  
 الإنجليزية وأولاًها في ذلك الوقت ، بالنسبة للمهتمين بالبحث ، والمعرفة ،  
 والتبشير ، هي اللغة السريانية .

زعماً يشهد بذلك ما عرف من أن علي بن أبي طالب كان ينطق في  
 أحاديثه أحياناً بالفاظ أجنبية ، مثل كلمة - قالون - باللغة اليونانية . (١)

(١) انظر فقه اللغة المعاشر ص ٥٥، القسم الأول؛ ويلاحظ هنا أن المعاشر  
 ذكر أن هذه الكلمة رومية ، وهو من قبيل الخلط عند التدماه في تسمية ما  
 ناف بالرومي .

ومثل هذا ، وإن كان قد استعمل على سبيل التبييط أو الفكاهة من الإمام على كرم الله وجهه : إلا أنه كان بثابة الدعوة الصريحة لعلم اللغات الأجنبية : ونخن نعلم مبلغ ما تحدثه إشارة الرئيس أو كلته من أثر في المجتمع ؛ فقد تكون الكلمة تلقى ، أشد تأثيراً وأسرع سريانًا في الشعب من كتاب يمؤلف أو قانون يوضع .

ولعل القارئ لا يجد صعوبة في فهم المصلحة بين طريقة النقطة التي وضعها أبو الأسود لشكل النص القرآني، وبين النحو العربي؛ إذ أنها كانت بناءً على الخطأة الأولى التي يشار حولها كلام في الموضوع، وفي المتصوب، وفي المجرور، وفي الباسك. وحكاية أبي الأسود مع زياد ابن أبيه، وطلبه كتاباً لفنا يكتب ما يعلى عليه، وشرحه لطريقة الشكل الذي يريد؛ كل ذلك مبين واضح في المصادر القديمة مثل الفهرست لابن النديم<sup>(١)</sup> وإنما الرواة على أنباء النحاة للقططي<sup>(٢)</sup> ولا يزال لدينا حتى الآن أثر قديم يشرح لنا هذه الطريقة عملياً ولا يدع مجالاً للشك في تطبيق طريقة أبي الأسود؛ ذلك هو مصحف قد وجد في مسجد عمرو بن العاص في القاهرة ولعله أقدم مصحف خطاط في العالم، قد شكل بنفس الطريقة التي شرحها أبو الأسود لكتابه؛ ومن حسن الحظ أن غير على هذا المصحف ولا يزال

الفهرست نص ٦٠

<sup>(٢)</sup> إنباء الرواية على أباه النحاة ص ٥٧ طبعة دار الكتب المصرية سنة وجود



